

من منشورات جامعة تونس

رسائل ابن الاشير



دراسة وتحقيق
الدكتور نورى القيسى
هلال ناجي

من منشورات جامعة الموصل
ندوة أبناء الأثير

رسائل ابن الأثير

ضياء الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري

٥٥٨ هـ - ٦٣٧ هـ

« تنشر لأول مرة »

دراسة وتحقيق

هلال ناجي

الدكتور نوري حمودي القيسي

طبع بمطابع مطبوعة دار الكتب والطباعة والنشر جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم

ضياء الدين بن الاثير
من المهدي الى اللحد*

في جزيرة ابن عمر الخصبة الوادعة المتكئة على الضفاف الغربية لاعالي نهر دجلة . وقباله جبل الجودي الذي استقرت عنده سفينة نوح ، وفي احضان اسرة عربية من شيبان . ولد نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بابن الاثير .

كان ذلك في العشرين من شعبان سنة ثمان وخمسين وخمس مائة . كنيته ابو الفتح . ولقبه ضياء الدين . والجزري نسبة الى جزيرة ابن عمر . وهذه الجزيرة من مدن ديار ربيعة تحيط بها دجلة احاطة الهلال . ثم فتح هناك خندق أجري فيه الماء فغدت جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب .

واختلف في أمر بانيتها : قيل هو يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين . وقيل انشأها أوس وكامل ابنا عمر بن أوس التغلبي . قاله ابن المستوفي في تاريخ اربل . وقال ابن خلكان هو عبد العزيز بن عمر البرقيدي .

وقد أفاض ابن حوقل في وصفها وعدها مدينة تجارية تأتيها البضائع من ارمينية وبلاد الروم وميفارقين وارزن فتشحن بالمراكب الى الموصل . حتى قال : « وهي أحسن تلك الناحية عمارة وارجاها سلامة لوفور اهلها وكثرة خصبها » أما ياقوت الحموي فقد ذكر : ان رستاقها - وهي القرى والاراضي المحيطة بها - خصبة واسعة الخيرات . ونسب اليها جماعة كثيرة من ذوي الفضل . منهم ابنا الاثير الثلاثة . وكل منهم امام .

عربي صليبه كان ضياء الدين . أما ابوه الاثير وهو لقب محمد بن محمد فقد كان سرياً طيب السيرة . ولد ابنه الأكبر مجد الدين المبارك سنة أربع واربعين وخمسائة . وولد ابنه الثاني عز الدين علي سنة خمس وخمسين وخمسائة . ثم رزق بأصغر ابنائه وهو صاحبنا ضياء الدين سنة ثمان وخمسين وخمسائة .

* رجعتنا في هذه الترجمة الى المصادر التالية :

- ١ - وفيات الاعيان / ٥ / ٣٨٩ - ١٩١ .
- ٢ - عبر الذهبي ٥ / ١٥٦ .
- ٣ - مرآة الجنان / ٤ / ٩٧ .
- ٤ - الحوادث الجامعة ١٣٦ .
- ٥ - ذيل الروضتين ١٦٩ .

نشأ نصر الله بالجزيرة ونهل العلوم بها ، ثم انتقل الى الموصل صحبة أبيه في رجب سنة ٥٧٩ هـ ، حيث عكف على دراسة اللغة وعلومها والاداب العربية وحفظ القرآن الكريم وشيئاً جليلاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان محفوظه من الشعر العربي شيئاً لا يحصى ، من بعضه دواوين أبي تمام والبحري والمتنبي . ان ملكة الحفظ هذه عضدتها موهبة وقدرة على الاستنباط ، فأخرجت لنا عالماً جليلاً من علماء البلاغة ومنشئاً فذاً وناقداً اديباً من طراز رفيع .

ويبدو بوضوح ان الاثير وكان يتولى ديوان جزيرة ابن عمر لقطب الدين مودود بن زنكي ، قد حرص على تثقيف اولاده الثلاثة وتنشئتهم تنشئة علمية رفيعة . فليس صدفة ان ينبغ الثلاثة فيصنفوا المصنفات الجليلة كل حسب تمرسه واختصاصه . وليس صدفة ابدأ أن يكون الاكبر اماماً في المحدثين والاصوليين وان يكون الاوسط اماماً في المؤرخين وان يكون الاصغر اماماً في المشئيين والناقدين . ومن الغريب ان عز الدين بن الاثير - المؤرخ - لم يذكر تاريخ وفاة والده .

ان هذا السكوت دفع الدكتور مصطفى جواد الى الاستنتاج بأن « الاثير » كان حياً في بعض عهد نور الدين ارسلان شاه (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ) .

والصواب في رأينا انه كان حياً طوال عهد نور الدين ارسلان شاه . ذلك اننا ظفرنا برسالة كتبها ضياء الدين الى أبيه يعزيه في وفاة ابنه الاكبر مجد الدين . ولما كانت وفاة مجد الدين ثابتة في ذي الحجة من سنة ٦٠٦ هـ .

فتكون وفاة « الاثير » بعد ذلك .

٦ - شذرات الذهب / ٥ / ١٨٧ - ١٨٨

٧ - بغية الوعاة / ٢ / ٣١٥ (وهو ينقل عن المقفى للمقريزي)

٨ - النجوم الزاهرة / ٦ / ٣١٨

٩ - مرآة الزمان في تاريخ الاعيان (ط ١ حيدرآباد ١٩٥٢)

ص ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .

١٠ - تكملة اكمال الاكمال ص ٤ - ٦

١١ - المسجد المسبوك ٤٩٦

١٢ - ذيل مرآة الزمان / ١ / ٦٤ - ٧٠

١٣ - دول الاسلام للذهبي / ٢ / ١٠٩

١٤ - مفرج الكروب / ٣ / ص ١٠ - ١١ ، ٤٠ - ٤١ ، ٤٤ ، ٥٦ ،

٥٩ ، ٦٤ ، ١١٢ . وج ٤ / ١٩٨ ، ٢٠٠ - ٢٠١

١٥ - ديوان فتیان الشاغوري ص ٢٠٣

١٦ - مفتاح السعادة / ١ / ٢٢٢ - ٢٢٣

١٧ - رسائل ابن الاثير : نشرة انيس المقدسي .

١٨ - كشف الظنون ، ١٥٨٦ ، ٢٠١٢

من المحزن ان عدداً من تراجم القدماء لصاحبنا قد ضاعت .
ضاعت ترجمة ابن المستوفي له في تاريخ اربل والتي اشار اليها ابن خلكان في
الوفيات ٥ / ٣٩٦ .

وضاعت ترجمة ياقوت الحموي له في معجم الادباء في الضائع من الجزء السابع .
وأجود ماوصلنا ترجمة ابن خلكان له في وفيات الاعيان ٥ / ٣٨٩ - ٣٩٧ . وهي
ترجمة تأثر بها كل من كتب بعده من القدماء والمحدثين .

لكن هذه الترجمة وسواها لم تحفظ لنا اسما شيوخه وأساتذته . ويغلب على
ظننا - بسبب تقارب سنه مع سن اخيه عز الدين علي وعيشهما معاً في الموصل في
كنف والدهما - انه درس على اساتذة اخيه المذكور ومنهم خطيب الموصل ابو
الفضل الطوسي ويحيى الثقفي . وقد يكون درس على اخيه الاكبر المحدث الاصولي
مجد الدين .

-
- ١٩ - هدية العارفين ٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣
٢٠ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم .
٢١ - المثل الابرار : بتحقيق طبانه والحوفي .
٢٢ - تاريخ ابن الفرات - المجلد الرابع بتحقيق الدكتور حسن محمد الشماع .
٢٣ - شفاء القلوب في مناقب بني ايوب : الحنبلي
٢٤ - الجامع الكبير : ابن الأثير
٢٥ - كتاب الروضتين ٢ / ٢٢٨ - ٢٣١
٢٦ - السلوك ١ / ١١٥ - ١٣٥ .
٢٧ - معجم الانساب والاسرات الحاكمة : زامباور
٢٨ - ترويح القلوب في ذكر القلوب في ذكر الملوك بني ايوب : الزبيدي
٢٩ - بروكلمان ٥ / ٢٧١ - ٢٧٤
٣٠ - تاريخ الادب العربي : عمر فروخ ٣ / ٥٣٥ - ٥٤١
٣١ - تاريخ آداب اللغة العربية : زيدان ٣ / ٥٣ - ٥٤
٣٢ - الاعلام ٨ / ٣٥٤
٣٣ - معجم المؤلفين ١٣ / ٩٨ - ٩٩
٣٤ - دائرة المعارف الاسلامية (ط ٢) ١ / ٢٠٧ - ٢٠٨
٣٥ - دائرة معارف البستاني ٢ / ٣٢٥ - ٣٢٧
٣٦ - الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان
٣٧ - نهاية الادب للنويري ١ / ١٧٥ - ١٧٦
٣٨ - ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد
٣٩ - بنو الاثير الفرسان الثلاثة : محمد عبدالله الحمدان
٤٠ - صورة الارض لابن حوقل (محمد بن علي الموصلي) ليدن
٤١ - معجم البلدان . ياقوت الحموي - وستيفلد .

هذا عن شيوخه . وبسبب نقص في المصادر فان الذين ترجموا له قديماً وحديثاً - تأثروا بابن خلكان - ووطنوا بداية عمله في الدواوين كانت سنة ٥٨٧ هـ حين قصد الملك الناصر صلاح الدين بن ايوب . ووجه الصواب في هذا ان بدء عمله مُنشئاً في الدواوين كان في خدمة الامير مجاهد الدين قايمار زعيم الموصل والذي تولى عليها عام ٥٧١ هـ نيابة عن سيف الدين غازي . تؤكد هذا الرسالة الاولى في كتابنا هذا وقد صرح في أولها : « انه كتبها عن نفسه الى الامير مجاهد الدين قايمار زعيم الموصل وكان في خدمته فنزع الشيطان بينه وبينه ففارقه . وسار الى الشام . واتصل بخدمة الملك الافضل علي بن يوسف فنال منه حظاً وأصدر هذا الكتاب يتضمن ملامة وعتاباً » .

وهذه الرسالة رغم مافيها من عتاب . تطفح بالمودة وتؤكد خليقة الوفاء التي جُبل عليها ضياء الدين فهو رغم مفارقة الامير مجاهد الدين . عاملٌ على حسن خلافته في مغيبه . متجنبٌ مكروهه . مؤثرٌ محبوبه .

ومما يؤكد ويعزز حقيقة كونه قد خدم في ديوان الامير مجاهد الدين قايمار بالموصل قبل توجهه للشام . رسالة اخرى كتبها الامير مجاهد الدين بعد خروجه فاراً من دمشق عام ٥٩٢ . وهو في تلك الرسالة يتلطف العودة الى خدمته ويعتذر عن مفارقتها اياه . وهي مصدره بعبارة « كتاب كتبه عن نفسه الى الامير مجاهد الدين قايمار زعيم الموصل . وكان بخدمته أولاً قبل اتصاله بخدمة الملك الافضل علي بن يوسف » (انظر الرسالة رقم ٣١) .

وعلى وجه التقريب يمكن تحديد الفترة التي عمل فيها في خدمة الامير مجاهد الدين قايمار انها بعد عام ٥٧٩ وقبل عام ٥٨٣ . وليس صحيحاً ايضاً ما ذكره مترجموه من ان اول اشتغاله لدى الملك الافضل علي بن يوسف كان في شوال سنة ٥٨٧ .

ذلك ان الرسالة الثانية في مجموعتنا هذه كتبها ضياء الدين عن مخدومه الملك الافضل الى والده السلطان صلاح الدين الايوبي عند اول انتصار للافضل علي الفرنج في طبرية في ربيع الاول سنة ٥٨٣ هـ . وذلك اول موطن حرب شهده الملك الافضل . وكان والده اذ ذاك نازلاً على حصار حصن الكرك .

وحين نستقريء المصادر التاريخية نجد انتصار الافضل هذا مذكوراً في تلك المصادر . وهي تشير كذلك الى ان السلطان صلاح الدين كان محاصراً للكرك آنذاك . انظر كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ٢ / ٧٥ . وكل هذا يعزز صحة من ذهب فيه من ان صلة صاحبنا بالافضل تعود الى عام ٥٨٣ على الاكثر . ويبدو ان

ضياء الدين استقر عند الافضل حتى عام ٥٨٧ . حيث قصد الملك الناصر صلاح الدين في ربيع الاول من هذه السنة ، فوصله القاضي الفاضل لخدمة صلاح الدين في جمادى الآخرة . وأقام عنده الى شوال من تلك السنة . فالمدة التي خدم فيها منشأ في ديوان السلطان صلاح الدين لم تتجاوز الاربعة اشهر . ولدينا من رسائله في تلك الفترة رسالة كتبها الى الديوان العزيز النبوي (ديوان الخليفة العباسي) عن الملك الناصر صلاح الدين « انظر نشرة انيس المقدسي ص ٣١٠ - ٣١١ » .

والسؤال : لماذا ترك ابن الاثير ديوان السلطان وأثر الانتقال الى ديوان الملك الافضل ، حين طلبه الاخير من أبيه . فخيرَه صلاح الدين بين الإقامة في خدمته . والانتقال الى ولده ويبقى المعلوم (الراتب) الذي قرره له باقياً عليه . فاختار ولده . ومضى اليه ؟؟

نحن نعتقد ان القاضي الفاضل وجد في ابن الاثير مزاحماً خطراً فأثر ابعاده بوسيلة مهذبة . ونعتقد ايضاً ان ابن الاثير كان يرى نفسه أحق برئاسة ديوان الانشاء لدى السلطان من القاضي الفاضل .

فعمد - لفتاً لنظر السلطان وذوي الامر - الى معارضة القاضي الفاضل في رسائله . فاذا انشأ الفاضل رسالة انشأ مثلها . وغرضه الأساس الكشف عن تفوقه . لعله يستأثر بديوان السلطان . وقد وصلنا من هذه المعارضات شيء غير قليل . بعضه في الرسائل التي ننشرها اليوم . « انظر الرسائل رقم ٣ و ٤ و ٥ و ٦ » .

وفي نص فريد وصل اليينا كشف ضياء الدين لابن سكينه شيخ الشيوخ ببغداد عن ذات نفسه حين أطراه ابن سكينه وشبهه بالقاضي الفاضل في الكتابة فردّ عليه ابن الاثير من رسالة (١) :

« اما تشبيهه اياي بفلان الكاتب فربّ كلمة تقول لصاحبها دعني . ولقد وضعني بقوله هذا وهو يرى انه رفعتني ولم يضعني . لكن يغفر له ذلك لسلامة قصده . ويحمل على انه اشتبه الذهب والنحاس على نقده . وما أراد إلا ان يبلغ بفضيلتي فوق طوقها فلم يبلغ بها طوقها . وقد تأسيت في هذا المقام بضرب الله مثلاً ما بعوضة فما فوقها . ولو انصفتي لقال ان الحيّ خيرٌ من الميت . وفرق بين خاطر يضيء زيتُه وخطر يضيء بلا زيت : في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل » .

وان قيل ان الاول افضل من الاوخر . فان الاوخر ههنا افضل من الاول . وقد علم ان ذلك الرجل رزق دولة سيفها افصح من كتابه . وخطبها أعظم أن يفتقر الى تزوير خطابه . فكان يقول عنها بعض ما يرى . ولافضل للقلم اذا جرى بحكاية

(١) نشرة انيس المقدسي ص ٣١٣ .

ماجرى . فتفضل يامولاي واعطني دولة كتلك حتى اخطب عنها خطابة تكسوها فوق مجدها مجدداً ، وتكره السنة الاعداء ان تنطق لها حمداً وتمثل على وجهها غرة وفي جيدها عقداً . ويقال عند ذلك ان القلم اغنى عن السيف فلم يحوجه ان يفارق عمداً » .

فهذا الصراع الخفي بين هذين العملاقين ، القاضي الفاضل الذي يريد الابقاء على مكانته رئيساً لديوان الانشاء عند السلطان ، وابن الاثير الذي رأى نفسه احق بهذه المكانة ، كان وراء اقامة ضياء الدين القصيرة لدى السلطان ، وكان وراء ايثاره العودة الى الافضل ، فاستوزره الافضل وحسنت حاله عنده وكان في أوج شبابه .

وينتقل السلطان صلاح الدين الى جوار ربه عام ٥٨٩ هـ . وكان قد قسم مملكته بين اولاده واخيه وبعض اقاربه في حياته . وكانت مملكة دمشق من حصة الافضل فاستقل بها ، كما استقل ضياء الدين بالوزارة ورُدّت امور الناس اليه . وهنا يجمع المؤرخون على ان ابن الاثير وقع في اخطاء سياسية جرت عليه وعلى مخدمه الوبال والخسران .

قالوا : ان ابن الاثير حسن للافضل ابعاد امراء ابيه واکابر اصحابه ، وان يستجد امراء غيرهم (١) ، ففارقه جماعة منهم الامير فخر الدين جهاركس . وفارس الدين ميمون القصري وشمسي الدين سنقر الكبير ، وكانوا عظماء الدولة ، فصاروا الى الملك العزيز عثمان بالقاهرة فاكرمهم ، وولى فخر الدين استاذية داره وفوض اليه امره ، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيدا وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادهما نابلس وبلادها (٢) .

وقال العماد الكاتب : « كان العزيز بمصر يقرب اصحاب ابيه ويكرمهم ، والافضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرب الاجانب ويبعد الاقارب ، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجزري الذي استوزره (٣) .

(١) قال ابن اصيل : « وكان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الملك الافضل شاباً غزاً . فحسن للملك الافضل ابعاد امراء ابيه واکابر اصحابه . وان يستجد له امراء واصحاباً غيرهم ، وقال : « هؤلاء خواص السلطان وينظرون اليك بتلك العين . ويعتقدون ان حقهم واجب وجوب الدين ، وهم بحكم المعرفة لك من الصغر - يتبسطن ويشطون ولا يقنعون . وأعمال دمشق لاتسعمهم ، وجميعها لاتقنعهم ، والاعمال المصرية لهم أفسح وأوجع ، وأما الغزباء ، فانهم يقنعون بأي شيء اعطيتهم ، ويعترفون بحقك ويعظمونك » . وساعده على هذا القول جماعة من اصحابه ممن لارأي عنده ولا معرفة فأصغى الملك الافضل الى هذا القول ، واعرض عن اصحاب ابيه ففارقه جماعة ... الخ . (مفرج الكرب ١٠ / ٣ - ١١) .

(٢) السلوك ١ / ١٥ ومفرج الكرب ١٠ / ٣ - ١١

(٣) مقتبس من رسالة العماد المعروفة بالعقبى والعقبى أورده صاحب الروضتين ٢ / ٢٢٨

وقالوا : انه قد اساء العشرة مع أهل دمشق (١) .

وقال مصطفى جواد : ان ابن الاثير لم يقابل احسان القاضي الفاضل بالاحسان . فان الفاضل ترك دمشق ايضاً وعاف مملكة الافضل ولحق بالقاهرة فخرج الملك العزيز الى لقاءه واجلّ قدومه اجلاً ، واكرمه اكراماً (٢) .

قلنا : ولم أجد مرجعاً قديماً اتهم ابن الاثير بذلك . ونص ماقاله صاحب الروضتين هو : « ولما رأى الفاضل امور الافضل مختلفة تركه وسار الى مصر » (٣) . وقالوا : انه كان وراء تصلب الافضل ورفضه التصالح مع اخيه العزيز ، مما جرّ عليه ضياع ملكه .

قال ابن الفرات (٤) : « فأشار العقلاء من الناس على الملك الافضل - صاحب دمشق - بمكاتبة اخيه الملك العزيز وملاطفته واسترضائه ومصافاته . ولو فعل لصلح حاله ، واستمر ملكه . فان اخاه الملك العزيز كان يقنعه ان يقيم الملك الافضل الخطبة والسكة بدمشق له ، اذ هو صاحب الديار المصرية ، وعنده معظم العساكر الصلاحية . ولو ذلّ الملك الافضل وانقاد الى اخيه العزيز وارضاه باسم السلطنة ، لما عارضه الملك العزيز في دمشق ولا بقاها عليه ، ولم يتمكن الملك العادل من الاستيلاء على ممالك اولاد اخيه . لكنه ترك رأي العقلاء ، وقبل ماأشار به عليه وزيره ضياء الدين بن الاثير ، فانه اشار عليه بان يعتصم بعمه العادل ويلتجئ اليه ويستجير به ويستنجد به على اخيه . وكان هذا من فاسد الرأي » (٥) .

ولفهم هذه الاخطاء السياسة التي قيل ان ضياء الدين بن الاثير قد ارتكبها لابد من استجلاء النصوص التاريخية للوقوف على تطور الاحداث وتسلسلها .

كان الافضل اكبر اخوته ، والمشار اليه ايام صلاح الدين ومن بعده ، وهو الذي جلس للعزاء بعد موت ابيه ، وصار هو السلطان الاكبر . أما اخوه العزيز عثمان فكان اصغر سنأ وقد استقل بمصر بعد وفاة ابيه وكانت معه اكثر الجيوش الصلاحية .

شغل الافضل بلهوه وشربه ، وسلم الامور لوزيره الجزري وحاجبه العجمي فسأءوا السيرة حتى سماه الناس « الملك النوام » . وبان من عجزه انه تخلى عن

١ : وفيات الاعيان ٥ / ٣٩٠

٢ : مقدمة الجامع الكبير ص ١١

٣ : كتاب الروضتين ٢ / ٢٢٨

٤ : تاريخ ابن الفرات ج ٤ الجزء الثاني ص ١٠٣ - ١٠٤

٥ : ولّى مثل هذا الرأي ذهب ابن واصل في مفرج الكرب ج ٣ ص ٤١ .

القدس - وكانت في ملكه - الى نواب الملك العزيز . حذراً من تكاليفها واثقالها .
وبادر العزيز الى ارسال الاموال والجند الى القدس لحفظها ، فقوى ذلك مركز
العزيز واطفأ مركز الافضل بين الناس .

وحيث تتابع خروج اكابر الدولة الصلاحية من دمشق الى مصر ، واحتضنهم
العزيز ودبت الوحشة بين الاخوين ، بلغ الفرنج ذلك فطمعوا في البلاد وحاصروا
جبله ثم ابتاعوها من حراسها .

وكانت نابلس واعمالها قد اوقف السلطان صلاح الدين ثلثها على مصالح
القدس وباقيها على ابن الامير على بن احمد المشطوب . فشاركه احد الامراء فيه
فمدوا ايديهم الى الوقف وساءت سيرتهم ، وتخوفوا من انكار الملك العزيز عليهم ،
فلجأوا الى الافضل ، فافضل عليهم وسكن اليهم ، فتأثر الملك العزيز بذلك . وحين
عجز الافضل عن استعادة ثغر جيل من الفرنج عمد الامراء الناصرية المنتقلون من
دمشق الى القاهرة والذين بواهم العزيز مراكز حساسة في الدولة الى الاتفاق على ان
تكون كلمة الاسلام مجتمعة على تسلم العزيز مركز ابيه لانه المؤهل لاحياء سنة
والده في الجود والبأس والكرم ، وقالوا له : إن توانيت استولت الفرنج على البلاد ،
فخرج العزيز بعساكره من مصر قاصداً دمشق . وضاق صدر الافضل حين علم ،
واجتمع بمن في خدمته من الامراء ، وكان من رأيه الموافقة على تسلطن اخيه ، وان
يكون هو من بعض القائمين بين يديه تسكيناً للفتنة ، فأشير عليه بغير الصواب
وقيل له : انت الكبير واليك التدبير ، فجد واجتهد ، ولا يعلم اصحابك بهذا الخور
الذي داخلك والجبن الذي نازلك ونحن بين يديك وكلنا عاقدون بالخناجر عليك .

فاخذ الافضل بهذا الرأي وبعث يستنجد بعمه العادل وباخيه الظاهر وباصحاب
حماة وحمص وبلبك وذلك في جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين وخمسائة .
ووصل العزيز ووصل من استنجد بهم الافضل . واستطاع عمهما العادل ان يمنع
الحرب ، حين كتب الى العزيز يسأل الاجتماع فتواعدا واجتمعوا راكبين بصحراء
المزة ، فعذله في اخيه واستنزله عما كان فيه ، فقال : علي رضاك واتباع هواك ، فقال
له : نفس عن البلد الخناق ، وكانت دمشق قد بليت منهم بما لا يطاق من قطع
الانهار وقطف الثمار ، فانسحب العزيز بجيشه الى صوب داريا والاعوج . هذا
ماذكره صاحب الروضتين (٢ / ٢٢٨) عن لقاءهما . اما صاحب النجوم الزاهرة (٦ /
١٢١) فقد روى ان العادل قال للعزيز عند لقاءهما : لاتخرب البيت وتدخل عليه
الآفة ! والعدو وراءنا من كل جانب ، وقد اخذوا جبله ، فارجع الى مصر واحفظ عهد

ايك . وايضاً فلا تكسر حرمة دمشق . وتطمع فيها كل أحد . ثم انتهى الامر الى المصالحة وتزوج العزيز « الخاتون » ابنة عمه العادل . ورجع كل الى بلده في شعبان سنة ٥٦٠

ثم رجع الافضل الى عاداته في اللهو وتسليم الامور الى وزيره وحاجبه . وكثر الشر ممن حول الافضل في حق الامراء الكبار ذوي الاقدار . فانفوا من ذلك وازمعا على الانفصال لسوء تلك الحال . فممن سار الى مصر : الامير عز الدين سامة صاحب كوكب وعجلون . والامير ايدير بن السلار والقاضي محيي الدين محمد بن عبد الله ابن ابي عصرون . وحرصوه على اخيه وحرصوه على انتزاع دمشق . فقال له الامير اسامة : ان الله يسألك عن الرعية . هذا الرجل قد غرق في اللهو وشربه . واستولى عليه الجزري وابن العجمي . ثم وخوفه القاضي ابن ابي عصرون بقوله : لاتسلم يوم القيامة .

قال ابن تغري بردي الاتابكي : وبلغ الافضل قول اسامة وابن ابي عصرون فاقلع عما كان عليه . وتاب وندم على تفريطه . وعاشر العلماء والصلحاء . وشرع يكتب مصحفاً بخطه . وكان خطه في النهاية . فلم يغن عنه ذلك . وتحرك العزيز يقصده . فسار الافضل الى عمه العادل يستنجد به . فانجده . كما تحالف مع اخيه الظاهر صاحب حلب ومع ابن عمه المنصور صاحب حماة .

وكان العادل يشير بصرف الوزير ضياء الدين ابن الاثير الجزري . وكان قد استولى على الافضل . فلم يقبل الافضل . فاعتم العادل لذلك .

وحدثت ثغرة بين العادل والظاهر . فكتب الظاهر الى العزيز يحثه على الاسراع في القدوم وخيم بالفوار . وشرع العادل في تفكيك قوى العزيز دعماً للأفضل . فكاتب الامراء الاسدية في جيش العزيز وحشهم على تركه والاتحاق بالافضل . وراسل العادل العزيز وخوفه من الاسدية وعزفه مانطوت عليه قلوبهم من الغل فكانوا اذا لقيهم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبوا عنه . وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الانصراف عنه ففعلوا . وكان أمير امراء الاكراد ابو الهيجاء السمين . فرحل ابو الهيجاء والمهرانية والاسدية عشية الاثنين رابع شوال سنة ٥٩١ هـ . وكانوا اكثر العسكر وقصدوا دمشق والتحقوا بالافضل .

واظهر العزيز عدم المبالاة برحيلهم وقال : صفونا من أكارهم . وبقي في خواصه مقيماً في تلك الليلة ثم رحل الى مصر عائداً . فجاء رسول ابي الهيجاء السمين الى العادل يعلمه برحيل العزيز خائفاً ويطلب منه ملاحقة العزيز واخذه وتسلم ملك الديار المصرية . واتفق العادل مع الافضل على انتزاع مصر من العزيز وساروا

بجيوشهم نحوها . واستتاب الافضل بدمشق أخاه الاصغر قطب الدين موسى . وخاف العزيز من الأسدية الذين بالقاهرة ان يفعلوا فعل اخوانهم فيمنعوه من دخول البلد وكان أميرهم بهاء الدين قراقوش قد استنابه العزيز بالديار المصرية . فلما وصل العزيز تلقوه والى ذروة سلطنته رقوه . وتسلم ابو الهيجاء السمين القدس واعماله وما يجاوره من اعمال الساحل بأمر الافضل والعاقل فرتب فيها نوابه واسكنها اصحابه ، وصحبهم الى الديار المصرية لمحالفة الاسدية . وساروا حتى نزلوا بلبليس وفيها جموع من الصلاحية يقودهم فخر الدين جهاركس وطائفة من الأكراد أميرهم هكدرى بن يعلى الحميدي ومعهم العزيزية . فنازلهم جيش العاقل والافضل وحلفائهم وكادت بلبليس ان تؤخذ . ثم ظهرت ندامة الاسدية وضعفت معوتهم وضوعفت مؤنتهم (١) فخاف العاقل من مكرهم والعدول الى مستقرهم . فأرسل الى القاضي الفاضل يستوفده للإستزارة ويسترشده بالاستشارة .

وظهرت منه قرائن تدل على انه لا يريد انتزاع مصر من يد العزيز ، وامتنع القاضي الفاضل لاعتزاله وانقطاعه الى داره فتضرع اليه العزيز واقسم عليه ، فخرج الى العاقل ، فاحترمه واکرمه وتحدث معه بما قرره . وعاد الفاضل الى العزيز وتحدث معه ، فارسل العزيز ولديه الصغيرين مع خادم له برسالة ظاهرة ، مضمونها : « لاتقاتلوا المسلمين ولا تسفكوا دماءهم ، وقد انفذت ولدي يكونان تحت كفالة عمي العاقل ، وأنا انزل لكم عن البلاد وأمضي الى الغرب » . وكان ذلك بمشهد من الامراء ، فرق العاقل وبكى من حضر . فقال العاقل : معاذ الله ! ماوصل الامر الى هذا الحد .

وكان العاقل قد قرّر مع القاضي الفاضل اعادة املاك الاسدية واقطاعاتهم اليهم ، وان يظل ابو الهيجاء والياً على القدس . ثم قال العاقل للفاضل : المصلحة ان تمضى الى اخيك وتصالحه ، ماعذرنا عند الله وعند الناس اذا فعلنا بابن اخينا مالا يليق . وكان العزيز أرسل يقول للعاقل مع الخادم المقدم ذكره : « البلاد بلادك وانت السلطان ونحن رعيتك » . قال ابن الفرات : واتفقوا على ان كل من في يده شيء يبقى على ما هو عليه . وتسير العساكر مع العاقل الى بلاد فلج ارسلان في ايران الربيع .

قال ابن تغري بردي الاتابكي : ففهم الافضل ان العاقل رجع عن يمينه ، وانه اتفق مع العزيز على اخذ البلاد منه ، لكنه لم يمكنه الكلام ، ومضى الى أخيه الملك

(١) قال ابن الفرات ٤ / ٢ ص ١٢١ : وكان نزول الملك العاقل والفاضل عليها وزيادة الفعل قد بلغت منتهاها واهتمت البلاد بما عمها من الماء . وكانت الاسعار عالية والعلف معدوماً ومنع النيل نقل العلف اليهم .

العزیز واصطلاحا ، وعاد الى دمشق . ودخل العزیز والعدل والأسدية الى القاهرة في الرابع من ذي الحجة . ووصل الأفضل الى دمشق (١) غرة المحرم سنة ٥٩٢ هـ وصار الساحل كله تحت حكمه فلزم صيامه وقيامه وقلل شرابه وطعامه وحسن شعاره واستوى ليله ونهاره . قال المقدسي في الروضتين : « ووزيره الجزري قد بلى الناس منه ببلايا وهو في غفلة عن تلك القضايا ، وكان يدخل اليه ويوهمه من قبل اقوام انهم عليه وانهم يميلون الى أخيه فيصدقه الأفضل فيما يدعيه فصار يبلغ العادل عنه أحوال ماتعجه بل تغضبه .. »

وقال ابن تغري بردي الاتابكي : « لما عاد الأفضل الى دمشق ازداد وزيره الجزري من الأفعال القبيحة ، والأفضل يسمع منه ولا يخالفه ، فكتب قيماز النجمي وأعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فأرسل العادل الى الأفضل : « ارفع يد هذا الاحق السيء التدبير القليل التوفيق » . فلم يلتفت » .

وقال ابن الفرات : « ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة ، واقبل على العبادة ، والامور كلها مفوضة الى وزيره ، ضياء الدين بن الاثير الجزري ، وقد اختلت الاحوال به غاية الاختلال ، وكثر شاكوه . وقل شاكروه » .

قال المقدسي : « وكان العادل بمصر مستوطناً للقصر ، فوعد الجماعة بازالة يد الوزير الجزري وردة الى بلاده ، وقرر مع العزیز تسيير عسكره معه الى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الاسلام » .

ولقد حاول الملك الظاهر تسكين هذا الريح الثائر فارسل من قبله أخاه الملك الزاهر مجير الدين داود بن صلاح الدين ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيرز والقاضي يوسف ابن شداد ، رُسلأ الى أخيه العزیز ، ولما انصرفوا من مصر ، مرّوا بدمشق فاعلموا الملك الأفضل بما ابرم من الامر فضاقت صدره وطال فكره واستشار اصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه ويسلم لهما حكمه . وأشار ابن الاثير الجزري واصحابه بالتصميم على المخالفة وترك المجاملة والملاطفة (٢) . ثم دخل عليه اخوه الملك الظاهر خضر فشجعه وصبره وتولى تهيئة أسباب الدفاع . ووصلت رسل الظاهر تعد بالمعونة .

(١) انظر رسالة ابن الاثير كتبها للأفضل وهو عائد الى دمشق (المقدسي في ٢٩٧) .

(٢) في مفرج الكروب ٣ / ٥٩ « ان الأفضل » كاد يقبل قول (شيوخ الدولة) ويصفي اليه . فدخل عليه وزيره ضياء الدين ابن الاثير فثناه عن هذا الرأي وصرفه عنه وقال له : انت اكبر الاخوة وافضلهم . وما ثم عجز وفي الغيب لله قضايا ، وله أطاف خفايا ، ودمشق مدينة حصينة وأهلها يحبونك ويؤثرونك » .

قال عماد الدين الكاتب : لما كثرت الاخبار بمصر بما يعتمده ضياء الدين بن الاثير من الاحوال الرديئة والسيرة المذمومة بالشام . تحركت عزيمة الملك العادل للسفر بعساكر الملك العزيز . ووعده بازالة ضياء الدين بن الاثير وطرده عن البلاد واصلاح مافسد من الأحوال .

ولقد رفض بعض المؤرخين المنصفين مثل محمد بن سالم بن واصل (المتوفى سنة ٦٩٧) كلام العماد هذا وقال : وعندي انه ربما ذكر ذلك تقية في ذلك الوقت وخوفاً من الملك العادل . والا فالذي اعتقده وبلغني من جهات عديدة . ان الملك العادل لما قدم الى دمشق نجدة للافضل . ورأى من ركة الملك الافضل مارأى . حدثته نفسه بالاستيلاء على دمشق وتملكها . وصار يعمل الحيلة في ذلك . ولما قصد الملك العزيز البلاد بعساكره . توصل الملك العادل الى تحصيل غرضه بايقاع الخلف بين الصلاحية والأسدية . وبين الاسدية والملك العزيز . ونفّر كلاً منهم من الآخر . وأوجب ذلك رجوع الملك العزيز الى مصر على الصورة التي ذكرناها . ولما تم له ذلك . حَسُنَ للملك الافضل قصد الديار المصرية . واجتمعاً بالخارجين على الملك العزيز . وكان قصد اولئك لحاق الملك العزيز ومنعه من الدخول الى الديار المصرية . ولم يكن ذلك في الباطن من هوى الملك العادل ولا اختياره . ولم يزل يشبطهم ويستوقفهم حتى وصل الملك العزيز الى كرسي ملكه . ووصل العادل والملك الافضل الى بلييس وحصرها فلم يظن أحد الا ان الامر قد تم . وان الملك العزيز قد تلاشى أمره بالكلية . فحينئذ أراد العادل ان يقلد المنّة العظمى للعزيز . بأن ردّ الملك العزيز الى ملكه . وأبقى عليه بلاده بعد ان وقع الاشراف على أخذها . فحينئذ استدعى استدعى القاضي الفاضل - كما ذكرنا - وقرر قواعد الصلح . وردّ الملك الافضل الى بلاده . ووصل الى مصر . وقرر قواعد الملك العزيز ورتب اموره . وتمكن منه التمكن الكلي . فحينئذ طلب منه في الباطن ان تكون دمشق له . ويكون نائباً عنه بها . ويعطي الملك الافضل موضعاً صغيراً بعد اخراجه من دمشق . وتكون الخطبة والسكة للملك العزيز في الممالك الايوبية كلها . ويكون هو السلطان الاعظم مكان ابيه . فأجابه الملك العزيز الى ذلك . وتحالفاً واتفقا عليه . لكن كان ذلك كله بينهما . ولم يظهر للناس سرّه الا بعد وقوع ماوقع ... »

ومثل هذا الاستنتاج المنطقي يردّ التهمة عن ابن الاثير . وقد اورده ابن الفرات ايضاً . وهو يكشف ان اخراج الافضل من الشام كان مقرراً بين العادل والعزيز باتفاق سري بينهما .

أما أقوال العماد الكاتب ، فقد ذهب ابن واصل وابن الفرات الى انها تقيّة من العادل . ونقول : ان اتهامات العماد لابن الاثير . موضع شبهة ولا يمكن التسليم بها بسبب الخصومة بينهما . فقد اورد ابن واصل مأمثاله : قال عماد الدين : « وجاءني الخبر ان وزيره قد قرّر عنده عند قرب العساكر من البلد نهب دوري واملاكي . فاستأذنت الملك العزيز في الدخول الى البلد . فاذن لي على كراهية . فلما دخلت البلد اجتمعت بالملك الافضل . وقلت له القول الافضل . فأبى ان يسمع او ان يقبل . وحرمت في حظي الثاني والاول » .

قال ابن واصل : ولما تكاملت العساكر ببركة الجب . سار العزيز والعادل بالجحافل والعساكر المتوافرة . ولما وصلا الى الداروم . وصل فلك الدين أخو الملك العادل لأمه رسولاً من الافضل الى عمه بمشافهة منه . فأبلغه الرسالة فاقبل عليه العزيز وانعم عليه . قال عماد الدين الكاتب : فأقام فلك الدين هناك اياماً . ثم عاد الى دمشق مشرياً بجود النقود وبدور البدر . وعاد حميد الورد والصدر . واقمنا نترقب كتابه فنفذ من ذكر ان الملك الافضل فد أبي ونبا . واستوثق وسور وخذق . وأنه لا يجنح الى السلم . ويقول : كما كفاني الله في الماضي يكفيني في المستقبل » .

ثم سار الملكان : العادل والعزيز الى دمشق فنازلاها . ولم يحدثا قتالاً وكتب الامراء بدمشق والاكابر متواصلة اليهما . فجرت المخامرة بينهم وبين العزيز والعادل . وفي السادس والعشرين من رجب سنة ٥٩٢ زحف العسكر على دمشق فما صدهم صاذاً . ولا ردهم راذاً . ولم يقاتلهم غير الملك الظافر خضر بن الناصر . فانه قاتل وثبت مع جماعة من عسكر الظاهر . ولم يعلم حقيقة المخامرة . فلما لم يمر معه من يقاتل ولّى منهزماً وقد جرح .

وفتح المستحفظون الابواب للمهاجمين . فدخل العزيز والعادل بجيوشهما . ثم أخرج الافضل وعياله الى صرخد بعد ان بيعت امواله وحيواناته وكتبه ومماليكه فلم توف بما عليه من دين .

وقام الافضل باخفاء ابن الاثير في صندوق من بعض صناديقه . خوفاً عليه من القتل . وكان قد ترقبه أقوام ليقتلوه فلم يظفروا به .

وكان العادل يبغض ابن الاثير لقوة قلمه في مراسلته قال عماد الدين : « ومن العجب ان الملك الافضل مع علمه بشؤم وزيره . وان كل ما هو فيه من النقص والنقض بادباره وسوء تدييره . ضمه اليه وترفرف بجناحه عليه . فاخرجه في قماشه . وسرّحه بريشه ورياشه . وكان ادعي عليه بمال فأقرّ الملك الافضل بوصله الى خزائنه . وبرأه من حسابه وحياته . وانفصل الى الموصل

بمال دمشق واعمالها ثلاث سنين . وجمع ألفاً مؤلفة ، ولم يفرّق الافضل منها
مئين .»

ثم قال عماد الدين فيما روى ابن واصل : « وعهدي بقوم دخلوا عليّ متأسفين
على سلامته . واستقامة أمره في طعنه واقامته . فقلت ، انما سألنا الله تعالى كفاية
شره وسوءه لاسواه . فقد ابعد الله فلا قرب نواه .»

تلك وجهة نظر العماد الكاتب . وهي غير محايدة كما أسلفنا ، للخصومة
الثابتة بين الرجلين . ولأن العقل يرفض هذه الرواية بشأن الاموال اذ كيف يهرب
شخص مختفياً داخل صندوق والخصوم تطارده . ومخدومه قد صُفيت امواله وزال
سلطانه . ثم تتصور ان هذا الهارب كان يحمل معه اموال دمشق واعمالها لثلاث
سنين ؟ ! ألم يكن هذا المال الكثير في حاجة الى جمال تحمله وحراس تحرسه وهو
يقطع به الفيافي نحو الموصل ؟

ثم من اين جاءت هذه التهمة وما الدليل الذي يوثقها ؟؟

ابن واصل في مفرج الكروب (٦٥ / ٣) يوردها منقولة عن العماد الكاتب دون
تعليق وبالنص الذي اوردناه .

وابو شامة المقدسي في الروضتين (٢٣١ / ٢) يوردها منقولة عن رسالة العماد الكاتب
المفقودة والمعروفة بالعقبى والعقبى .

وابن الفرات سقطت ورقات من تاريخه في هذا الموضوع من احداث سنة ٥٩٢ فلم
يوردها .

وابن تغري بردي الاتابكي ذكرها باختصار في النجوم الزاهرة : (١٢٥ / ٩) منقولة
عن العماد الكاتب الاصفهاني .

كذلك اوردها سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان (٤٤٢ / ٨) باختصار ناقلاً
القصة عن العماد الكاتب .

مصدر هذه التهمة المشينة واحد في كل هذه المراجع التاريخية ، وهو العماد
الكاتب . وحين نعرف ما بين العماد وابن الاثير من خصومة فان هذا الاتهام يصبح
موضع شك وشبهة .

على الصعيد الآخر نجد في كتابنا هذا نصاً فريداً (١) يعرض فيه ابن الاثير قصة
هربه عبر الصحراء وحيداً بلا رفيق ولا صاحب بعد ان فتحت دمشق بسيف الكيد
لابسيف القتال . ومن استبطان هذا النص نجد ان كاتبه لا يأسى على ما فقدته من مال

(١) انظر الرسالة رقم (٣٠) من كتابنا هذا .

وجاد كبيرين ولكنه يأسى لفراق مخدومه الافضل الذي قدمه على اصحابه وان كان متأخر الصحة . وغادره من بره في وطن وان كان مقيماً في غربة . وبسط له قلباً ولساناً ويدا ، وأفسد نظره فلم ير بعده أحداً . والرسالة مرسله لأخيه في الموصل – وهو المبارك مجد الدين على الأكثر . لصلته الطيبة به . ولما ذكره الذهبي من وجود القطيعة التامة بين ضياء الدين وأخيه عز الدين المؤرخ – والرسالة مؤرخة في الرابع والعشرين من رجب عام ٥٩٢ وكانت دمشق قد فتحت لثلاث بقين من رجب . ولأن هذه الرسالة تعكس صورة إيمنة لفترة حرجة من حياة ضياء الدين . رأينا ان نقتبس بعض فقراتها . قال : « ... لما فتح البلد رمانى الاعداء عن يد واحدة . واخذوني باكباد حارة واغراض باردة . وما نقموا عليّ الا أني حفظت وأضاعوا . وعصيت شيطان النفاق واطاعوا » .

وفي هذا إشارة الى وفائه للافضل في الشدة وانه لم يخامر عليه ولا تواطأ مع خصومه ممن فتحوا الابواب للمهاجمين .

حتى قال : « ثم لم يزل يبى سعيهم حتى اخذوا عليّ المسالك . ونصبوا لي المهالك . ولو اجتمع الخلق ان يضروك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا على ذلك . فتوكلت على الله ونعم الوكيل . وخرجت وقلت : عسى الله ان يهديني سواء السبيل » . وفي هذا اشارة الى ايمانه العميق بالله وتوكله عليه .

وقال : « واجمعت المسير في يوم طوله ترقب الوقوع في حبال الارصاد . وقصّره الفكر في ركوب لجة البرّ بغير قرين ولا هاد »

وفي هذا اشارة الى انه لم يكن معه رفيق سفر ولا دليل يده الطريق . فكيف يتأتى له وهو في مثل تلك الحالة ان ينقل معه اموال دمشق واعمالها لثلاث سنين !

وقال : « ثم هون ذلك نفس لم تكن على ركوب الاخطار ضئيلة . وعزيمة اذا عن لها بحر الاهوال كانت له سفينة . وهمة يقصر عندها المدى المتطاوّل ولا ينظر عاقبة فيما يحاول . فسرت غير مبتكّر برفيق ولا صاحب . ولا مخلد الى طيب طعام ولين جانب . وخضت مفاوز تكذب فيها العين والاذن . وتشفق منها الابدان والبدن » .

وهذا يؤكّد انفراده في سفره هذا وجلده وقوة فؤاده . حتى قال : « فكم مفازة خددت خدها . وهاجرة فللت بالسير حدها . وكم ليل شطت غياهبه . وخشنت مراكبه وطال حتى ماتغور كواكبه . فلا ظل الا ظلّ ذابل او جواد . ولا سير الا ظهر ربوة او بطن زاد . ولقد وطئت ارضاً لاعهد لها بخف ولا حافر . ووردت مياهاً لاعهد لها بوارد ولا صادر . فلم احلّل وضيئاً ولا غرضاً . ولا سأمت طولاً ولا عرضاً . ولم أرح ركابي الا ريشماً نأكل علالة . وتنقمم من بقايا الراد حثالة . فتناثرت ناثر نضيح

التمر . فلكل طائر منها حظ وبكل دارٍ منها أثر . حتى لقد خفت أن يصبح ربيقي فتقاً . واغدو كالمئبب الذي لارضاً قطع ولا ظهراً أبقى لكن رقت أسباب المخافة . واشفقت من نفاذ الزاد لبعده المسافة . فأخذتها بالاعمال والدؤوب . وألقت بين اشباحها وبين السهوب . وما زلت على ذلك مراحاً ومغدى . ومعاداً ومبدأ . وكلما نفذت من الفلوات سداً رأيت أمامي سداً . حتى ظننت الارض تسير مع الركاب . وقلت تشابهت الصوى بالصوى والشعاب بالشعاب . ثم وردت الفرات أجرّ الركاب . وكأنما تمشي على أبصارها . وفي الاكباد حرارة اوام لاتفي حمته باطفاء نارها .. « وفي هذا اشارة الى ما عاناه من مشاق السفر وحيداً عبر الصحراء لارقيق له سوى رمحه وجواده . يقطع ارضين لاعهد لها بسائر ولا يخف ولا حافر . حتى اذا وصل الخابور تضاعف الهم وطالبتة النفس بالعودة وجزع وحزن وفزع الى دموعه وهو في وحدته وغرْبته . ولم يأس على ما فقد من مال وجاه . بل كان أساه على فراق مخدومه الافضل .

حتى قال : « وزاد ذلك ما وجدته بارض الخابور من حرّ ملبهب الاوار . لا يقي منه ظل شجرة ولا ظلّ جدار . ورأيت به من وجوه كأنما عرضت على العذاب . او أخرجت من تحت التراب . وقد نسجت لها الهواجر براقع من قار . ونفضت عليها الاسقام غبرة معصفرة الازار . فاعتضت بنار عن جنة . وتبدلت عن ناس بجنة .. » وفي هذا تصريح بالحالة البائسة التي كانت عليها جماهير الناس في الخابور تفتك بها الامراض والاسقام والابوئة .

ثم هو يكشف لأخيه عن قوة نفسه رغم عظم المصيبة فيقول : « وتلك النفس بحمد الله محكمة المريرة . تزهى بشبية عزم واكتهال بصيرة . لم يورثها صد الخطوب الا صقالا . ولا زادها ضيق الايام الا مجالاً . » ثم هو يصرح بعزمه على الإقامة بسنجار ليكون بها غريباً . عسى الله ان يكون لدعائه مجيباً .

حين وصل صاحبنا الى شاطيء الفرات ارسل كتاباً الى الامير مجاهد الدين قايماز - مخدومه الاول - وزعيم الموصل . يعتذر فيه عن مفارقتة اياه . ويتلطف في عوده اليه (١) .

ويبدو لنا من بعض الرسائل التي وصلتنا ان ابن الاثير استقر بعدها لبضع سنوات في الموصل في خدمة صاحبها الملك نور الدين ارسلان شاه . من ذلك كتاب

(١) انظر الرسالة رقم (٣١) من كتابنا هذا .

كتبه سنة ٥٩٤ هـ عن الملك نور الدين المذكور الى العزيز عثمان صاحب مصر مهناً
بنكوص الفرنج عن تبينين (١).

ثم هو يكتب كتاباً الى الامير مجاهد الدين قايمار وكان قايمار في خدمة الملك
نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل. مهناً بفتح نصيبين على يده سنة
٥٩٤ هـ (٢).

وثمة كتاب يرجع الى هذه الفترة. كتبه عن نفسه الى الملك الافضل وارسله اليه
الى حصن صرخد (٣). يعتذر فيه عن تأخر كتبه اعتذار مذب مقراً بذنبه. مؤكداً
اخلاصه على البعد. وان الله منحه الصبر على الفرقة. متمنياً عودة اوقات اللقاء.
ويرجو من أميره مواصلة المراسلة لأنها تنفس عن كربه. معرباً عن علو همته
وتزهره عن المطامع ويدعو الافضل « ان يستنفضه في المتجددات من الاوطار.
ويسلك به مسلك العيد الاحرار. لاعبيد الدرهم والدينار ».

وتشاء الاقدار ان يتوجه العزيز عثمان صاحب مصر الى بعض قرى الفيوم
متصيلاً. فاعترضه ذئب. فركض خلفه. فعثر به فرسه. فسقط الى الارض فحم من
ساعته. ثم توفي في القاهرة ليلة السابع والعشرين من محرم سنة ٥٩٥ هـ. وكان
رحمه الله كريماً عادلاً محسناً للرعية. فخلفه ابنه الملك المنصور محمد. وكان عمره
يوم توفي والده تسع سنين وشهوراً. واتفقت كلمة الامراء على مكاتبة الملك الافضل
المقيم في صرخد على ان يقدم البلاد. ويكون أتابكاً (وصياً) للملك المنصور سبع
سنين. فاذا انتهى هذا الاجل سلم الامر اليه والتدبير. على ان لا يذكر اسمه في
خطبة ولا سكة. وعرضوا الامر على القاضي الفاضل فقال: أصتيم. فارسلوا القصاد
الى الملك الافضل يستدعونه. فلما وصلته القصاد توجه اليهم مجدداً (٤).

ويبادر ضياء الدين ابن الاثير الى كتابة كتاب عن نفسه الى الملك الافضل يهنيه
بملك مصر. أرسله من الموصل في ربيع الاول سنة ٥٩٥ هـ. وذكر في صدره ان عمه
الملك العادل قد طمخ في ان يملك مصر. وسعى لذلك. وارصد للملك الافضل
أرصداً يمنعونه عن طريقة فانجاه الله منهم (٥).

(١) انظر الرسالة رقم (٣٥).

(٢) انظر الرسالة رقم (٣٦).

(٣) انظر الرسالة رقم (٣٣).

(٤) مفرج الكروب ٩٠ / ٣.

(٥) انظر الرسالة رقم (١٩) من كتابنا.

فهو يهني مولاد بأثر نعمة الله المؤذنة باجتباؤه . ويشير الى ان منتهى أمل
الإنبياء كان في ان تعود الضالة الى ربها . وتفك الطريدة المغصوبة من يد غضبها .
- مشيراً بذلك الى مملكة دمشق المغصوبة من الافضل - ومضى الى القول : فأثنى
فضل الله بما لم يبلغه أمل الأمل . وعوض عن القطرة الواحدة بسحاب هائل
وهو يوصي مولاه ان يحرس هذه النعمة . بالجود . وعرض بالملك العادل الطامع
بملك عصر في قوله : « ولقد شرق بهذا الامر قوم كانوا له أمليين . وعليه عاملين .
حتى تحجروا بتدقيق نظرهم على الاقدار . ومكروا له مكر الليل والنهار . فليرجع
كل منهم من حيث أجمع او فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع .. »

ثم أشار الى ان سببه لن يضعف ببعده الدار . اذ كان في مسيره عن خدمة الافضل
من المهاجرين . وفي الانجاد بهيمته من الانصار .
وعلى وجه العموم فان هذه الرسالة تعكس فرحة ابن الاثير الغامرة بهذه النعمة
التي أفاءها الله على مولاه .

ولقد ظفرنا برسالة نادرة اخرى حررّها في هذا الشهر بالذات (ربيع الاول
٥٩٥ هـ) الى الملك الافضل عناية بشخص اذربيجاني . كان يخدم الملك الافضل
وفارق خدمته ثم رغب في العودة اليها . وكتب هذا الكتاب على يده وارسله مع
المذكور من الموصل الى الديار المصرية (١) .

ووصل الافضل بلبس . فلقية اخوته والاعيان والامراء الذين نزلوا بها
منتظرين . وخرج فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية مع زين الدين قراجا وأسد
الدين سراسنقر مفارقين الملك الافضل وتوجهوا الى القدس . فوجدوا طغرل السلحدار
متوجهاً الى مصر فردوه معهم . وقدموا القدس واستمالوا واليه ختلخ العزي . كما
استمالوا عز الدين أسامة وميمون القصري . وكانت مع ميمون سبعمائة فارس
منتخبة .

واتفقت كلمتهم على مكاتبة الملك العادل يستدعونه ليقوم بأتابكية الملك
المصور . وورد جوابه اليهم : ان لا يفارقوا مكانهم حتى يفرغ من مارددين . ويصل
اليهم . وتوجه الافضل من بلبس الى القاهرة . وكتب الافضل الى العادل بأنه غير
خارج عن الذي يأمره به . وانه تحت حكمه . ويستطلع اوامره ونواهيه فيما
يعتمده . فورد جواب العادل عليه بأن الملك العزيز ان كان قد مات عن غير وصية
فليكتب الاعيان خطوطهم له بذلك وشهادتهم له . حتى يرى رأيه . وان كان قد
مات عن وصية فلا يعدل عنها . ولا ينبغي له التعرض الى ديار مصر .

(١) انظر الرسالة رقم (٧٥) .

أذناك قرر الافضل القبض على من بقي من امراء الصلاحية . فهرب بعضهم وقبض على آخرين . ثم برز الملك الافضل الى بركة الجب ، وأقام بها أربعة أشهر . واستخلف بها الامراء والجند . وارسل الملك الظاهر صاحب حلب رسولا للافضل يحرضه على سرعة السير الى دمشق واغتنام الفرصة في اخذها ، فرحل من البركة في الثالث من رجب سائرا الى دمشق . واخبرت الصلاحية العادل بقصد الافضل دمشق . ورتب العادل ولده الكامل محمداً على حصار قلعة ماردين . ومسار في مائتي فارس الى دمشق مجدداً ، فدخلها قبل منازل الافضل لها بيومين . ونزل الافضل على جسر الخشب ثالث عشر شعبان وزحف من الغد الى البلد وجرى قتال عظيم . واقتحم بعض جنوده دمشق واخترقوها ولكن المقتحمين كانوا قلة ولم يتصل بهم مدد من خلفهم فطاردهم جند البلد فخرجوا . واقتحم الظافر بابا آخر فردهم العادل وفرسانه . وتسلك الى دمشق بعض امراء جيش الافضل مخامرين ومعهم قطعة من العسكر . فخلع الملك العادل عليهم وقويت نفسه بذلك . وشرع يكتتب بعض قادة عسكر الافضل وأهدى لهم الاموال الجزيلة والتمسهم ايقاف الافضل عن الحرب . حتى يذهب بماله واهله الى الشرق ويترك لهم ملك مصر والشام ووعدهم بالاجر . فأشاروا على الافضل بالتوقف وان ينتظر قدوم الملك الظاهر ، فتوقف (١) .

في فترة الحصار هذه توجه ابن الاثير من الموصل قاصداً الالتحاق بالافضل وكان مسيره على نهر الخابور الى مدينة الرجة وسلك طريق البر على تدمر . وقد ظفر برسالة فريدة كتبها من ظاهر دمشق في ذي الحجة من عام ٥٩٥ هـ الى بعض اخوانه في الموصل يصف سفره هذا وما عانى فيه من مشقة واذى (٢) . وهي رسالة ذات أهمية في التعرف على احوال البادية في ذلك الزمان ، وما كان عليه الأمن من اضطراب والمسافر من نهب وعذاب .

ثم وصل الملك الظاهر من حلب لنجدة اخيه الافضل ومعه عسكره وشطر من عسكر المنصور صاحب حماة والملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص مع عسكره . فقوي بوصولهم قلب الافضل . وهاجم الافضل والظاهر دمشق وضيقا عليها الخناق . فقلت فيها الاقوات وطالت على أهلها مدة الحصار .

(١) مفرج الكروب ٣ / ٩١ - ٩٨ .

(٢) انظر الرسالة رقم ٣٧ .

واستدعى العادل امراء الصلاحية المقيمين بالقدس لنجدته فاقبلوا فقوي بهم الملك العادل . وصار العسكر العادلي في القدس يقطع طريق المسيرة الواصلة من مصر الى عسكر الافضل فتضرروا بذلك . وشدد الملكان الافضل والظاهر الحصار على دمشق وقلت الاقوات عند العادل . وزحف الظاهر يوماً الى البلد . ووصل الحلبيون النقبانيون الى السور وتقبوه واوشك العادل على تسليم دمشق لولا ماحدث من اختلاف الملكين الظاهر والافضل . فقد كانت رُسل الافضل قد نجحت في استمالة نور الدين أرسلان ابن مسعود – صاحب الموصل – الى جانبه جند العادل . فتصالح مع ابن عمه قطب الدين بن عماد الدين – صاحب سنجار واتفقا على انجاد صاحب ماردين على الملك الكامل ابن العادل . فساروا بعساكر الموصل وسنجار والجزيرة ودحروه وفكوا الحصار عن ماردين . فانهمز ليلاً الى ميا فارقين . ثم الى حران ثم دخلت سنة ٥٩٦ هـ والملك الافضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق مضايقان لها . فلما قل مابيده وعلت الاقوات فارقه جماعة من اصحابه وخرجوا الى الملك الافضل . فاجتمع اكابر الامراء عند الملك العادل وقالوا له : انه لامال له بدمشق والجند والعامّة لا يقاتلون الا بالمال . وامواله التي في الكرك وجعبر لاسبيل لهم للوصول اليها . فلم يبق غير استدعاء ولدك الكامل من الشرق مع عسكره ومعه من الاموال ما تنتقوى به . فأجابهم الى ذلك . واستطاع الكامل الوصول الى ابيه في دمشق بمن معه من الرجال والمال فقويت نفس ابيه به قوة عظيمة . ثم وقع الخلف بين الظاهر والافضل لاسباب شخصية (١) . فوهنت العزائم . وصادف ان كثرت الامطار واشتد البرد فرحلا الى مرج الصفر ثم الى رأس الماء حتى ينسلخ الشتاء فاشتد البرد والمطر وغلت الاسعار جداً . فاتفقا على الرحيل وتأخير حصار دمشق الى وقت انصرام الشتاء وواقفهما الامراء على ذلك . فرحل الافضل قاصداً ديار مصر . وسار الملك الظاهر الى حلب فهلك جماعة من مماليكه . ونفقت له دواب كثيرة بسبب اشتداد البرد وانعدام العلف ولما وصل الافضل الى اوائل الديار المصرية فارقه معظم عسكره وتفرقوا في البلاد لاجراج دوابهم الى الربيع . ودخل الافضل الى القاهرة في جمع قليل .

ولما رجع الافضل الى مصر . رحل الملك العادل بعسكره من دمشق ومعه الامراء الصلاحية . ومضوا يطوون المراحل حتى دخلوا الرمل . وبلغ الافضل ذلك – فرام جمع عساكره . فتعذر ذلك عليه لتفرقهم في الاماكن التي يربعون فيها خيلهم . فخرج في جمع قليل . ونزل السانج . والتقى العسكران فانكسر عسكر الافضل لقلته وخيانة في بعضه . ثم سار العادل بالعساكر . ونزل بركة الجب . وكتب للافضل :

(١) انظر مفرج الكروب ١٠٦ / ٣

« أنا لأحب ان أكسر ناموس القاهرة ، لأنها اعظم معاقل الاسلام . ولا تحوجني الى أخذها بالسيف . واذهب الى صرخد ، وانت آمن على نفسك »
وحين رأى الافضل تخاذل الامراء . طلب من عمه ان يعوضه عن مصر ببعض البلاد الشرقية وهي جانبي وجبل جور وميًا فارقين وسمياط . اضافة لصرخد . فأجابه الى ذلك . وتسلم القاهرة منه (١) .

ورحل الافضل الى صرخد بعد اجتماعه بالعدل . وكان ضياء الدين بن الاثير قد اتصل بالافضل في ظاهر دمشق اثناء حصارها . وراققه في العودة الى مصر بعد فك الحصار . فلما ملك العدل مصر ، ركب جملاً . وهرب خوفاً على نفسه من العدل الذي دخل القاهرة في الحادي والعشرين من ربيع الآخر عام ٥٩٦ هـ .
لقد صور ابن الاثير جوانب مهمة من هذه الاحداث في ثلاث رسائل نادرة ظفرنا بها .

الاولى : هي فصل من رسالة كتبها عن الملك الافضل الى أخيه الملك الظاهر صاحب حلب عند دخول عمه العدل الى الديار المصرية في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ . وهي تمثل استغاثة الغريق فقد رأى « ان هذه النوبة هي القاضية ، فاما ان تكون النفس بعدها كل الساخطة او كل الراضية . فليولها المولى عيناً لاتكتمل ابرقاد . وعزماً يسير بين الجياد اسرع من الجياد . ويصحب الاغماد بأقطع مما في الاغماد » وبلغت الاستغاثة مداها حين قال : « وهذا الكتاب هو الاول والآخر . ولا يرجى بعده طول مدة يتردد فيها الوارد والصادر » (٢) .

والثانية : رسالة كتبها الى بعض اخوانه في الموصل في جمادى الآخرة من السنة ذاتها بعد الخروج من مصر واستيلاء الملك العدل عليها (٣) . وهذه الرسالة من الرسائل المهمة . ويبدو ان ابن خلكان قد وقف عليها فقال : « وله في كيفية خروجه مستخفياً رسالة طويلة ، شرح فيها حاله . وهي موجودة في ديوان رسائله » (٤) .
وهذه الرسالة كتبها الى صديقه السابق الذي كتب له رسالته المرقمة (٣٧) وقد صرح بذلك في صدرها ولم يصرح باسمه .

(١) مفرج الكروب ٣ / ٩٨ - ١١٢ .

(٢) انظر الرسالة رقم (٤٠) من كتابنا هذا .

(٣) انظر الرسالة رقم (٣٨) .

(٤) وفيات الاعيان ٥ / ٣٩١ .

لقد صور ابن الاثير حصار دمشق وما تبعه من أحداث جسام في عبارات بليغة موجزة حية اذ قال : « ثم اقمنا بعد ذلك على حصار دمشق في حروب قائمة وغرامات لازمة حتى استنفدت قوى النفوس والاجسام . ولم نحظ منها الا بطول المقام . وسرنا عنها الى الديار المصرية والعساكر برمتها . والمهابة باقية على حرمتها . وتركنا من بها بادي الضعف . مفضوض الطرف . لاتخشى منه عادية بعد استحصاره . ولا يرجى له خروج من وراء جداره . فوثب على ظلعه . وتبعنا على قلة تبعه . فصادف العسكر قد تفرق في بلاده . والملك قد أمكن من قياده . فاقدم وما تردد . وفزق سهم كيده فسدد . ولقد ركب خطراً لايسلم راكبه وان سلم لاتسلم له مطالبه . الا انه تهيأ له من صنع القدر . مالم يكن في وسع البشر . فواتاه الزمان مبادراً . وكان محصوراً فاصبح حاصراً .. » .

ثم وصف خوفه من عقاب الملك العادل لما أسلف من ذنب لايرجو معه الاغضاء فشمّر بالخروج على راحلة يقطع المفاوز القاحلة .

ثم عبّر شوقه العظيم لمصر التي لم يتمتع نظره بمحاسنها فكأنها شوقته وما ذوقته حتى قال : « ووجدته على الحقيقة هو المصر وما عداه فهو السواد » ثم وصف بعض عجائب مصر كالمهرمين والمقياس وبركة الحبش وبركة الفيل . ورغم ذلك كله رأس مفارقتها عين الاحتياط فما يفي طيب الجنة بروعة المشي على الصراط . ثم التفت الى نفسه ورأى من الحكمة ان يعصي الاطماع ويقبل بوجهه على الأصرة فكفاه تشرداً واغتراباً .

والثالثة : وقد كتبها الى اخيه الاكبر مجد الدين المبارك في معنى الرسالة السابقة وان كانت أوجز واقصر (١) . وهي تصف كيف اصبح قرين اوجال . وطريد أمال . وزميل شد وترحال .

مضى الافضل الى صرخد - كما اسلفنا - ويبدو ان ضياء الدين التحق به هناك . ففي مجموعتنا هذه رسائل نادرة تعكس لوناً من اثاره في تلك الفترة التي امتدت نحو العامين .

واولى هذه الرسائل رسالة كتبها الى بعض اخوانه بالموصل في ربيع الاول سنة ٥٩٧ هـ بعد الخروج من مصر . وهو اذ ذاك مقيم بحصن صرخد في خدمة الملك الافضل (٢) .

(١) انظر الرسالة رقم (٣٩) .

(٢) انظر الرسالة رقم (٤١) .

وإذا تجاوزنا الشوق الذي في الكتاب الى صديقه . واجهنا شكواه من بؤس صرخد وقلة خيرها وشؤم طيرها . وما اؤذي به من مطرها وبردها . وهي على كل حال رسالة اخوانية . اما الرسائل الاخرى وعدتها خمس فكلها سياسية سنعرض لها في مواضعها .

ذلك ان الملك العادل اظهر ابتداءً انه قد ابقى الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان على اسم السلطنة . وانه بمقام الوصي عليه .

وبعد أيام جمع الفقهاء وقال لهم : هل تجوز ولاية الصغير على الكبير ؟ فقالوا : الصغير مولى عليه .

قال : فهل يجوز للكبير ان ينوب عن الصغير ؟ قالوا : لا . لأن الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة !

فعند ذلك عزل المنصور محمد بن العزيز . وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده . وكان ذلك يوم الحادي والعشرين من شوال سنة ٥٩٦ هـ (١) . وقد نفر الصلاحية من عمله هذا لانهم حلفوا له على ان يكون اتابكاً للملك المنصور الى ان يكبر ويسلم البلاد اليه . فاستوحشوا منه . ومالوا الى الملك الافضل . وتكررت المراسلات بينهم وبين الملك الافضل وهو بصرخد وبينهم وبين الملك الظاهر . وانكشف الامر للملك العادل فأمر ولده الملك المعظم عيسى بمهاجمة صرخد . فترك الافضل صرخد وتوجه الى اخيه الملك الظاهر عاشر جمادي الاولى من تلك السنة . وتوجه بعض الامراء الصلاحية الى صرخد واجتمعوا بالملك الظاهر خضر . وكتبوا الى الملك الظاهر يحثونه على سرعة الحركة ومهاجمة دمشق ليأخذوها من الملك العادل . ويستعيدوا منه الديار المصرية . فجمع الظاهر وحشد وعزم على قصد دمشق . وقد لعب ضياء الدين بن الاثير في هذه الفترة دوراً بالغ الاهمية . فحين توجه الافضل من صرخد الى حلب - وكان ابن الاثير برفقته - اوفده الافضل من اثناء الطريق ليسبقه الى حلب ويعلم بقدومه . فكتب ضياء الدين عن نفسه كتاباً الى الملك الظاهر - صاحب حلب - وسير الكتاب اليه وهو بالقرب منها (٢) .

ثم كتب كتاباً عن مخدومه الملك الافضل الى الملك نور الدين ارسلان شاه - صاحب الموصل - وذلك بعد الوصول من صرخد الى حلب - ضمنه الاستنجد على عمه الملك العادل (٣) . وقد اعلمه فيه بأن العساكر المصرية راسلت الافضل طالبة

(١) انظر النجوم الزاهرة ٦ / ١٥٢

(٢) انظر الرسالة رقم (٤٢) من كتابنا .

(٣) انظر الرسالة رقم (٤٣) .

أوبته مظهرة التوبة والندم ، معلنة البيعة وطلب منه العون .

كما كتب ابن الاثير في المعنى ذاته كتاباً عن الملك الافضل وهو في حلب ، الى القاضي ضياء الدين الشهر زوري ، وكان اذ ذاك قاضي القضاة ببغداد - وللأفضل عليه دالة - ورجاه ان يعرض هذا الامر على ديوان الخليفة النبوي ، وذلك في جمادى الاولى سنة ٥٩٧ هـ (١) .

وقد أشار في رسالته هذه الى ندم العسكر المصري وتوبته ، وتدمره من الملك العادل ، وهو يطلب فيها عناية الديوان النبوي وطليعة من طلائعه وصنيعة من صنائعه .

وحين استولى الملك الظاهر على منبج وفيها عبد الملك بن المقدم وهو من اتباع العادل ، كتب ابن الاثير عن الظاهر رسالة الى نور الدين ارسلان شاه - صاحب الموصل - يبشره بهذا الفتح ، وذلك في رجب سنة ٥٩٧ هـ (٢) .

ولما توجه الملك الظاهر والأفضل من حلب لمحاصرة دمشق ومنازلتها في شوال من السنة المذكورة ، كتب ضياء الدين كتاباً عن الملك الافضل الى ديوان الخليفة العباسي ، وكان الكتاب يتضمن فتح دمشق . الا ان الفتح لم يتسهل وبالتالي لم يسير الكتاب الى الديوان العزيز النبوي (٣) ، وهو كتاب مطول يكشف عما كان يريد ان يصنعه الأفضل بدمشق من اماتة الظلم واحياء العدل .

وقد حوصر الملك المعظم عيسى بن الملك العادل بدمشق ، وابوه بمصر ، فجاء بعساكره لنجدة ابنه . وضايق المحاصرون دمشق مضايقة شديدة والتصق عسكرهما بالاسوار وأحدثوا فيها عدة نقوب وكادوا ان يملكوها فحدث الخلف بينهما بدسياسة . وكتب الملك العادل الى الأفضل يعده بالبلاد التي عينت له بالشرق وبذل له مع ذلك مالاً . فغيرت همته ، وقال للامراء الصلاحية ومن جاء اليه من الجند : « ان كنتم جئتم اليّ ، فقد اذنت لكم في العودة الى الملك العادل ، وان كنتم جئتم الى أخي فانتم وهو اخير » .

وكان الكل يريدون الأفضل للين عريكته ، فقالوا : « ما نريد سواك والعادل احب الينا من اخيك » . فاذن لهم في العودة ، فهرب قادتهم ، فمن هؤلاء من دخل دمشق ، ومنهم من ذهب الى اقطاعه وتحللت العزائم (٤) .

(١) انظر الرسالة رقم ٤٤ .

(٢) انظر الرسالة رقم ٤٥ .

(٣) انظر الرسالة رقم ٤٦ .

(٤) مفرج الكروب ٣ / ١٢٦ .

ولما وقع الخلاف بين الملكين . رحل عن دمشق في المحرم من سنة ٥٩٨ هـ ورجع الظاهر الى حلب وتوجه الافضل الى حمص . فلما قدم العادل الى دمشق اجتمع الافضل به . ثم رحل الى البلاد الشرقية التي اتفقا عليها .

بعد اجتماع الافضل بعمه العادل على باب دمشق في صفر سنة ٥٩٨ . رحل الافضل الى حمص ومن هناك كتب ابن الاثير عنه كتاباً الى الملك العادل . وهو اول كتاب صدر اليه بعد مصالحته اياه . وقد كتب اليه بعد مفارقتة عناية في أمر الشيخ جمال الدين بن ابي النجيب البغدادي (١) .

ولما وصل الافضل مدينة الرقة كتب ابن الاثير عنه كتاباً الى عمه الملك العادل ضمنه ذكر الاشواق . ووصف مآلقيه به النائب بالرقة من الضيافة (٢) . وقد اصدرها في صفر من العام ذاته .

ثم اردفهما بكتاب كتبه عن الافضل الى عمه الملك العادل عند النزول بحران في صفر سنة ٥٩٨ هـ (٣) .

فلما وصلا سميساط وتسلم الافضل حصنها في ربيع الاول من السنة المذكورة كتب ابن الاثير عنه كتاباً الى عمه الملك العادل يشكره فيه على ما انعم ويذكر انه أصدر هذا الكتاب من حصن سميساط - حرسه الله - وهو الحصن الذي يضرب في الحصانة بمثله . ولو احتله السموأل لفخر به دون جبله . ومن صفاته انه منتزه نظر . ومفزع حذر . وموئل ورد وصدور . ويمر به من الفرات ما يقصر عن وجود معطيه . كما ان صهوته وان علت فانها تقصر عن مجد ممطيه ... » (٤) .

في التاريخ ذاته كتب ابن الاثير كتاباً عن الملك الافضل الى الملك نور الدين ارسلان شاه - صاحب الموصل - وسيره من حصن سميساط (٥) .

كما كتب عن الملك الافضل كتاباً في ربيع الاول من العام ذاته . الى مظفر الدين كوكبوري - صاحب اربل - وسيره من حصن سميساط . وكان هذا الحصن قديماً في يد مظفر الدين المذكور وبنى به داراً (٦) .

(١) انظر الرسالة رقم ٥٠ .

(٢) انظر الرسالة رقم ٥١ .

(٣) انظر الرسالة رقم ٥٢ .

(٤) انظر الرسالة رقم ٥٣ .

(٥) انظر الرسالة رقم ٥٤ .

(٦) انظر الرسالة رقم ٥٥ .

كان ضياء الدين شديد الضيق من جو الحصون الجبلية . بدا ذلك واضحاً في رسالته التي كتبها الى صديقه الموصلبي من حصن صرخد . وقد أشرنا اليها فيما سبق (١) . وفيها يقول : « وقد كان القلب يسكن . والمقام يمكن » . قبل ان يلقي الشتاء رحله بساحتها . وتأخذ أكف الغيث في سماحتها . فان بسط ثراها يتبدل اذ ذاك ببسيط مائها . وتشبه أرضها في تدفقها بسماؤها . وتنحجر الناس في بيوتهم انحجار اليرابيع . ولا يخرجون منها الا في ابان الربيع . ولا بد ان أصف له من حال هذه الارض في بردها ومطرها . ما يستعيز به من خبرها فضلاً عن نظرها . عل ان الخاطر والقلم بها قد جمدا . فلا يستطيع أحدهما ان يمضي قولاً ولا الآخر ان يسلك جداً . وجملة الأمر أنه لا يزال جفن السحاب بها ساكباً . وان بدأ لنا خدُ الشمس فلا يبدو الا شاحباً . على انها في هذا الوقت قد لزمت خدرها . وأرخت سترها . فلا ترى الا من طريق التنجيم في اوراق التقويم . وأما بردها فانه يفعل في الاجساد فعل الحر في المزاد . ومما اشكوه منه ان الفرو لا يلبس بها الا في شهر ناجر . وهو قائم مقام الظل الذي يتبرد به من لفح الهواجر . ولفرط شدته لم أجد ما يخففه فضلاً عما يذهب . فان النار المعدة له تطلب من الدفء ايضاً ماأطلبه ... » .

فالمطر المتهاطل والبرد الشديد واحتجاب الشمس وانحجاز الناس في بيوتهم كاليرابيع . امور واحوال تبعث الضيق في نفسه فنراه يجأ بالشكوى .

لقد كانت الاحوال الطبيعية في حصن سميساط مماثلة لاحوال حصن صرخد . فلا بدع اذا رأينا ابن الاثير يشكو الى صديقه الموصلبي مايعانيه من قسوة الطبيعة فيقول : « وهذا كتاب اصدرته اليه من حصن سميساط وقد هالني صعوده في صنب وذلك مالم يخطر بخاطر . ولانية عليه زجر زاجر . ولو رأيت في المنام لم أطعم قراراً . ولجعلت ليلي في اليقظة نهراً . ولولا كتاب سيدنا الذي ازال عني وعكة القلق وقال اقرأ باسم ربك الذي خلق . لكنت بالهجوم متزماً . وعن هذه المدرة الذميمة مترملاً ... » (٢) .

لقد كره ابن الاثير الإقامة في حصن سميساط . وعدها داراً ذميمة . ولقد حدث ان فجأه الشيب في تلك الفترة فقال يَصوره :

« فدوى نبت الرأس والماء جارٍ في عوده . وأخلق لباس الصبا . ولم تخرج يد صانعه من حوك بروده . ولئن قدمت علي طليعته قبل اوان قدمها . فغير بدع للمرتقي في سماء المعالي ان تصممه بنجومها . واذا نظر في ذلك الى صحة القياس .

(١) انظر الرسالة رقم ٤١ .

(٢) انظر الرسالة رقم ٥٦ .

وجو شيب الفؤاد سرى الى شيب الرأس . ولقد اذكى همومي وأحمد هممي
وأحدث التغيير في كل شيء الا في شيمي .. »

وتطول سنوات اقامته في سميساط بمعية الافضل . ويجيء عام ٦٠٦ هـ حاملاً
ليه أوجع الانباء وافجعها بوفاة اخيه الأكبر مجد الدين المبارك . لقد اتسمت علاقة
ضياء الدين بأخيه الأكبر بالمحبة والاحترام العميقين . فلا عجب اذا انطبع هذا
الحادث الفاجع على آثاره . فكتب الى والده جواباً عن كتابه المخبر بوفاة اخيه
رحمه الله . كتاباً يطفح بالحزن والأسى يقول في بعضه :

« ولقد بكيت حتى أرقت كل عين شحيحة . وأعدت بدائي كل كبد صحيحة .
وما أصنع بالحياة وقد فقدت من كان قسيمها . وعمدت من كان جنتها ونعيمها .
وأصبحت بعده كمقلة فارقتها انسانها . او يد بان عنها بنانها ... »
حتى قال : « ومما شجاني اني كلفت بعده بزيارة المقابر . وامدادها بالدموع
البيادر . فلم أرى قبراً الا منحتة وأنسته وجدا . وعفرت عليه قلباً وخدا . حتى
كادت تجيني أقطاره . وترق لي احجاره » (١).

ولقد تركت وفاة مجد الدين المبارك صدى كبيراً عند كبراء عصره . فكتب الملك
نور الدين ارسلان شاه - صاحب الموصل - كتاباً الى صاحبنا يعزیه بأخيه مجد
الدين . فردّ عليه ابن الاثير برسالة وصلتنا يقول في بعضها :

« وخطبه يجلّ ان يقال اوحشت له الاقوام . بل يقال اوحشت له الايام .
ويكبر ان تستحرّ عليه الثواكل . بل تستحر عليه الفضائل . ويكرم ان تنوح عليه
النوادر بل تنوح عليه المناقب ... » (٢).

كما كتب نظام الدين - وزير الملك الظاهر غازي بن يوسف صاحب حلب -
كتاباً الى صاحبنا يعزیه بأخيه مجد الدين . فردّ عليه بكتاب قال فيه :

« فمن وجد لمصابه مثلاً فلا مثل لهذا المصاب عندي . وكما كان اخي في المعالي
امة وحده فاني في الحزن عليه امة وحدي ... » (٣).

وعلى وجه الاجمال لقد تركت وفاة مجد الدين أثراً بيّناً في حياة ضياء الدين
وفي رسائله .

(١) انظر الرسالة رقم ١٦ .

(٢) انظر نص الرسالة في نشرة المقدسي ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٣) انظر نص الرسالة في نشرة المقدسي ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

جَوَّ من الحزن لفَّ سميساط عام ٦٠٦ هـ . فابن الاثير فقد اخاه مجد الدين .
والملك الافضل فقد أخطأ له توفي برأس عين وهو رابع أخ مات له . فكتب ابن الاثير
عن الافضل كتاباً الى اخيه الملك الظاهر يعزيه فيه (١) .
والملك العادل فقد ابناً له . فكتب ضياء الدين عن الافضل كتاب تعزية
للعادل (٢) . كما كتب عن الافضل كتاب تعزية آخر الى ابن عمه الملك الاشرف
موسى بن العادل (٣) .

ويبدو - لظروف عدة - ان ابن الاثير لم يعد يطبق الاقامة في سميساط فأثر
اعتزال خدمة الافضل . وقد اجمعت المصادر على ان ذلك كان عام ٦٠٧ هـ .

ورغم الصحبة التي امتدت بينهما قرابة ربع قرن من الزمن . فقد وقفنا على
رسالة غريبة كتبها ضياء الدين الى بعض اخوانه من اصحاب الملك الافضل معرضاً
به بعد ان فارق خدمته بسميساط وعاد الى الموصل . يقول في اثنائها :

رب قائل « يقول لقد اخطأ فلان في اختيار الفراق . وها نحن حظينا دونه
بسعة الارزاق . وأقمنا تحت ظل هذا السلطان في صيف الشام وشتاء العراق .
ولا يجاب هذا القائل الا بالاعراض عن جانبه . وان أجيب فيحال على ما يكتب على
القبر وهو بركة لصاحبه . وقد قيل ان الرثة تعجب من لم يذق لحماً . واخو الجهالة
ينعم في يأسئه . حتى يعد البأساء نعمى . وانما اتمثل في هذا المقام بقول الشاعر :

لا أدود الطير عن شجرٍ قد بلوت المرّ من ثمره

والغبين كل الغبن في ذكر ماضى لي من الخسارة . وانفاق العمر في الذي
لا عوض عنه غير انفاق ماعنه عوض من الدرهم والدينار . وعلى كل حال فأنا الملوم
اذ طمعت ان استثمر حنظله . واستجدي جندله . واستولد املاً لم أحصل من المأمول
فيه الأعلى مبخله » (٤) .

وهكذا انتهت علاقته بالافضل . وقد ذكر ابن خلكان (٥) ان ابن الاثير اتصل
بعد ذلك بخدمة اخيه الملك الظاهر صاحب حلب . فلم يطل مقامه عنده ولا انتظم
أمره وخرج مغضباً .

ولم نظفر بغير رسالة واحدة كتبها وهو في خدمة الظاهر بحلب يعد مغادرته
الافضل (٦) . وهي رسالة كتبها عن الظاهر الى الديوان العزيز النبوي ببغداد وعرض

(١) انظر نشرة المقدسي ص ٣٠٥

(٢) انظر نص الكتاب في نشرة المقدسي ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٣) انظر المقدسي ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(٤) انظر الرسالة في نشرة المقدسي ص ٢٤٠ - ٢٤٢

(٥) وفيات الاعيان ٥ / ٣٩١ .

(٦) المقدسي ص ٢١١

فيها بأن الرسول الذي ورد عليه لم يكن لائقاً. وذكر حديث السلاح المأمور باتباعه. وثمة رسالة كتبها ابن الاثير عن نفسه الى الملك الظاهر يشكوه فيها عن وصله بصلة من دراهم وثياب وغيرها وهو اذ ذاك بحصن سميساط (١).

وفيها يقول: «... ومن أحسن شيمها ان جودها يسري الى من أنأت الايام محله، وان سحابها يمطر مالا يظل من الارض، والسحاب لا يمطر الا ماأظله. وقد نشأ الآن باكتاف الشام فمقى المملوك وهو باكتاف الروم، ولما رأى الناس سقيه قالوا: هذه مواقع الغيوب فاين شخص الغيوم». وقد ظفرنا بكتاب آخر كتبه عن نفسه الى الملك الظاهر، ويتضمن شكوى الزمان اليه. ولكن هذا الكتاب كتب وهو بعيد عنه، وليس مما كتب وهو في خدمته (٢).

وهناك رسائل عديدة كتبها ابن الاثير عن الافضل الى الظاهر معزياً او مجيباً. ورسائل اخرى كتبها عن نفسه الى الظاهر عناية ببعض الناس (٣)، ورسالة كتبها عن الافضل الى الظاهر جواباً عن كتابه وكانت الكتب قد انقطعت بينهما لنزغة جرت بينهما (٤). الا ان جميع هذه الرسائل كتبت وابن الاثير ليس في خدمة الظاهر. باستثناء الرسالة التي كتبها عن الظاهر الى الديوان العزيز النبوي التي ألمعنا اليها. رسالة واحدة يلفت تاريخها النظر فهي مؤرخة سنة ٦٠٢ هـ وقد كتبها عن الملك الظاهر الى دار الخلافة ببغداد وضمنها السؤال في ارسال سراويل الفتوة. والسؤال هل كتبها وهو في زورة الى حلب؟ كما كتب جوابه الى أبيه المخبر بوفاة اخيه الاكبر، وارسله من دمشق الى الموصل سنة ٦٠٦ هـ وهو في زورة لها؟ فالمصادر التاريخية تذكر انه كان في خدمة الافضل في سميساط في التاريخين المذكورين، وليس يمنع هذا ان ينحدر في زيارة الى حلب او دمشق.

ان ما ذكره ابن خلكان من مفارقة ابن الاثير للافضل في ذي القعدة من عام ٦٠٧ هـ ليس صواباً في رأينا.

فالثابت لدينا ان ضياء الدين كتب كتاباً عن نور الدين أرسلان شاه الى الديوان العزيز النبوي جواباً عن كتاب ورد منه على يد رسوله الاجل بدر الدين ابن بنت العقاب (٥).

(١) رسائل ابن الاثير، نشرة المقدسي ص ٣٠٨

(٢) نشرة المقدسي ص ٣٣٥ - ٣٣٧

(٣) انظر نشرة المقدسي الصحائف ٢١٨، ٢٢٢، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٨، ٣١٤، ٣٣٥، ٣٣٧.

(٤) انظر الرسائل رقم ٦٩ من كتابنا هذا.

(٥) انظر الكتاب في نشرة المقدسي ص ٢٥٧ - ٢٦٠، وقد وقع خطأ تاريخه فكتب ثمان وستمائة. وقد راجعناه على الاصل المخطوط فثبت انه من وهم ناسخ المخطوطة في الموصل.

كما انه كتب توقيعاً عن الملك نور الدين ارسلان بن مسعود لاولاده بعض اصحابه توفي والدهم (١). واذا كان هذا التوقيع غير مؤرخ وانه ربما خص فترة اشتغال سابقه (ما بين ٥٩٢ - ٥٩٥). فانه لما كان من الثابت وفاة الملك المذكور في الموصل في رجب سنة سبع وستمائة . فيكون ابن الاثير قد كتب الكتاب المذكور قبل رجب . وبالتالي يكون مذكره ابن خلكان من مفارقة ضياء الدين للافضل في ذي القعدة مغلوطاً .

يعزز رأينا هذا الكتاب الذي كتبه الى الديوان العزيز النبوي عن عز الدين مسعود بن ارسلان شاه صاحب الموصل لما توفي والده رحمه الله في رجب سنة سبع وستمائة . يسأل تقليداً وتشريفاً وعمره اذ ذاك ست عشرة سنة (٢).

ويبدو ان ابن الاثير ظل في خدمة القاهر عز الدين مسعود بن ارسلان شاه بعد هذا التاريخ . فحين توفي الملك الاوحد ايوب من الملك العادل - وكان حاكماً على ارمينيا - في ربيع الاول سنة تسع وستمائة . كتب ابن الاثير كتاباً عن الملك القاهر عز الدين الى الملك الاشرف موسى بن العادل يعزیه في أخيه الملك الاوحد ، ويهنيه بمصير ملكها اليه بعده (٣). كما حرر كتابين في هذا المعنى ايضاً (٤).

ثم نظف برسالة كتبها سنة عشر وستمائة لتكون مقدمة لكتاب ألف في أوصاف الصبوح « وجعله مؤلفه باسم الملك المعظم محمود بن سنجر شاه صاحب الجزيرة العمرية . وسنعود للحديث عن هذه الرسالة المهمة - بعد ان كشفنا من كتبت له - في موضع آخر من مقدمتنا هذه (٥).

ويتابع ابن خلكان ترجمته لابن الاثير فيقول : « ورد اربل فلم يستقم حاله . فسافر الى سنجار ثم عاد الى الموصل واتخذها دار اقامته واستقر . وكتب الانشاء لصاحبها ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر عز الدين مسعود بن نور الدين ارسلان شاه . وأتابكه يومئذ الامير بدر الدين لؤلؤ ابو الفضائل النوري وذلك في سنة ثمانبي عشرة وستمائة » (٦).

(١) نشرة المقدسي ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) انظر نشرة المقدسي ص ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٣) نشرة المقدسي ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) انظر نشرة المقدسي ص ١٩٩ - ٢٠١ .

(٥) انظر نشرة انيس المقدسي ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

(٦) وفيات الاعيان ٣٩١ / ٥ .

لقد توفي الملك القاهر عز الدين مسعود سنة ٦١٥ . وتولى الحكم لفترة قصيرة جداً ولده نور الدين ارسلان شاه (الثاني) وكان طفلاً مريضاً ، فكان يبقى مدداً طويلة لا يركب ولا يظهر للناس ، فظن عمه عماد الدين زنكي بن نور الدين ارسلان شاه انه قد مات وان بدر الدين لؤلؤ يحاول انتزاع الملك نفسه ، ورأى انه احق بملك آبائه واجداده . وكانت له بحكم الوصية من ابيه قلعتا العقر واشوش . فاستولى على العمادية فحاصره بدر الدين لؤلؤ ولكنه هزم المحاصرين أقبح هزيمة ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان . بمعونة والد زوجته مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل . كان ذلك عام ٦١٥ . لكن بدر الدين لؤلؤ استطاع في المحرم من سنة ٦١٦ هـ دحر عماد الدين زنكي في حصن العقر فمضى منهزماً نحو اربل (١) .

وقد سجل ابن الاثير هذه الهزيمة في كتاب كتبه عن بدر الدين لؤلؤ الى الديوان العزيز النبوي متضمناً هزيمة عماد الدين زنكي بن نور الدين ارسلان شاه ابن مسعود تحت حصن العقر (٢) .

ان بدر الدين لؤلؤ اعتضد بالملك الاشرف الايوبي ودخل في طاعته . ليستطيع الوقوف بوجه عسكر مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل المناصر لعماد الدين زنكي .

وحين توفي نور الدين بن الملك القاهر ، وأقام بدر الدين لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمود ابن الملك القاهر وعمره يومئذ ثلاث سنين ، وهو آخر من خطب له من بيت اتابك بالسلطنة . تجدد لعماد الدين زنكي ولظفر الدين كوكبوري طمع في الموصل فزحفوا عليها ودحروا جيش بدر الدين لؤلؤ . ثم رحلوا نحو اربل ، واصطلحوا (٣) . وقد وقفنا على رسالة كتبها ابن الاثير عن بدر الدين لؤلؤ الى الديوان العزيز النبوي ببغداد في أمر مظفر الدين كوكبوري صاحب اربل . وهذه الرسالة تعود الى عام ٦١٦ هـ حسب تقديرنا (٤) .

وثمة رسالتان كتبهما ابن الاثير عن حادثة اعتقال بدر الدين لؤلؤ للثائر الكردي عماد الدين احمد بن علي المعروف بابن المشطوب . وقد كتبها الى الملك الاشرف موسى بن العادل عن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ومعلوم ان حادثة اعتقال ابن المشطوب جرت عام ٦١٧ هـ (٥) .

(١) انظر مفرج الكروب / ٤ - ٢٠ - ٢٥ .

(٢) انظر نشرة المقدسي ص ٦٠ - ٦٢ .

(٣) مفرج الكروب / ٤ - ٢٥ - ٢٨ .

(٤) انظر نشرة المقدسي ص ٦٩ - ٧٢ .

(٥) نشرة المقدسي ص ٦٣ - ٦٩ ، وحول ابن المشطوب انظر مفرج الكروب / ٤ - ١٦ - ١٨ - ٢٨ - ٢٩ - ٧٠ - ٧٧ .

ان هذه الرسائل الاربعة تصحح ما ذكره ابن خلكان فالثابت من تواريخها انها كتبت في عامي ٦١٦ و ٦١٧ هـ مما يؤكد ان ابن الاثير كان يعمل في ديوان يعمل في ديوان الانشاء الاتابكي في العامين المذكورين وليس عام ٦١٨ كما ذكر ابن خلكان في النص المتقدم .

ويبدو ان مكانة ابن الاثير وقدراته البلاغية جعلت بدر الدين لؤلؤ يعتمد عليه ويختاره رسولاً عن صاحب الموصل الى ديوان الخليفة ببغداد . وإلى هذا أشار مؤلف كتاب الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة اذ قال : « ورد الى بغداد مراراً في رسائل من بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، منها في هذه السنة (٦٣٧ هـ) ... » (١)

وقد وصلتنا من رسائله رسالة اوردها في الديوان العزيز النبوي ببغداد ، حين سار الى بغداد رسولاً عن صاحب الموصل بدر الدين يقيم سنة العزاء بموت الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله ابي العباس احمد . وذلك في اول يوم من شعبان سنة ثلاث وعشرين وستمائة وكان توفي والده الناصر من قبله في سلخ شهر رمضان من سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وكان بين موتها تسعة اشهر وايام (٢) .

وهذه الرسالة البليغة كانت من الاثارة والاهمية بحيث اوردها ابن واصل كاملة وناقش مبالغاتها واتى على منشئها الذي ابدع في مزج التهئة بالتعزية (٣) .

ولقد توفرت لدينا رسائل عديدة كتبها بين عامي ٦٢٢ - ٦٢٩ هـ . عن بدر الدين لؤلؤ تخص الاحداث والمعارك التي اثارها سلطان الخوارزمية جلال الدين منكبرتي بن خوارزم شاه .

وأولى هذه الرسائل كتبها الى الديوان العزيز النبوي ببغداد عند وصول جلال الدين منكبرتي الى ارض العراق على قصد العبث والفساد في البلاد والنهب والسفك وانتهى الى بعقوبا (٤) .

وكان جيش جلال الدين منكبرتي قد وصل الى بادرايا وباكسايا ثم بعقوبا واحتل رقوقا وabad اهلها . واستسلمت له البوازيج وهي بلدة قرب تكريت . ثم ترددت الرسل بينه وبين صاحب اربل فدخل الاخير في طاعته . وراسل الملك المعظم

(١) الحوادث الجامعة المنسوب لابن الفوطي ص ١٣٦ .

(٢) انظر نشرة المقدسي ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) مفرج الكروب ٤ / ١٩٨ - ٢٠١ .

(٤) انظر الرسالة الاولى في نشرة المقدسي ص ١٧ - ٢٠ .

عيسى بن العادل صاحب دمشق ، السلطان جلال الدين . واتفق معه . وصار هؤلاء الثلاثة جلال الدين وصاحب اربل وصاحب دمشق يداً واحدة . وقد فعل صاحب دمشق ذلك نكاية باخويه الكامل صاحب مصر والاشرف صاحب البلاد الشرقية (١)

ولابن الاثير كتاب آخر في هذا المعنى كتبه عن مخدومه الى الديوان العزيز النبي ببغداد (٢).

وكتاب ثالث كتبه الى ديوان الخليفة ببغداد جواباً على كتاب ورد منه في هذا

المعنى (٣). كل ذلك كان سنة ٦٢٢ هـ .

ثم ان السلطان جلال منكبرتي قوي أمره واستولى على اذربيجان وعراق العجم والحق هزائم شنيعة بالكرج واستولى على تفليس . ثم ان اهل كرمان تمردوا عليه فسار اليهم وترك بتفليس عسكرياً مع وزيره شرف الملك . فقلت عليهم المسيرة . فساروا الى ارزن الروم (٤). فوصلوا اليها ونهبوا ، وسبوا النساء وأخذوا من الغنائم مالا يحصى وعادوا . وعند عودتهم داهمهم نائب الملك الاشرف في خلاط (بارمينية) الحاجب حسام الدين علي الموصلي . واستنقذ مامعهم من الغنائم واوقع بهم . فارسل وزير جلال الدين اليه يعرفه بالحال (٥).

وحين عاد جلال الدين منكبرتي من غزواته توجه الى خلاط وفيها حسام الدين علي نائب الملك الاشرف وحاصرها . وكان ذلك الحصار الاول (٦).

كان صاحب الموصل يقف الى جانب الملك الاشرف . ولذلك رأينا ابن الاثير يوجه عنه كتاباً الى الامير حسام الدين نائب الملك الاشرف في بلاد ارمنية . عند حصار ملك خوارزم جلال الدين منكبرتي لمدينة خلاط في ذي العقدة من سنة ٦٢٣ هـ (جواباً عن كتاب ورد منه يخبر بذلك (٧) ثم يوجه له كتاباً آخر) . يربط فيه جأشه ويثبت جنانه . وفيه يقول : « واين بلاد العجم ... من بلاد ارمنية التي قراها حصون مانعة . وحصونها نجوم طالعة وفيها مدينة خلاط وهي

(١) انظر مفرج الكروب / ٤ / ١٤٤ - ١٤٦ .

(٢) انظر نشرة المقدسي ص ٢٠

(٣) انظر نشرة المقدسي ص ٢١ - ٢٣ .

(٤) من بلدان ارمنيا واهلها ارمن .

(٥) مفرج الكروب / ٤ / ١٨٧ - ١٨٨

(٦) مفرج الكروب / ٤ / ١٩٠

(٧) انظر نشرة المقدسي ص ٣٠ - ٣١

عروسها حسناً ، وعقيلتها البكر التي اذا رامها خاطب لاتعطي اذنأ . وقد نيظت بالمولى فبات من دونها محنقأ . وجهز لها من حميته فيلقا . ومد عليها من غيرته سورأ وخندقأ . ولولا ان اراد الله منع جانبها لما جعله لها كنانة ، وجعلها في يده امانة . « (١) » .

ثم نراه يوجه كتابأ آخر عن مخدومه الى الملك الاشرف عند حصول هذه الواقعة يتضمن الانذار والتحذير . يدعوه فيه الى نجدة المحصورين والمبادرة الى وضع الرجل في الركاب . لأن « خلاط » هي طرف مملكته الذي يتعدى منه الى اوساطها ، واذا طوي من بساط الدار شيء فلا يؤمن ان يشمل الطي جميع بساطها . وهو يهون من أمر المهاجمين جند الخوارزمي بأنهم : « أوشاب مجمعة . ورفاق مرقعة . لايستقل بأحدهم جواد مطهم . ولا يتأبط انبوبة رمح مقوم . ولا يمشي في درع تثقل منه كاهلاً . ولا ترد عنه نابلاً لكنهم ما بين أكشف وأعزل وأنكب وأميل .. » .

ويدعوه الى المبادرة لئلا يتسع الخرق على الراقع (٢) .

ويردف كتابه هذا بكتاب آخر الى الملك الاشرف في هذا المعنى ايضاً . محدراً ومنذراً وفيه يقول : « والمملوك يمد يديه بالانذار حتى ينسبط جناحاه . ويقول ياصباحاه ياصباحاه ياصباحاه ! وهو نذير للبيت العادلي بين يدي عدو ذرأ أمر شارقه ، وحمل سيفه على عاتقه . وسبق فأيد عزمه بسابقه . ولاحساب عنده للعوائق حتى يلبث دون عائقه . فالبدار البدار والنفار النفار » (٣) »

وليس من شك ان هذه الكتب التي كتبها عن مخدومه صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ - حليف الاشرف - كان لها وقعها الكبير على الملك - وهي في رأينا مما حفزه على المبادرة والمصالوة والمقاتلة ، وسنعرض لذلك فيما بعد ..

وصمدت « خلاط » . فلما اشتد البرد ونزل الثلج - وورد خبر بتمرد الايوانية - رحل عنها جلال الدين الخوارزمي بجيوشه خائبأ . والى هذا الرحيل يشير كتاب كتبه ابن الاثير الى الامير حسام الدين على جوابأ عن كتاب ورد منه يخبر برحيل الخوارزمي عن خلاط خائبأ (٤) . . وهو في آخر الرسالة يدعوه الى ان يأخذ السيف من السيف بثأره ، وأن يُغزى العدو في عقر داره .

(١) انظر نشرة المقدسي ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) انظر نشرة المقدسي ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣) انظر نشرة المقدسي ص ٢٧ - ٢٩ .

(٤) انظر نشرة المقدسي ص ٣١ - ٣٤ .

ثم ان زوجة السلطان جلال الدين وهي ابنة السلطان طغرل خامنة لما عرض عنها . فارسلت الى الامير حسام الدين علي نائب الاشرف تستدعيه ليتسلم بلاده . فسار من خلاط واستولى على مدن خوي وسلماس ومرند من مدن اذربيجان . وسلمه اهل تقجوان مدينتهم وهي من مدن اران . ولم يقيموا بهذه البلدان بل عادوا عنها مستصحبين معهم زوجة السلطان جلال الدين ابنة طغرل التي اقامت بخلاط . ولدينا رسالة كتبها ابن الاثير عن مخدومه الى الامير حسام الدين علي وقد سقط اول الرسالة . وهي تشير الى بلد افتتحه الامير المذكور وهو منسج من المناسج التي تستغرب صفائفها . ويشير فيها الى فشل الخوارزمي في حصار خلاط ثم نراه في هذه الرسالة يكشف عن فخره بأتمته العربية فيقول : « ومن أين للعجم رماح العرب التي ترد سهامهم الى وفاضها . وتميل بسحرتها . ما بوجههم من صفة بياضها . وتوردهم حياض المنايا فلا يستطيعون صدراً عن حياضها . وقد اعوزهم ان يمتطوا ما خصهم الله به من العتاق الشواذب . التي صهواتها معاقل عاصمة لامراكب . واذا صدم أحدها قرنه من العجم طاح من بين عوديه وخز لقمه ويديه . وصار بردونه لقي كلحم على وضم . او كصوفة في فم جلم . وتبين حينئذ بسطة العرب وخيلها على العجم وخيل العجم (١) .

وتمه كتاب آخر كتبه الى الامير حسام الدين في هذا المعنى جواباً عن كتابه (٢) وفي رسائله كتاب آخر كتبه الى الامير المذكور جواباً عن كتاب ورد منه ينبئ بأنه قصد بلاد اذربيجان فافتتح مدينة خويج وما جاورها من البلاد (٣) وهي من مملكة الخوارزمي .

في عام ٦٢٥ استطاع الخوارزمي دحر التتر في ضواحي اصفهان . وتبعهم الى الري يقتل ويأسر . فلما فرغ من حربهم وصل اذربيجان ثم قصد خلاط وتعداها الى صحراء موش وجبل جور . فنهب الجميع وسبى الحرير واسترق الاولاد وقتل الرجال وخرب القرى وعاد الى بلاده . فانتشر الرعب في سائر البلاد الاشرفية . وفي عام ٦٢٦ سير الملك الاشرف مملوكه عز الدين ايبك وهو أكبر الامراء عنده . فقبض على الامير حسام الدين علي الموصلبي وقتله ولم يعرف السبب . وفي هذه السنة حاصر السلطان جلال الدين خوارزم شاه مدينة خلاط للمرة الثانية وظل يحاصره حتى

(١) انظر نشرة المقدسي ص ٣٤ - ٣٧

(٢) انظر نشرة المقدسي ص ٣٧ - ٣٩

(٣) انظر نشرة المقدسي ص ٣٩ - ٤٠

جمادى الاولى سنة ٦٢٧ . ثم فتحه فسبى عسكره الحريم وباعوا الاولاد وقتلوا الرجال ونهبوا الاموال وقتل نائب الاشرف عز الدين ايبك (١).

ان هذه الاعمال التتريية . دفعت الملك الاشرف الى تحشيد قواه . فتم لقاء بين الكامل صاحب مصر والاشرف في مدينة الرقة . حيث اعدوا العدة لجمع العساكر والمسير الى جلال الدين خوارزم شاه لدفعه عن بلاد ارمينية التي احتلها . ولا بن الاثير رسالة كتبها عن مخدومه بدر الدين لؤلؤ . الى الملك الكامل جواباً عن كتاب ورد منه ينبىء بهذا اللقاء (٢).

وهو في الرسالة يعرب عن سروره بلقاء الملكين الاخوين فهى « نعمة ضافية للباس . مستثمرة الغراس » . ثم يعود الى اسلوبه في الاعتزاز بقومه العرب فيقول : « ويكفي في غض لجام هذا العدو العجمي ان يسمع قبل ان يرى . ويسرى اليه الرعب فيأخذ في هربه بادمان السرى . ويستدل على ذلك من نسبته في انه يُعْجَم عوده وتهزم جنوده . ومن اين له ولرجاله صبر العرب في مواقف الجلال . او لهم مثل خيولهم التي من صفاتها أنها تسمى بالجياد . او لهم مثل سلاحهم في ارهاف نصوله . وبعد أطراف القنا من اصوله .. » .

وفي آخر الرسالة يوصى بالحزم واعمال الرأي ويقول : « وبعد هذا كله فلا بد من النظر في حفظ جانب الحزم من الاضاعة واعمال الرأي الذي هو قبل الشجاعة . وهذا العدو وهو قرن قد طلع وفي يده سيف قد لمع . واذا لم يبادره الى اغماده والأقطع . وما زالت الفتنة من ارض العجم خارجة . وفيها هائجة . وعلى أهلها عائجة . وفي اسواقهم رائجة . وقد وردت الاخبار النبوية بأن منها يطلع قرن الشيطان وفيها تتناقل سيرة الجور والعدوان . وفتنة هذا العدو واحدة من تلك الفتنة ... » .

ولقد انضم سلطان الروم علاء الدين كيقباز الى الملك الاشرف . بسبب خوفه من ابن عم له هو صاحب - ارزن الروم - . وكان قد تحالف مع جلال الدين بن خوارزم شاه ودخل في طاعته واسهم معه في حصار خلاط وفتحها . فخاف علاء الدين من جلال الدين ان يقصد بلاد الروم ويأخذها منه . ويملك بعضها لابن عمه . فجمع الملك الاشرف عساكر الشام والجزيرة وسار بنفسه الى سيواس . واجتمع بالسلطان علاء الدين كيقباز وسارا معاً الى خلاط . ولما سمع جلال الدين بذلك قصدهم بجيشه فالتقوا بناحية ارزنجان . ودارت الدائرة على الخوارزمي فانهم شرّ

(١) مفرج الكروب ٤ / ٢٩٤ - ٢٩٧

(٢) رسائل ابن الاثير : نشرة انيس المقدسي ص ٤٠ - ٤٣ .

هزيمة وكان ذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٧ هـ . ورجع جلال الدين الى مدينة خوي في بلاد اذربيجان . واسترجع الاشرف « خلاط » وقد صارت يباباً (١) .

لقد سجل ابن الاثير هذا الانتصار في ست رسائل (٢) ، من عيون رسائله . واولها رسالة أجاب بها عن كتاب ورد من الملك الاشرف فيتضمن البشري بهذا الفتح . ثم كتاب آخر في المعنى . ثم كتاب كتبه الى الملك الاشرف يتضمن الهناء بهزيمة جلال الدين صاحب خوارزم بعد ان هزمه الاشرف واسترجع خلاط في رمضان سنة ٦٢٩ هـ . ثم كتاب آخر في المعنى . ثم كتاب آخر في المعنى وفيه اشارة الى اتفاق ملك الروم علاء الدين كيقباز ابن قليج ارسلان مع الاشرف على قتال الخوارزمي واجتماعهما على ارض مدينة ارزنكان حيث وقعت المصافة . وقد أشار الى هذا المعنى اشارة بليغة في رسالته المذكورة اذ قال : « وله الحمد ثانياً على ان ايده بعض ليس من اعضاده . وجمع له بين معونة الادنى على دنوه والبعيد على بعاذه . ولولا سعاداته المألوفة لما بذلت ارض الروم لارضه صفقة الوفاق . ولا اشتملت رجال هذه على رجال هذه اشتمال الجفون على الأحداق » . والكتاب الاخير كتبه الى الملك الاشرف جواباً عن كتاب ورد منه يخبر بهزيمة الخوارزمي . وبالطبع فان جميع هذه الرسائل كتبها ابن الاثير عن صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ .

ونود هنا ان نشير الى ما وقع فيه الاستاذ انيس المقدسي من خطأ مرده اختلال في اوراق المخطوطة لم يتنبه اليه .

ففي اوائل الصحيفة ٤٤ ذكر مما نصه : « يتلو هذا قطعة من كتاب غير مذكور اوله وهي : « الدماء به ممطرة . وأسفرت الشمس فيه والشمس فترددت حالتها ما بين ملتئمة ومسفرة ... » الى آخر النص الذي انتهى بعد منتصف الصحيفة المذكورة .

والصواب ان هذه القطعة هي تنمة للرسالة الواردة في الصحيفتين ٤٨ - ٤٩ والتي آخرها في الصحيفة ٤٩ : « ولقد ظلت الكماة به صائمة والمنايا مفطرة . وتمثل المعترك بحرّه مصيفاً وشأيب » .

وقد اثبت المقدسي كتاباً آخر في المعنى على الصحيفة ٤٧ . وكتب في آخره (الكتاب غير كامل في الاصل) . وآخر عبارة فيه : « ومكث على ذلك يتبع الاطماع في تشعب سبلها ويلحق الكلوم بالكلوم التي لاتؤسى الا بكلوم مثلها ونسي ان وراءه طالباً » .

(١) مفرج الكروب / ٤ - ٢٩٧ - ٣٠٠ .

(٢) انظرها في الصحائف من ٤٤ - ٦٠ من كتاب رسائل ابن الاثير : بتحقيق أنيس المقدسي

والصواب ان هذا الكتاب وصلنا كاملاً وتمتته في آخر الصحيفة ٤٩ والصحيفة ٥٠
وأول التتمة : « لا يحمل وترأ ولا يتأبط غمراً ولا يفترع الا مسعاة بكرأ .. » الى آخر
النص .

☆ ☆

كتب ابن الاثير رسائل الانتصار الست التي ألعنا اليها عام ٦٢٩ هـ وقد جاوز
السبعين . وكان قبل ذلك قد رزئ بفقد ولده النابغة الشرف محمد الذي اعتبط
شاباً . فقد ولد سنة ٥٨٥ هـ وتوفي في حياة ابيه سنة ٦٢٢ . وقد كان الشرف محمد
نبيهاً له النظم والنثر الحسن وصنف عدة تصانيف نافعة . قال ابن خلكان : رأيت له
مجموعاً جمعه للملك الاشرف وأحسن فيه . وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل
ابيه (١) . ومن تصانيفه كتاب « الانوار في نعت الفواكه والثمار » قال الصفدي في
تاريخه : « هو عندي بخطه » . وكتاب « روضة النديم » وكتاب « غرة الصباح في
أوصاف الاصطباح (٢) » .

وقد توصلنا الى كشف حقيقة ادبية وهي ان ضياء الدين بن الاثير هو الذي
كتب مقدمة كتاب « غرة الصباح في أوصاف الاصطباح » الذي صنفه ابنه الشرف
محمد باسم الملك معز الدين ابي القاسم محمود بن سنجر شاه صاحب الجزيرة
العمرية سنة ٦١٠ هـ .

وقد ضاع الكتاب وبقيت لنا المقدمة ضمن رسائل ابن الاثير (٣) . وهي بالاضافة
الى بلاغتها تكشف عن منهج الكتاب ومحتواه . يقول : « وقد اودعت هذه الاوراق
الخفيفة قطعاً من اشعار الشعراء في الخمر وما وصفت به من طيب انفاسها . وتشعشع
كاسها . واختلاف الوانها واجناسها . وتقادم عهد عصرها وعصر غراسها . وما يلتئم
بذلك من لطافة ندمانها ومحاسن قيانها . ومساعفة مكانها وامكانها . وما يوصف
به سقاتها من هيف العطف وفتور الطرف وامشاق ألفت القدود . وانعطاف لامات
الاصداغ على نونات الخدود . والتشبه بالجواري في كل شيء الا في لبس المعاجر
وارتفاع النهود وما من قطعة من هذه الاشعار الا وهي مضمنة ذكر الصبوح الذي
هو خلاصة السرور والمبشر بانجلاء الظلماء واسفار النور حتى قال : ووسمته بغرة
الصباح في أوصاف الاصطباح ثم ختمته بمدائح نظمها في معاليه .

(١) وفيات الاعيات ٥ / ٢٩٧

(٢) انظر مقدمة محققى كتاب الجامع الكبير ص ٩ - ١٠

(٣) انظر رسائل ابن الاثير : نشرة المقدسي ص ٢٤٥ - ٢٤٨ .

وليس من شك ان وفاة ولده في سن مبكرة قد فُتت في عضده . وحدثت في قلبه جرحاً نغاراً ظل ينزف دماً حتى مماته .

كان مرّ السنين يترك بصماته على جسم ابن الاثير . ومن هذه البصمات مأحوجه الى عصا يتوكأ عليها وكانت الشيخوخة تثقل بكاهلها عليه . فنراه بعد السبعين يقول في رسالة كتبها الى أحد اخوانه الادباء (١) : « .. لم يتأخر كتابي عنه الا انه يمشي مشي مُرسله . او مشي قلمه ومقوله . وكلاهما قد استبدل من جمّاحه بالحران . ولربما تعدى شيب الرأس الى القلم واللسان . وقد قيل ان الشيب حلة من غير خلة . ومن يجاوز السبعين اشتكى من غير علة . وكفى بالصحة داءً لمن طالت مدة عمره . وبالراحة تعباً لمن لزم وكره فيقل عليه التردد الى وكره . وقد اصبحت وليس ليّ أرب في أرب . ولا اعدّ في نبع ولا غرب . وكل احوالي قد آلت من عجب الى عجب . فالعصا في يدي ادمع بها قدمي . واهشّ بها على سنين كثيرة من عمري لاعلى غنمي . فهي لقوس ظهري وتر . ولبتدأ ضعفي خبر . واذا كان في القائها طمأنينة مقام ففي حملها انذار بسفر . وما اقول الا انها رجل ثالثة لكنها تثبط عن الانبعاث . وفي ضروب الحيوان مايمشي على اربع وليس فيها مايمشي على ثلاث . منها أنا لايمضي عليّ يوم ولا ليلة الا والروح تتردد من جسدي في منازل ادراس . وعهدي به لا يؤثر فيه مرور الاعوام . فاصبح وهو يؤثر فيه مرور الانفاس ... »

كانت اعوام الشيخوخة ثقيلة عليه . وكان يقتل مرارتها بأمرين : الاقتيات بذكرات ايام الشباب . والأنس برسائل الاخوان وللأصحاب .

فأما الامر الاول فقد قال عنه : « اني لأخلو من تذكر ايام الشباب التي كانت في فرصها مقانص حباله . وفي مواسمها فلتات جهل . ولا عيش الا ماحببتك به الجهالة . فأوطار ايامه المحموده لاتزال تجاهي . وكيف أنساه وهو الذي كنت اعده عند الغائيات من أوجه جاهي . ويكفيه فضلاً ان الاوطان لم تكن محبوبة إلا لأن اوطاره تُقضى في أكنافها . ولولا ذلك لكانت كغيرها من بقاع الارض في مرتبها ومصطافها . فلا لوم اذاً على غرام المعرم به ولا وجد الواجد . وليست الحياة والشباب الا من الأسماء المترادفة التي تدلّ على معنى واحد . ولقد صدق القائل في قوله :

ماكنت او في شبابي كنه غرته حتى مضى فاذا الدنيا له تبع . »

وأما الامر الثاني فقد قال عنه : « ... وملاكها كله في المواصلة بكل كتاب يعرب عن أخبارها . ويجدد من آثارها . وقد عودني سيدنا من ذلك ماتقّر به

(١) رسائل ابن الاثير : نشرة القدسي ص ١٢٢ - ١٢٤ .

عيني ، ويحول بين خواطر الهم وبينني . وأنا بتلك العادة اتعلل ، واياها اتعجل ، ولورود عليّ اتزمل ، وكلما تطول بها طلت فخرأ فأنا اطول وهو يتطول . وكتابه الوارد الآن عندي يد أشكرها واسطرها ، واعترف بها ولا أكفرها . وذلك انه أتاني في غمار وعكة فقذف بي الى ساحلها ، وجعل عاجلاً ماكنت ارجوه من آجلها . ولا يبعد له ذلك وفي يده القلم الذي يُجنى من كلمة مايجنيه النحل من اطييب الغراس ، وكما ان في ذلك شفاء للناس . ففي هذا شفاء للناس ، ولا فرق بينهما سوى ان النحل تأوي الى شعب الجبال والقلم يأوي الى صفحة القرطاس . وقد كان لكتبه مزايا كثيرة لا يحد لها أحد شيباً ولا ضريباً ، وقد زيد فيها مزية أخرى وهي أن منها مايدعى طبيباً » .

الاقتيات بذكريات الشباب ، ودفع الهم برسائل الاخوان والاضحاب كانا مدار حياة ابن الاثير في سنه الاخيرة .
وهناك الرسائل التي كان يحررها عن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ويحملها الى ديوان الخلافة ببغداد .

وكان آخرها رسالة حملها سنة سبع وثلاثين وستمائة ، فمرض وتوفي يوم الاثنين التاسع والعشرين من ربيع الآخر من السنة المذكورة . قاله ابن النجار في تاريخ بغداد . وقد ضلّي عليه من الغد بجوامع القصر ، في بغداد ودفن بمقابر قريش في الجانب الغربي بمشهد موسى بن جعفر رضي الله عنهما (١) .
وقال ابن المستوفي في تاريخ اربل توفي في احدى الجماديين سنة سبع وثلاثين وستمائة (٢) .

وقال ابن واصل : توفي على ما بلغني في سنة تسع وثلاثين وستمائة (٣) .
وقول ابن النجار هو الاصوب .

✱ ✱

كثيرة هي الاوهام التي وقع فيها اعلام ترجموا لنصر الله بن الأثير
وسنصرف النظر عن أوهام المغمورين وتقف عند أوهام المشهورين فقط .

(١) وفيات الاعيان ٣٩٦ / ٥ والحوادث الجامعة ١٣٦ وذيل مرآة الزمان ١ / ٦٥ والعبر ٥ / ١٥٦ والنجوم الزاهرة

٦ / ٣١٨ وبغية الوعاة ٢ / ٣١٥ والشذرات ٥ / ١٨٧ - ١٨٨ وتكملة اكمال الاكمال ٤ - ٦ والعسجد المسوك

٤٩٦ ودول الاسلام ٢ / ١٠٩

(٢) الوفيات ٥ / ٣٩٦ .

(٣) مفرج الكروب ٤ / ١٩٨ .

قال كارل بروكلمان في ترجمة ضياء الدين ابن الاثير ما ترجمته نص :
« وقد هرب وزيره من وجه اهالي دمشق بعد أن هددوه بالقتل وتوجه إلى مصر . وعندما استولى الملك العادل اخو صلاح الدين بعد وفاة العزيز سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م على مصر التي كان قد احتلها الملك الافضل لوقت قصير - اضطر ابن الاثير الى الاختفاء بعض الوقت . وعندما استقر الملك الافضل بسميساط معتمداً من ركن الدولة سليمان الثاني السلجوقي . ذهب اليه ابن الاثير ... »
وفي هذا الكلام بمجموعة أوهام صوابها :

١ - عندما هرب وزير الافضل (ابن الاثير) من وجه أهالي دمشق توجه الى الموصل لا الى مصر .

٢ - ان الملك العزيز توفي سنة ٥٩٥ هـ وليس سنة ٥٩٢ هـ .

٣ - عندما هرب ابن الاثير من مصر بعد احتلال العادل لها ، التحق بالافضل في صرخد ، وظل في خدمته هناك منشئاً عديداً من الرسائل مستنقراً القوى لمعركة جديدة ضد العادل . تجسدت في حصار دمشق الذي قاده الملكان الافضل والظاهر . وظل ابن الاثير في معية الافضل خلال فترة الحصار وبعد الصلح الواقع الواقع في صفر سنة ٥٩٨ هـ . ثم رافقه في طريق رحلته الى الشمال حتى دخل سميساط واستقر بها .

فقول بروكلمان ان ابن الاثير اختفى بعد سقوط مصر بيد العادل . ولم يظهر إلا بعد استقرار الافضل في سميساط . قول غير علمي .

وقال جرجي زيدان في ترجمة صاحبنا مانصه (٢) : « ثم وزر لابنه الملك الافضل . ولما ذهبت دمشق من حوزته وذهب الى صرخد . فر ضياء الدين الى مصر . ثم سار في خدمة الملك الظاهر غازي الى حلب . وسافر الى الموصل فاربل فسنجار وعاد الى الموصل وتعين سنة ٦١٨ منشئاً في خدمة ناصر الدين محمود صاحب الموصل .. » .

والصواب : انه حين ذهبت دمشق من حوزة الافضل وذهب الى صرخد فر ضياء الدين الى الموصل وكان ذلك سنة ٥٩٢ هـ . أما خدمته للظاهر فكانت في سنة ٦٠٧ هـ ولمدة قصيرة جداً وقد اختزل جرجي زيدان الفترة بين عامي ٥٩٢ - ٦٠٧ هـ ولم يشر اليها فاختلفت بذلك ترجمته .

(١) تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان (الترجمة العربية) ٥ / ٢٧٢

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ٣ / ٥٤

وقال الدكتور مصطفى جواد (١) : « وخرج الملك الافضل نور الدين علي بن صلاح الدين من مصر ولم يخرج نصر الله بن الاثير في خدمته لانه خاف على نفسه من جماعة كانوا يريدون الفتك به ، فخرج منها مستتراً .. وغاب عن مخدومه الافضل برهة قصيرة ولما استقر الافضل في سميساط عاد نصر الله الى خدمته واقام عنده مدة » .

ومضمون هذا الكلام ان ابن الاثير فارق الافضل عند سقوط مصر في يد العادل في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ وعاد الى خدمته في سميساط في ربيع الاول سنة ٥٩٨ هـ . وهو وهم سبق ان فندناه في ردنا على بروكلمان ، فلا حاجة للتكرار . ولقد اضطرب القول في ابن الاثير بين قادح ومادح ، وحامد وحاسد ، شأوه في هذا شأو كل المشهورين في التأريخ الذين زجوا انفسهم في أتون السياسة . فهو بحكم استيزاره للافضل قد اكتوى بنااره ، وانعكس هذا على موقف واحد من شعراء دمشق هو فتیان الشاغوري ، الذي كان من مداح الافضل وله فيه القصائد الطوال ، ولكن حين آلت دمشق للملك العادل وابنه الكامل وتعرضت للحصار من قبل الافضل - بعد سنوات من اقصائه - رأينا الشاغوري يغضب لقطع جيوش الافضل الماء عن دمشق فيقول (٢) :

جاءوا بجيشهم لقطع مياهنا مثل الأتبي أتت به الانواء
لما طعنا بالرماح صدورهم وأوا ظهورهم فجاء الماء

هم ولوا الأدبار اذ كتبهم (م) البيض الذكور وهاجت الهيجاء
وقال يهجو الجيش المحاصر لمدينته (٣)
إن غابت الشمس عنهم وهم لم يدخلوا في عشية البلدا
فأتل عليهم انباء ماجاء في الكهف . ولن يفلحوا اذن ابدا

وقال نال صاحبنا رذاذاً من هجو الشاغوري حين قال يهجوه (٤) :

متى أرى وزيركم وما له من وزر
يقلع الله فذا أو أن قلع الجزر

(١) مقدمة الجامع الكبير ص ٢٧

(٢) ديوان فتیان الشاغوري ص ٥ - ٦

(٣) ديوان الشاغوري ص ١٢٤

(٤) ديوان الشاغوري ص ٢٠٣

ويغلب على الظن انه كتب هذين البيتين وضياء الدين الجزري في دست الوزارة

آثاره :

اولاً : الآثار المطبوعة :

١ - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر :

هذا الكتاب من أمهات الكتب المصنفة في البلاغة العربية . وهو من اسباب شهرة ضياء الدين بن الاثير . وقد تصدى لنقده ابن أبي الحديد في كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » المطبوع في ذيل طبعة الدكتورين طبانة والحوفي . وانتصر لابن الاثير محمود بن الحسين الركبي السنجاري ووصف كتاباً سماه « نشر المثل السائر وطبي الفلك الدائر » .

كما انتصر له ايضاً عبد العزيز بن عيسى بكتاب سماه « قطع الداير عن الفلك الدائر » . ولا نعرف مصير هذين الكتابين .

ووقف خليل بن ايبك الصفدي في صف خصوم ابن الاثير فصنف كتابه المعروف « نصره الثائر على المثل السائر » وقد وصلنا وطبع بتحقيق محمد علي سلطاني . ولقد طبع المثل السائر طبعات عدة أجودها طبعة الدكتورين احمد الحوفي وبدوي طبانة . وهي في اربعة اجزاء (القاهرة - مطبعة النهضة مصر ١٩٥٩ - ١٩٦٢) .

٢ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور :

نشرة المجمع العلمي العراقي عام ١٩٥٦ م - ١٣٧٥ هـ بتحقيق الدكتورين مصطفى جواد وجميل سعيد . وهو في انواع علم البيان . وقد اعتمد المحققان فيه على مخطوطة دار الكتب المصرية المرقمة ٢٧٠ بلاغة . وهي كثيرة التصحيف وفاتهما الوقوف على نسخة مكتبة (خدا بخش بتنه فوهي) فهي تعود للقرن السابع الهجري وخطها نفيس مشكول .

٣ - الوشي المرقوم في حل المنظوم :

طبع هذا الكتاب طبعة غير علمية في بيروت بمطبعة « ثمرات الفنون » عام ١٢٩٨ هـ . ورغم مرور قرن وزيادة على هذه الطبعة وتعدد مخطوطات هذا الكتاب فلم يطبع طبعة اخرى .

وقد علمنا ان الدكتور جميل سعيد قد حققه ودفعه الى مطبعة المجمع العلمي العراقي ويتوقع صدوره قريباً

٤ - رسائل ابن الاثير : سماها ابن خلكان ٥ / ٣٩٢ « ديوان ترسل » وانه في عدة مجلدات والمختار منه في مجلد واحد . وقد نشر الاستاذ انيس المقدسي في بيروت سنة ١٩٥٩ مجموعة من رسائله ضمت مئة وتسعاً وستين رسالة . واعتمد في نشرها على مخطوطة مؤرخة في سنة ٦٥٥ هـ محفوظة في مكتبة احمد الثالث بالاسنانة تحت رقم ٣٦٣٠ . وجدير بالذكر انه ليس بين هذه المجموعة من رسائل ابن الاثير وبين المجموعة التي ننشرها اليوم أي اشتراك أو تكرار في الرسائل أو في المضمون . والراجح عندنا ان مانشره المقدسي ومانشره نحن اليوم اجزاء من ديوان ترسله الذي اشار اليه ابن خلكان أو اجزاء من « المختار من رسائله » والله العالم .

٥ - الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان :

حققه الدكتور حفني محمد شرف . وطبع بمطبعة الرسالة في القاهرة سنة ١٩٥٨ . وابن الدهان كان قد ألف رسالة في بيان مأخذ المتنبي من ابي تمام سماها « المآخذ الكنوية من المعاني الطائية » وكان لغويًا نحوياً لاصلاً له بنقد الشعر . فرد عليه ابن الاثير بكتابه هذا الذي تضمن مؤاخذاته لابن الدهان . واستدراكه على مافات ابن الدهان من مأخذ المتنبي .

٦ - مناظرة بين الخريف والربيع : منها قطعة حفظها النويري في نهاية الادب ١ / ١٧٥ - ١٧٦ .

آثاره المخطوطة :

١ - كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاتب .
منه مخطوطة في خزانة المرحوم محمد سرور الصبان بمكة المكرمة . وقد صورها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .
ومنه نسخة اخرى سقطت منها ورقة العنوان . فسجلت باسم « البديع » محفوظة بدار الكتب المصرية .

٢ - البرهان في علم البيان : ذكر بروكلمان ان منه مخطوطة في برلين برقم ٧٢٤٨ . وذكره البغدادي في هدية العارفين ٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣ .

٢ - المفتاح المنشأ في حديقة الانشا :

كُرسه للحديث عن صناعة الكتابة . منه مخطوطة بمكتبه بلدية الاسكندرية
واخرى بدار الكتب المصرية برقم القاهرة ثان ٣ / ٣٦٦ (وهي نسخة مصورة رقم
٥٠٧٠ أدب) .

٤ - مؤنس الوحدة : مجموع من الاشعار صنعها صلاح الدين بن تنكر .

وانتقى فيه مختارات لشعراء من العصر العباسي ، ورتبه حسب الاغراض
الشعرية . منه نسخة فريدة في كوبريللي بالاستانة برقم ١٤٠٠ وعنها مصورة بدار
الكتب المصرية (القاهرة ثان ٣ / ٣٢٢) .

٥ - رسالة الازهار :

ومنها مخطوطات في المتحف البريطاني وفي جامعة كمبردج وفي باريس ومكتبة
الدحاح وفي اسعد افندي بالاستانة ضمن بعض المجاميع الادبية .

وكان الدكتور عبد الهادي محبوبة قد اعلن في نشرة اخبار التراث العربي (التي
كان يصدرها معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية) بتاريخ ١ / ٣ / ١٩٧٣ انه
يعني بنشرها وتحقيقها . الا ان شيئاً من ذلك لم يصدر حتى اليوم .

آثاره المفقودة .

١ - المعاني المخترعة في صناعة الانشاء : سماه ابن واصل في مفرج الكروب
(٣ / ١٠) المعاني المتدعة . وبالغنوان الاول ذكره ابن خلكان في الوفيات ٥ / ٣٩٢
وقال عنه : هو نهاية في بابه .
وذكره البغدادي في هدية العارفين ٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣

٢ - مجموع اختار فيه شعراء أبي تمام والبحثري وديك الجن
والمتنبي :

ذكره ابن خلكان في الوفيات ٥ / ٣٩٢ ووصفه بانه في مجلد واحد كبير .
وحفظه مفيد ، وقال ابو البركات ابن المستوفي في « تاريخ اربل » نقلت من خطه
الى آخر هذا الكتاب المختار مامثاله :

تمتع به علقاً نفيساً فانه اخ
تيار بصير بالامور حكيم
أطاعته انواع البلاغة فاهتدى
الى الشعر من نهج اليه قويم

٢ - الادعية المائة :

ذكره في كتابه « المثل السائر » اذ قال :
« وكنت ألفت كتاباً في ذكر ادعية مخصوصة . ضمنته مائة دعاء ، مما توضع في الكتب السلطانيات والاخوانيات ، وضمنت على نفسي ان اودع كل دعاء منها معنى آية من القرآن ، أو خبراً من الاخبار النبوية . أو معنى بيت سائر » .

٤ - المجرد من الاخبار النبوية :

ذكره في « المثل السائر » ١ / ١٩١ حين قال :
« وكنت جرّدتُ من الاخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر . كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أوأظب مطالعته مدة تزيد على عشر سنين ، فكنتُ أنهي مطالعته في كل اسبوع مرة . حتى دار على ناظري وخطاري مايزيد على خمسمائة مرة ، وصار محفوظاً لايشدُ عني منه شيءٌ . وهذا الذي اورده هاهنا في حل معاني الاخبار هو من هناك .

٥ - المجرد من امثال الميداني :

ذكره في المثل السائر ١ / ٦١ حين قال :
« وكنت جرّدتُ من كتاب الامثال للميداني أوراقاً خفيفة تشتمل على الحسن من الامثال الذي يدخل في باب الاستعمال » .

٦ - عمود المعاني :

ذكره ابن الاثير في كتابه الاستدراك ص ١١ - ١٢ . فقال :
« وقد الفت في ذلك - جريان الحكم في اعمدة المعاني وما يخرج من شعبها - كتاباً . وسميته « عمود المعاني » وجعلته مقصوراً على ضروب المعاني الموجودة في النظم والنثر ، وما فيها من الاعمدة المطروقة . وهذا كتاب تعبتُ في تأليفه زمناً طويلاً ، وأنا ضنين به » .
وتقول بعد هذا : ان الخسارة بفقدان هذا الكتاب جسيمة وبالغة .

٧ - السرقات الشعرية :

ذكره ابن الأثير في « المثل السائر » ٣ / ٢٢٢ اذ قال :
« واعلم ان علماء البيان قد تكلموا في السرقات الشعرية فاكثروا ، وكنت ألفت فيها كتاباً وقسمته ثلاثة اقسام : نسخاً وسلخاً ومسخاً ... » .

٨ - رسالة في اوصاف مصر : ذكرها ابن خلكان في الوفيات ٥ / ٣٩٥ .
وذكرها البغدادي في هدية العارفين ٢ / ٤٦٢ - ٤٩٣

٩ - رسالة في الضاد والظاء :

ذكرها البغدادي في هدية العارفين ٢ / ٤٩٢ - ٤٩٣

على ان مانذكره اليوم في حقل المفقودات قد يظفر به باحث في مستقبل الايام ، فيضيء شمعة جديدة في محراب ابن الاثير الخالد .
تصويب أوهام : ولقد اخطأ جلة من الكتاب المعاصرين في آثار ضياء الدين بن الاثير فنسوا اليه ما ليس له . من ذلك خطأ وقع فيه الدكتوران مصطفى جواد وجميل سعيد اذ عدا كتاب « المرصع في الادبيات » المطبوع في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ هـ وفي المانيا سنة ١٨٩٦ من مصنفاته (١) كما وقع في الخطأ ذاته الدكتور عمر فروخ (٢) .

والصواب : ان هذا الكتاب من مصنفات اخيه ابي السعادات مجد الدين المبارك بن الاثير . وقد طبعه أولاً المستشرق الالماني سيولد في ويمار سنة ١٨٩٦ . وأعاد تحقيقه ونشره الدكتور ابراهيم السامرائي في بغداد عام ١٩٧١ .

ومن ذلك كتاب « كنز البلاغة » الذي نسبه اليه عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين (٣) . والصواب ان هذا الكتاب كما ذكر السبكي هو لعلماد الدين بن الاثير الحلبي ومن ذلك الوهم الكبير الذي وقع فيه الدكتور محمود ياسين أحمد (٤) حين خلط بين الشرف محمد وبين ابيه نصر الله بن محمد ، فنسب لضياء الدين بن الاثير كتاب ابيه الشرف محمد ، وهو المجموع الذي جمعه للملك الاشرف وذكر فيه جملة من نظمه ونثره ورسائل ابيه . ونص عبارة الدكتور محمود ياسين : « وقدم له محمد بن محمد بن عبد الكريم ضياء الدين ابن الاثير (ت ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م) جملة من نظمه ونثره ورسائل ابيه وجعلها على شكل كتاب » .

والخلط في هذا الكلام متعدد الجوانب . فالشرف محمد ، اسمه محمد بن نصر الله بن محمد ووفاته كانت سنة ٦٢٢ هـ . والمجموع الذي اهدي للملك الاشرف صنّفه الشرف محمد وليس ضياء الدين بن الاثير .

(١) الجامع الكبير ص ٣٦ (المقدمة) .

(٢) تاريخ الادب العربي ٣ / ٥٤١

(٣) معجم المؤلفين ج ١٣ ص ٩٨

(٤) الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ص ٤١٥

وذكر الاستاذ محمد بن عبدالله الحمدان لابن الاثير كتابين احدهما بعنوان
«بديع» والآخر باسم «كفاية الطالب في نقد كلام الشاعر والكاآب» .
والصواب انهما مخطوطتان لكتاب واحد .

كما ذكر الدكتور محمد زغلول سلام (١) كتاباً لابن الاثير فيه منتخبات من
الاحاديث وهذا الكتاب هو نفسه كتاب «الآخبار النبوية» الذي أشار اليه ابن
الاثير في المثل السائر وفي الوشي المرقوم .

كما نُسب له مخطوط بعنوان «القول الفائق الاديب يعقبى وليد وذكرى
حبيب» . وهذا الكتاب ليس له لان مصنفه متقدم فهو ينقل عن رجال من القرن
الثالث واول الرابع الهجريين (٢) .

وبعد : فهذه الآثار القلمية الكثيرة التي ابدعها ضياء الدين ابن الاثير . ماذا
كان صداها عند قدامى مؤرخي الاديب ؟ وماهي المكانة الفكرية التي تبوأها
مبدعها ؟

هذا ماتترك الجواب عليه للمؤرخين انفسهم .

وصفه محمد بن سالم بن واصل (المتوفى سنة ٦٩٧ هـ) بقوله : « وكان فاضلاً
بالادب وعلم البديع . ومن تصانيفه « المثل السائر » المشهور . وله الترسل البليغ
البديع » (٣) .

ووصفه مؤرخ الاسلام الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ) بانه « الكاتب البليغ
صاحب المثل السائر . انتهت اليه رياسة الانشاء والترسل » (٤) .

ووصفه الملك الاشرف الغساني بانه « الكاتب البليغ صاحب كتاب المثل السائر
في ادب الكاتب والشاعر . وكان بارعاً في فنون الاديب كاتباً بليغاً . وصدراً نبيلاً
عالماً متفنناً في علم الكتابة مصدراً على الانشاء وكتابة الرسائل في المعاني المخترعة
واليه انتهى علم الكتابة في زمانه . وبه ختم فن البلاغة . وله عدة تصانيف حسنة
مفيدة . وله رسائل مدونة . وكان قليل النظم » (٥) .

ووصفه محمد بن علي المحمودي المعروف بابن الصابوني (المتوفى سنة ٦٨٠ هـ)
بانه « كان فريد دهره . ووجيه عصره في صناعة الكتابة والانشاء . وله التصانيف

(١) ضياء الدين بن الاثير وجهوده في النقد ص ٦٨

(٢) بنو الاثير الفرسان الثلاثة ص ١٥٦

(٣) مفرج الكروب في آخبار بني ايوب ٤ / ١٩٨ .

(٤) العبر في خبر من غير ٥ / ١٥٦

٥ : تعجد المسبوك ص ٤٩٦ .

البديعة . والرسائل الصنيعة . خُتم به هذا الشأن . وسار ذكره في جميع الاقطار والبلدان .. « (١) .

ووصفه ابن خلكان (المتوفى سنة ٦٨١ هـ) بقوله : « ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله وتحقيق نبله . كتابه الذي سماه « المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر » . وهو في مجلدين . جمع فيه فأوعب . ولم يترك شيئاً يتعلق بفن الكتابة الا ذكره .. . حتى قال : وله ايضاً ديوان ترسل في عدة مجلدات وله كل معنى مليح في الترسل ... ومحاسنه كثيرة .. « (٢) وذكره ابو البركات ابن المستوفي في « تاريخ اربل » وبالغ في الثناء عليه (٣) .
ووصفه مصنف الحوادث الجامعة بانه : « كان كاتباً عالماً فاضلاً متفنناً في علم الكتابة مقتدرأ على الانشاء » (٤) .

وقال عنه قطب الدين موسى بن محمد اليونيني (المتوفى سنة ٧٢٦ هـ) :
« صنف التصانيف الدالة على غزارة علمه وفضله منها المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر جمع فيه فاعوب . فلما فرغ من تأليفه كتبه الناس عنه ... حتى قال : كان له تصانيف كثيرة وتوايف حسنة وترسل كثير أجاد فيه » (٥) . ونعته ياقوت الجموي بانه امام (٦) .

ولعل فيما تقدم ما يكشف ويشف عن المكانة العلمية والادبية الرفيعة التي تبوأها ابن الاثير في زمنه . بعد ان اجمع مؤرخوه على ان علم الكتابة قد انتهى اليه في زمنه . وان به خُتم فن البلاغة .

حديث عن المخطوطة :

مخطوطة هذه الرسائل التي نشرها اليوم اول مرة . غفل من اسمها واسم مؤلفها . وغفل من تاريخ نسخها واسم ناسخها .
أصلها الفريد محفوظة في مكتبة نور عثمانية باستانبول وعليه رقمان . رقم قديم هو ٣٧٤٥ ورقم حديث هو ٣٢٢٤ .

والمخطوطة من موقوفات السلطان عثمان خان بن السلطان مصطفى خان .

(١) تكملة اكمال الاكمال ص ٤ - ٥

(٢) وفيات الاعيان / ٥ . ٣٩١ . ٣٩٢ . ٣٩٦ .

(٣) ترجمته مفقودة من تاريخ اربل . والعبارة نقلتها عن وفيات الاحيان / ٥ ٣٩٦

(٤) الحوادث الجامعة ص ١٣٦ .

(٥) ذبل مرآة الزمان / ١ ٦٤ - ٦٥

(٦) معجم البلدان (مادة جزيرة ابن عمر)

ولتمرسنا بأسلوب ضياء الدين ابن الاثير في رسائله ، فقد جزمنا في القراءة الأولى بأنها منها - رغم خلوّ المخطوط من اسم مصنفه - .

غير ان هذا الجزم كان - من الناحية العلمية - بحاجة الى الاثبات .
ومن ادلة الاثبات هذه نكتفي بالآتي :

١ - ان استقراء مناسبات هذه الرسائل يرسم لنا صورة للحياة السياسية والادبية التي عاشها ضياء الدين ابن الاثير ، وهي صورة لا تختلط بغيرها من حيث الشخوص والاحداث وتقطع بنسبة هذه الرسائل اليه .

٢ - قال ابن خلكان في ترجمة ضياء الدين ابن الاثير في وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣٩١ مامثاله : « وله في كيفية خروجه مستخفياً رسالة طويلة ، شرح فيها حاله ، وهي موجودة في ديوان رسائله » .

قلنا : ان هذه الرسالة موجودة في كتابنا هذا تحت رقم (٢٨) ، وهي من اوثق الادلة على ان مانشره اليوم هو جزء من ديوان رسائله .

٣ - وما يعزز نسبة هذه الرسائل لضياء الدين بن الاثير ، الرسالة المرقمة (٣٩) ، وقد صدرها بقوله : « كتاب كتبه في المعنى الى أخيه الأكبر مجد الدين أبقاه الله تعالى » .

فمعلوم ان الحدث الكبير مجد الدين المبارك هو الأخ الأكبر لضياء الدين ابن الاثير .

٤ - ومن الادلة القاطعة ان نقول من هذه الرسائل قد اثبتتها ابن الاثير في بعض مصنفاته ونسبها لنفسه صراحة فمن ذلك : القطعة التالية الواردة في الرسالة رقم ٥٦ ونصّها :

« ولكنها الايام التي تبدي لنا من جوهرها كل غريبة ، وتسوسنا سياسة العبد المجدع الذي كأن رأسه زبيبة ، وليس للمرء فيما يلقاه من احداثها نعمى كانت او بؤسى ، الا ان يكمل الامور الى وليها فيقول : حاج آدم موسى » .

فهذه القطعة اوردها ابن الاثير في المثل السائر ١ / ١٩٦ منسوبة لنفسه وصدرها بقوله : « ومن ذلك ما ذكرته في جملة كتاب آدم فيه الزمان ، فقلت : « ولكنها الايام تبدي لنا من جوهرها كل غريبة وتسوسنا سياسة العبد المجدع الذي كأن رأسه زبيبة ، وليس للمرء فيما يلقاه من احداثها نعمى كانت او بؤسى ، الا ان يكمل الامور الى وليها فيقول حاج آدم موسى » .

٥ - ان المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات قد اثبت في تاريخه (الجزء الثاني من المجلد الرابع ص ١٧٤ - ١٧٥) قطعة من رسالة كتبها ضياء الدين بن الاثير الى بعض اخوانه هذا نصها :

« ثم أقمنا بعد ذلك في حصار دمشق ، في خروب قائمة وغرامات لازمة . حتى استنفدت قوى النفس والاجسام ، ولم نحظ منها الا بطول المقام . وسرنا عنها الى الديار المصرية والعساكر برمتها والمهابة باقية على حرمتها . وتركنا من بها في نادي الضعف مغضوض الطرف لا يخشى منه عادية بعد استحصاره ولا يرجى له خروج من وراء جداره فوثب على ضلعه ، وتبعنا على قلة تبعه . فصادف العسكر قد تفرق في بلاده ، والمملك قد أمكن من قياده ، فأقدم وما تردد ، وفوق سهم كيده فسدد . ولقد ركب خطراً لا يسلم راكبه ، وان سلم لم يسلم له مطالبه ، الا انه تهيأ له من صنع القدر ، مالم يكن في وسع البشر ، فوافاه الزمان مبادراً ، وكان محصوراً فأصبح حاصراً » .

وهذه القطعة على ما بها من تصحيف وتحريف - هي بعض من الرسالة المرقمة ٣٨ من كتابنا هذا . وقد اثبتها المؤرخ ابن واصل في مفرج الكروب (٣ / ١١٢) منسوبة لابن الاثير

٦ - اورد ابن الاثير في المثل السائر (١ / ٣٦٧) قطعة من رسالة كتبها للملك الافضل يهنيه بملك مصر ، وهذا نصها : « ومن ذلك ما كتبت في صدر كتاب الى الملك الافضل علي بن يوسف اهنيه بملك مصر في سنة خمس وتسعين وخمسائة ، فقلت : الملوك يهنيء مولانا بنعمة الله المؤذنة باستخلاصه واحتبائه ، وتمكينه حتى بلغ أشده ، واستخرج كنز آبائه ، ولو أنصف لهناً الارض منه بوابلها ، والامة بكافلها ، وخصوصاً أرض مصر التي خُصت بشرف سكناه ، وغدت بين بحرین من فيض البحر وفيض يمناه » .

وهذه القطعة هي جزء من الرسالة رقم ١٩ من كتابنا هذا . وهذه في الادلة مجموعها تقطع كل شك وترد كل شبهة في صحة نسبة هذه الرسائل لضياء الدين بن الاثير .

وبعد : فعدة اوراق المخطوطة مائة ورقة بما في ذلك ورقة العنوان . ومعدل سطورها ١٥ سطراً في الصحيفة الواحدة ، وهي في أغلب الظن من مخطوطات القرن السابع الهجري ، كثيرة التصحيف والتحريف ، عانينا في تقويمها الكثير . كما عتور المخطوطة خلل في ترتيب الاوراق في مواضع عدة ، استطعنا بعد لأي التغلب عليه واصلاحه واعادة الاوراق الى مواضعها . لقد كانت من آفات هذه . المخطوطة الفريدة

تنقض تعاضل واهمال المنقوط في كثير من المواضع وأدى هذا الى اختلاط عدد من الحروف وابهامها فالباء والتاء والثاء والنون والياء كانت تختلط فيلتبس المعنى التباساً خطيراً . وكذلك الجيم والحاء والحاء . ومثلها السين والشين ومثلها ايضاً الصاد والضاد . فان اهمال النقط في مثل هذه الحروف او نقط غير المنقوط منها يضع المحقق في متاهات خطيرة .

اضافة الى هذا فقد كان الناسخ يكتب الياء كالألف المقصورة بدون نقط . ويكتب الألف المقصورة كالياء أي ينقطها . ولا يضع تقاطعاً على التاء المربوطة مما يجعلها تلتبس بالهاء . كان يرسم الهمزة المتطرفة بعد الألف بشكل مدة على الألف . كما يرسم الهمزة الوسطية ياء مثل : عايده والاويل . كما كانت هناك بياضات في بعض المواضع أشرنا اليها والى مقاديرها في نشرتنا هذه .

ولقد اعتمدنا في تحقيق هذا النص . القواعد التي جرينا عليها في تحقيقاتنا السابقة . والمؤتلفة مع قواعد تحقيق النصوص التي وضعتها لجنة « وضع قواعد تحقيق التراث » المنعقدة ببغداد في ايار ١٩٨٠ بأشراف واختيار جامعة الدول العربية . ولقد واجهتنا في تحقيق هذا النص مشاكل عدة . من بينها ذلك العدد الضخم من الاشعار غير المنسوبة . فاستطعنا بعد جولة واسعة عبر ديوان الشعر العربي - رد معظم الاشعار الى اصحابها وعزوها اليهم .

واذا كان لأحد فضلٌ علينا في هذا الكتاب . فهو فضل الصديق الكريم الاستاذ اكرم عثمان يوسف التي تفضل مشكوراً فاهدانا فلماً مصغراً لمخطوطة الكتاب الفريدة . فأسدى لنا ولابن الاثير وللنشر العربي يداً تذكر فتشكر . فنحن نتوجه اليه بالشكر الجزيل على هذه المكرمة الجليلة . سائلين المولى ان يزين شبابنا بمثل هذه الروح العلمية الرفيعة .

مسك الختام

لم تعد الاحكام النقدية التي قُوم من خلالها الأدب العربي صادقة في التعبير عن الحقيقة التي كان عليها الأدب او استخدمت في مجالها فنونه او عبرت عنها مضامينه . لأن كثيراً من تلك الأحكام قيلت ولم تستكمل الشروط التي تحقق صدق تلك الأحكام . فالفترات الادبية الممتدة ماتزال بعيدة عن التحليل والدراسة . والمخطوطات التي أرخت لتلك الفترات او احتفظت بالنصوص الادبية او التاريخية

او العلمية ماتزال ترقد فوق رفوف المكتبات ومحاولات الدراسة للكشف عن الفنون الأدبية التي عالجتها قليلة ولم تتعرض لها بشكل تفصيلي مما جعل الدراسات التقليدية تظل مسيطرة على الأحكام التي قيلت بشأن كثير من المسائل الأدبية . ومن الطبيعي ان تكون هذه الصورة غير معبرة عن الواقع الذي سجله الشعراء . أو سطره الكتاب . مادامت معايير النقد غير متكاملة وضوابط التحكيم غير مُقننة . لقد تعرض الأدب العربي الى دائرة ضيقة من الضوابط التي لاحقته وهو يقطع مرحلة طويلة . ويستغرق مسيرة غير مستقرة وبقيت الدراسات تدور في هذا النطاق على الرغم من طبع العشرات من الكتب والمئات من الدواوين التي برزت فيها تيارات جديدة . ووقف من خلالها الكتاب والشعراء على ظواهر لم تستكمل عند غيرهم . واتجهوا في محاولاتهم الى ابواب وفنون كانت ظلالتها شاحبة عند غيرهم . وواضحة القسما في معالجاتهم . ان نشر هذه الكتب ونشر غيرها من كتب التراجم وكتب التاريخ والموضوعات التي لها علاقة وثيقة بموضوعات الأدب اضافت عطاءً جديداً وأغنت التجارب بحقائق يمكن ان تعطي الدارسين وجوهاً أخرى للأدب العربي لتقرأ في ضوءها مفرداته قراءة تأمل . وتدرس قواعده دراسة استقراء . لأنه من غير المعقول ان تبقى الأحكام التي قيلت هي هي وفيض زاخر من التجارب يُرقد مسيرة "نطاء الثقافي والفكري . واعداد من الشعراء الذين لم تعرف تجاربهم تقدم الى القارئ والدارسين والباحثين .

وان هذه الحقيقة الثابتة التي لانشك فيها تملني علينا وعلى غيرنا من المعنيين بهذه الجوانب ان يتأملوا هذا الجانب . ويتريثوا في اطلاق الأحكام . ويقفوا على ماقدم من نصوص جديدة لتكون الاحكام معبرة فعلاً عن طبيعة العصر . ومنسجمة مع حقيقة الواقع الادبي والفكري الذي شارك في بنائه الرواد الاوائل . وسجلوا عبر تجاربهم حقائق كثيرة ظلت مطموسة . وكتاب رسائل ابن الاثير الذي وقفنا عليه هو اشارة واحدة من تلك الأشارات التي واكبت نهوضاً قومياً متميزاً . وعبرت عن حالة كانت الامة تتقف فيها موقف التحدي وهي تردّ عدواناً عليها . وتوقف زحفاً حاول ان ينتزع منها بقعة من بقاعها العزيرة لقدسيته ومنزلتها في قلوب العرب والمسلمين . وهي مجموعة رسائل تؤرخ احداثاً عاصرها . ووقائع وقف عليها بنفسه . ومعارك عاش أيامها . ومن هنا كانت الرسائل وثائق . تضيف الى التاريخ صوراً جديدة . وتؤكد صدق ماورد فيها وتقف عند الدقائق التي لم يتطرق اليها المؤرخون وقد استعان بأسلوبه الشيق وطريقته الترسلية وقدرته البلاغية فكانت رسائله صفحة أخرى من صفحات البيان ومنمطاً من انماط الاساليب وهي طريقة

سادت عصره ، وعرف بها أهل زمانه وكثيراً ما كانت تدفعه الى الاغراب في الاستخدام والتكلف في الصياغة والتصنع في اختيار الالفاظ .

كذلك كانت رسائله تسجيلاً لحياته وتنقله ، ووجهاً من وجوه علاقاته بمعاصريه ممن عمل في معيهم او شغل وظائف كتابية في دواوينهم ولهذا كانت صلات هذه الرسائل بالاحداث التي تتعرض اليها الدولة قربية ، وتعبيرها عن رأي الدولة واضحاً ، ففي رسائل الحرب تتجلى نزعته الاسلامية وهو يرى جحافل المؤمنين تحقق نصرها على الفرنج بعد ان اعتمدت القوة ، واعدت نفسها لمواجهة الخصم . ويقرن بين هذا النصر ونصر عمورية الذي استدل عليه بشهب الرماح لبالسبعة الشهب استذكراً بابيات ابي تمام المشهورة (انظر الرسالة الثانية) وفي حديث الصفائح ومتون الصحائف (انظر الرسالة الرابعة) اذ يجعل لنصره مثل نصر المؤمنين في بدر بعد ان يجعل معركة التي خاضتها الامة في طرد الافرنج هي بدر الكبرى ، وهي محاولات استلها التاريخ واستيحاء وجوهه المشرفة ، لتترسخ في نفوس المقاتلين الهمم وتعيش في قلوبهم روح الانتصار ، وتتجسد في اندفاع قدرة الاجداد الذين خلدوا تلك الصفحات ، وحققوا تلك الانتصارات ، وقد حاول ان يستخدم الاسلوب الحربي في اختيار الالفاظ ، وكانت الرسائل دقيقة في مواعيد دخوله ارض الاعداء ، بعد ان قاد اليهم المنايا سوداً وحمرا ، والمؤمنون يقاتلون بعقيدة راسخة كما يحب الله بعد أن وثقوا بنصره ، فهو يقرب اليهم البعيد ، ويلين الحديد .

وعند حديثه عن بعض الفتوحات كان يشير الى الخطط المعدة ، واوضاع الجند ، والسلاح المستخدم ، وحفر الخنادق ، ويستدق في ذكرها حتى يميزها عن خنادق الآبار للاستقاء ، فهي كيبوت اليرابيع ، ثم يذكر اعمال النقايبين الذين يأخذون على عاتقهم انباط الاسوار (الرسالة الخامسة والاربعون) ورسائله في صياغتها ودلالاتها تمثل لوحات حربية ، ووثائق تاريخية تواكب مسيرة الملك الناصر صلاح الدين ، وهي تتحدث عن حصن (الكرك) مرة و (تل حطين) أخرى بعد أن خذل الله الفرنج ، وبعدها يتحدث عن (طبرية) و (عكا) (الرسالة الثانية والثالثة) وهو يعد انتصار صلاح الدين في هذه المعارك فتحاً جليلاً ودحره للفرنج في معركة حطين عيداً للنصر . وان محاولة استلها الاحداث التاريخية الكبيرة والحديث عن المعارك الحاسمة في التاريخ الاسلامي كان يدفعه الى الاستشهاد بالقرآن الكريم وتضمين بعض آياته وهو اسلوب آخر من اساليب هذه الرسائل ، وقد اصبح التضمين جزءاً من الرسائل في بعض الاحيان .

ان دقة الرسائل ، ومتابعة الاحداث كانت تتمثل في الوصف الشامل لاطراف الحرب ، والملاحظة في المواقف الحاسمة ، وخاصة عند اللقاء او الرصد او التيقظ . فالمقاتلون يراقبون العدد بتحفظ ويقتطع فما منهم الا من أسهر عينيه في ذات الله تذكيراً بالحديث النبوي الشريف (عينان لاتمسهما النار) ، والمقاتلون يستخدمون كل الاساليب لانزال الهزيمة بجيوش الاعداء ، فهم يوقدون النار لتخويله لان للنار سلطاناً عظيماً يضاف الى سلطان الحديد .

والمؤلف في كثير من الرسائل يشير الى استنهاض الهمم ، واستصراخ العزائم لاتقاذ البلاد ، وتخليص الأرض ، ويؤكد فيها ان الجهاد حق ، ولا يمكن ان يمنع الانسان عنه كسب ، وان اجره عظيم ، لاتحول دونه مشغلة ، وان الدعوة الى الوقوف بوجه المحتلين من المشركين دعوة مشروعة (الرسالة السادسة) ، ويحاول المؤلف ان يجد اوجه الشبه بين جيوش المؤمنين وهي تطرد الغزاة المشركين ، وبين المؤمنين الذين قاتلوا المشركين في عصر الرسالة ، فاذا كان الجيش بحاجة الى المال كان (جيش العسرة) وهو يريد ان يشد اسباب التواصل ، ويختزل حلقات التاريخ ، ويؤكد امتداد الشعور عند الامة في توحيد الغاية ، وكثيراً ماكان الكاتب يعقد المشابهات بين الخصوم مهما كانوا لانهم يلتقون في غاية واحدة هي استهداف الامة ، ومحاولة اسقاطها (الرسالة السادسة) ، ويحاول ان يعطي الجهاد بالمال اهميته الكبيرة ، لان الله سبحانه وتعالى تكفل باخلاف النفقة في سبيله ، وعوض المنفق بكثير الثواب عن قليله ، الى جانب الثواب الذي يناله الراغب فيه . ولم ينس وهو يتحدث عن هذه المهمات حديثه عن همومه الخاصة ومشاعره وهو يرى الشيب قد علاه وكلل لمته ، ويسلك في معالجته مسالك القدامى فهو يعتبر الشيب وقاراً ، ارضاءً لنفسه بعد أن أصبح حقيقة لاخلاص منها ، ويشير الى تحيل الناس في ستره بضروب الصبغة ، ولكنهم لم يجدوا في ذلك بُلغة . (الرسالة الثامنة) .

ويشير في الرسالة السابعة عشرة الى ماضعه الاسماعيليه سنة تسع وتسعين وخمسائة حيث اغتالوا الامير مجاهد الدين الذي عرف بغزواته الكثيرة للفرنج في ارض الشام وهي اشارة الى اهداف هذه الفرقة التي عرفت بعدائها للعناصر العربية ، وغلوها واستهدافها للرجال الذين جاهدوا الفرنجة ، ومقاومة هذه الفرقة للرجال الذين وضعوا انفسهم في تأييد النضال لتحرير بيت المقدس . ويؤكد ابن الاثير ان هذا المجاهد الذي غدر به اصحاب هذه الفرقة الضالة قد مات ميتة كانت له الجنة ثمناً ، وجوار الله فيها سكناً . فعاد حياً بعد مماته ، وعوض بنعيم الآخرة وكراماته . وقد ارتدى أثواب الرحمة .

ويمكن اعتبار رسائل ابن الاثير تاريخاً ادبياً متسلسلاً للاحداث التي مرّت بها الامّة وعاشها المؤلف لانه كان حريصاً على تثبيت تواريخها فالرسالة التاسعة عشرة كتبت سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ويشير فيها الى انتزاع دمشق سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ويؤرخ من خلالها الاحداث التي وقعت ، والاحداث التي كانت تصادفه وهو يقطع الطريق من دمشق الى الموصل ، وفيه وصف دقيق لمناهاته ، وما يلاقيه من احوال ، وكثيراً ما كان يضمنه اخبار فتح دمشق ، والطريقة التي تم بها الفتح فيذكر انها فتحت بسيف الكيد لاسيف القتال (الرسالة الثلاثون) ، وكان يقف في بعضها على الاثار والعجائب ، فيشير الى الاهرام ، ويصف ارتفاعها ، واسباب بنائها ، وذكر المقياس وما فيه من تقسيمات ، وتحدث عن خروج الناس الى المتنزهات والبرك ، وافتخارهم بحسن مناظرها ، ووصف مرابعها ، ففي رسائل لها قيمتها الاجتماعية والاقتصادية ، لانها تذكر احوال الناس ، وطريقة حياتهم ، واساليب تعاملهم ، والوان متعهم ففي وجه من وجوه التناول الذي يضيف الى اخبار العصر مادة جديدة ، ويقدم للباحثين اضافات في حقول المعارف التي عزت في تقصّيها المصادر ، وشخت في متابعتها المظان .

ان هذه المجموعة الفريدة من رسائل ضياء الدين بن الاثير ، وهي تضم عدداً ضخماً من الوثائق الديوانية المهمة ، تلقي أضواء جديدة على تاريخ الدولة الايوبية وتاريخ مصر والشام والجزيرة والموصل وما صاقبها في وقت من أخرج وادق الاوقات ، في تاريخها ، وهو الوقت الذي تعرضت فيه لغزوات الصليبيين القادمين من الغرب ، ولغزوات الخوارزميين والتتار القادمين من الشرق . حتى صح فيها قول القائل :

وسوى الروم خلف ظهرك رومٌ فعلى أيّ جانبك تميلُ
وأنا لندرجو ان تنفع هذه الرسائل الدارسين والمؤرخين ، والحمد لله رب العالمين ،
والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه اجمعين .

- المحققان -

NURUOSMANIYE KÜTÜPHANESİ	
Konu :	N. O.
Yeni :	3224
Eski Kayd f. o :	3745
Ticari No.	

۷۶۵



وقف بدرالدوراس ما في ذلك الخلاصة والعبارة
 السلكة ان السلكة او الارسا و صناعه ان السلكة
 مصححها ما على اصدده معمره للا و ما الالحا
 واحسا بذكره لمج العار و دودي الالحا
 و اما له اعني الحان التراسم
 المحسن با و ما الح من الحرس
 معمره

Mikrofilm Arşivi
 No. 380



والمال والولد فهو لا ما يغنيه عن الظهور والسند من تمام الانعام الموهوب ^{بالحسن}
 تعجيل الزيات تعجيل المطلوب فان سرعة العطاء عطاء بان والمطل لمبى العمل بزمن
 والا انما العالمية يزيد العفولة ^{للمستأجر}
 فصل من كتاب كتبه عن نفسه الي صفي الدين في بكر وزير الملك العادل الي بكر بن ارب
 عنايةً بشخص من اهل دمشق ليسعي له الي مخدومه في حاجة عرضت له
 من شيم الكرم الذين اوطاهم المجلس عقبه وارسل عنهم حجه ان يروا الخلة علي حفا، مكانها
 فيبدلو فيها من الطولعية فوق مكانها والمخادم حاجة تخف السعي فيها علي اللسان وتقل
 المنية بها في الميزان وهي كذا وكذا وقد فوض الي ابيه الكرم حل عقدتها واخرجها من عندتها
 وهي من زكاة الجاه التي هي كزكاة المال وهما تقام الاموال في انجائها مقام الانفال وذلك ان
 خاطب فيها قوعاً من جاسط من غير حجاب ولم يحصل بما خاطب به الاعلي بذل الخطاب
 ولم يصن المجلس عنها الا ذخراً لما هو اعظم منها فابا الفضل لان يكون لاهله واراد ان
 لا يكون الذي يورثه الا من جله وقد نادى كرمه معلناً بالثأر وبسط اليه يد الاتحاد
 فاخذ السير بها فقد طوقه باحسانه وطوق الحمامة ونشر عليه فضله نشر خال الغمامة ونقله
 من حرجة الابد ال الي درجته الاتباع واسترقه ورفق الامتنان اشرف من رة الابتياح
 والمجلس علي الخادم ايا ولا توازن هذه حبة ثقالها والاتباع اذي ثقالها وقد نبهت لها غير الخبا
 ومن الاقتضاً والسلم نمر الكتاب والحمد لله وصلى الله علي محمد وآله وسلم

وكان للملوك طالع باسم الملك الذي يخصه بدمشق وسأل اقراره
 في تقريره ومنع الايدي العاديه على حيفه فعاد الجواب بالوعد الذي
 هو مال حاصل واذا قال الكرم فوالفانه فاعل ولم نزل وعود مولانا
 كس مرته لم يتالف صحابها حتى اطل انبكا بها وباكوره ثمه لم يكن
 اقتضا فها حتى حان امرها ولا فرق بين حركة ^{لغة} بوعده وحركة برفده
 فيما في المناسبه تومان وفي الاتحاد كسبي واحد قب عليه اسمان
 وهذا الكتاب ناطق بشكر الانعام لا سقا ضيه عالم ان مستقبله مقترن
 في الاجاز ما ضيه فان انعام مولانا ^{اسم} ان يقضي وعزمه في الكرام
 عفى نفسه قبل ان يقضي واذا استعان السائل بشيم الرسول كان
 صينه معبراً ونزكه للذكاء ريدكوا وقد وكل الملوك وعود
 مولانا الي كرم خلفه ونزل فيض البحر وسجده ندفته والرائي لعل الله
 كتاب كنيه عن الملك الافضل علي بن يوسف الي
 مظفر الدين صاحب اربل ه

نخدم المجلس السامي لعل الله منقله ويرعي ذمته ونفرا يامه
 واغري بالكرنات عزله ولا زال يبلى بجه مجده الجديدين وهوز

بما حقيقته من الرما والآخره بالكهين السعدين ويدين له منهما العيلين 94
البعيدتين وينهى ان للملوك اشواق حلت ما بين فيهما وفي
من الهدايا بما تختارها وتصطيعها وقد علم ان المجلس الصابع اوبا
وانه من اللذين يسارعون في الخيرات فيدعون رغباء ورجاء فالرجال
على الخيرات منذ اعنده يدوا سابق اليه انوار هدي وحامل هذا الكتاب
الشيخ فلان وهو عريق النسب في بلده بانه الاسم في حله ومخذه وقد
فقد حدة الواقف الشريفه النبويه زادها الله شرف الآبينا
وجع في القلوب بين مهاشبا ووكاها وجعل طرينه على احسان
المجلس الذي هو ساحل ذلك البحر المقصود وشريجه ذلك الورد للورد
وعرضه الاخذ بعنايه كرمه تغرب عن مصدره وبعد سفره وكرم
بينه وعنصره بجموه الي مطالبه باسمها وحكم على الايام حكما وقد
انخذ كتاب الخادم ومله الي الباب الكرم الذي لا يرضه داخله ولا
حجب ابله ولا ينقطع عن فاصيده طله ووالله ويري المطالب
لاصل من كان سنا المجلس كوكبه وكتاب الخادم مركبه والراى اعلا
كاتبه كنبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الي عمه

(٢ أ) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وهو حسي .

[١]

كتاب كتبه عن نفسه . الى الامير مجاهد الدين قايماز (١) زعيم الموصل وكان في خدمته فنزغ الشيطان بينه وبينه ففارقه ، وسار الى الشام ، واتصل بخدمة الملك الافضل علي بن يوسف ، فنال منه حظاً ، وأصدر هذا الكتاب يتضمّن ملامةً وعتاباً :

ولم تزل قِلَّةُ الانصافِ قاطعةً بينَ الرجالِ ولو كانوا ذوي رَحِمٍ (٢)
صدرت هذه الخدمة الى مجلس المولى صاحب مجاهد الدين ، لأخضر الله له ذمّاماً ، وجعلهُ لأهل المكرّماتِ اماماً ، ودافع به عن حَرَمِ المعالي . فانه خير من دافع عنه وحامى ، ولا زال من المسرفين في انفاق الخير ، ولا جعل لانفاقه قواماً مقصورةً على ادراكه (٣) عهداً ، ما أيامه بقديمة ولا موارده بذيمة . ولا اسبابه مما يقدر فيها كذبٌ ولا نسيمة . فأنى أسلفت حقوق صحبة الحقتني بنوي الارحام ، ووشائج مودّة تبقى بقاء الارواح اذا بقي غيرها بقاء الاجسام ، ووسائل خدمة لو وفدت على ربّها في القيامة لاشركها في الصلاة والصيام . وما كنت اظن ان صبغة هذه الذرائع تنصل ، ولا أن (٢١ ب) حقوقها تبطل ، كيف ولها الاسباب الوكيدة في المنزلين السهل والخشن ، والحالين السرور والحزن ، ولو كانت المواد تنال بالاكساب لظفر المجتهد فيها بنجح الطلاب . ولكنها كالأرزاق يعطاها المقيم القاعد ، ويحرمها الظاعن الجاهد . ولكن علمت ان كلّ قطرٍ لا يفعم ، وان كلّ شجرةً لا تطعم ففي القلب غلة تخبو فيبيجها أنبي سبقت ، وحاز غيري خصل السباق ، وجمعت كنزاً ، وفاز غيري بحظوة الانفاق ، وليس الأسى والحمد لله على دنيا كنت أستفيدها .

بل على ايام ذهب ولا اجد من يعيدها والآن فقد اُحمدت الرحلة، وشكرت النقلة، وحللت ارضا أضأت آفاقها، وأتسعت أرزاقها، يتهلل بها وجه الزمن العبوس، وتذكر بأيام الجنة في جمع الشهوات للنفوس، فاستعذبتها مورداً ومجنى، واتخذت بها رغد العيش ذخيرة ليس تفنى، ويزين ذلك اني في خدة ملكٍ آخذ من ماله ومن أدبه، وادل عليه ادلال المرء على ذوي نسبه، فخلقه يُعدي أخلاق صحبه، ويغمر أجاجهن بَعْدَه، فأنا من انعامه في روضة وغدير، ومن اكرامه على أريكة وسرير، ومن لين جنبه في جنةٍ وحرير، ولما اتصلت بخدمته صفحت على اساءة (١) الزمان بحسني أيامها، وأنارت لي الليالي (٣ آ) وكانت أعدت الايام باظلامها، فلا أرضى بها بدلاً، ولا أبغي عنها حوالاً، وقد عوضني الله عن المولى اعواضاً، وبدلني من زهرة دنياه رياضاً، فأصبحت مخدوماً بعد ان كنتُ خادماً، وغدوت مشام البرق وكنت شائماً:

وَأَنَا مَمْنُونٌ عَلَيَّ وَمُنْعَمٌ
فَأُصْبِحُ مِنْ خَضِرَاءِ نُعْمَائِي مُنْعَمًا (٢)

وأما المولى فلا يجد مني عوضاً، ولا يستبدل من جوهرى الآ عرضاً. وهذه الاسطر، وان أبدأت له ظاهراً من العتاب متجهماً، فقد أخفت دونه باطناً من الوداد متبسماً، ولكن سخط سمعته مني فسوف يرضى بما يسمعه عني. فلأكسونه ثناءً بسمو سمو الابصار الطامحة، ويغني عنا الاعقاب الصالحة، ويبقى على الايام والايام غادية ورائحة.

وَكَانَ السُّكْرُ لِلْكَرْمَاءِ خَصْلًا
وَمَيْدَانًا كَمَيْدَانِ الْجِيَادِ
عَلَيْهِ عَقَدْتُ عَوْذِي وَوَلَّاحْتُ
مَوَاسِمُهُ عَلَى شَيْمِي وَعَادِي (٣)

فلا ينظر المولى الى اني كتبت، وعتبت وقلت فاطنبت، بل ينظر الى حسن خلافتي اياه في مغيبه، وما أتوخاه من تجنب مكروهه، وايثار محبوبه، فان ذلك حقبي ولست له تاركاً، وهذا (٣ ب) خلقي ومازلت لنهجه سالكاً، والسلام ان شاء الله تعالى.

[٢]

كتاب كتبه عن مخدومه الملك الافضل على بن يوسف (٤) الى والده الملك الناصر صلاح الدين (٥) عند نصرته على الفرنج بارض طبرية في ربيع الاول سنة ثلاث وثمانين وخمسائة، وذلك أول موطن حرب شهده الملك الافضل، وكان والده اذ ذاك نازلاً على حصار حصن الكرك.

أَبْكَارُ الْمَنَاقِبِ كَأَبْكَارِ الْكَوَاعِبِ . تَزْهِي بِجَمَالِهَا ، وَتَنَأَى بِوَسَالِهَا . وَلَا تَرْفُ الْإِلْمَنُ يَقَوْمُ بِأَمْرِهَا وَيَسْمَحُ بِأَغْلَاءِ مَهْرِهَا . وَقَدْ فَازَ الْمَمْلُوكُ مِنْهَا بِمَنْقِبَةٍ كَثِيرَةٍ الْإِحْسَابِ . قَلِيلَةَ الْخَطَابِ . تَكُونُ لِصَاحِبِهَا فِي الدُّنْيَا رَافِعَةً . وَفِي الْآخِرَةِ شَافِعَةً . وَهِيَ قُوْدُ الْجِيَادِ إِلَى مَوَاطِنِ الْجِهَادِ . وَابْتِكَارُ الْفَتْحِ الَّذِي تُمَلَّى فِيهِ مَعَانِي الْقَضْبِ عَلَى الْفَاطِطِ الْكُتُبِ . وَيَسْتَدِلُّ عَلَيْهِ بِشَبْهِ الرَّمَاحِ لِأَبَالِسَبْعَةِ الشَّهْبِ . وَلَمْ يَسْتَعْرِ الْمَمْلُوكُ فِي ذَلِكَ خِيَمًا بَعِيدًا . وَلَا اسْتَحْدَثَ مَجْدًا جَدِيدًا ، بَلْ مَشَى فِيهِ عَلَى أَثَرِ قَدِيمِهِ ، وَتَقَدَّمَ وَقَدْ قَضَى صَدَقَ حَسِبَهُ بِتَقْدِيمِهِ . وَلَا تَشَادُ (٤) عِلَا الْآبَاءِ إِلَّا بِأَبْنَائِهَا . وَالسَّعْيُ فِي حِفْظِ مَسَاعِيهَا مِثْلُ ابْتِنَائِهَا . وَهَذَا الْكِتَابُ أَوَّلُ بُشْرَى وَرَدَتْ عَلَى مَوْلَانَا بِفَرِيسَةِ شَبْلِهِ ، وَإِنَّهُ وَقَفَ بِمَوْقِفِهِ . وَضُرِبَ بِنِصْلِهِ ، وَقَدْ سَبَقَ إِلَى الْعِلْمِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ شَحَذَ عَزْمَهُ . وَرَاشَ سَهْمَهُ ، وَوَطَأَ أَرْضَ الْعَدُوِّ وَطَاءً بَكْرًا . وَقَادَ إِلَيْهَا الْمَنِيَا سَوْدًا وَحَمْرًا . وَفِي يَوْمٍ كَذَا نَزَلَ دَارَهُمْ (١) فَزَعَزَعَهَا وَدَدَغَهَا . وَضَرَمَهَا وَهَدَمَهَا . وَرَمَاهَا بِأَسْوَدٍ عَلَى عَتَبَانِ . وَجَلَامِدٍ فِي غَدْرَانِ . مِنْ كُلِّ شَهْرٍ (٢) يَجْرُدُ مِنْ قَلْبِهِ مَا يَجْرُدُهُ مِنْ عَضْبِهِ . وَيُسَدِّدُ مِنْ جَنَانِهِ مَا يَسُدُّهُ مِنْ سَنَانِهِ . وَكَلِمَهُمْ مِنْ بِلَادِهِ الْمَوْلَى وَجُرُّ بِهِ . وَسَقَاهُ مِنْ بَأْسِهِ وَدَرَبَهُ . فَخَاضُوا الْأَرْضَ يَمْشُونَ بِنَجْمٍ صَاعِدٍ فِي سِيْمَاءِ صَعِيدٍ . وَيَعْتَصِمُونَ بِدُرُوعِ صَبْرٍ لِأَدْرُوعِ حَدِيدٍ . فَلَا مَدَدَ لَهُمْ إِلَّا بِأَيْدِيهِمْ قَائِمَةً . وَلَا مَعْقَلَ إِلَّا مَا حَمَلْتُمْ قَوَائِمَهُ . وَمَا حَيَزَتْ الْأَسْلَابُ . وَأُرِيدُ الْإِيَابُ . أَقْبَلَ الْعَدُوَّ مُنْتَهِضًا . وَجَاءَ مُعْتَرِضًا . وَهُوَ يَحْمِلُ مِنَ الْأَسْلِ غَابًا . وَيُحَدِّدُ لِلْقَاءِ ظُفْرًا وَنَابًا . وَقَدْ جَاشَتْ صُدُورُهُ بِأَوْغَامِهِ حَتَّى ضَاقَتْ عَنْهَا مَفَاضَاتُ آلَمِهِ . فَلَقِيَهُ الْمَسْلُومُونَ رَحْفًا . وَقَاتَلُوهُ كَمَا يَجِبُ اللَّهُ صَفًا . وَلَمْ يَزَالُوا مَعَهُ فِي مَطَاعِنَةٍ وَمُرَاشِقَةٍ . وَمُضَادِمَةٍ وَمُعَانِقَةٍ . حَتَّى صَدِيَتْ الْإِبْطَالُ . وَرَوِيَتْ النُّصَالُ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مِنْ (٤ ب) حَفِّ خَطْوِهِ . وَثِقَلِ وَطْوُهُ . وَوَقَى دَمَ وَجْهِهِ بِدَمِهِ . وَصَانَ هَامَةَ مَجْدِهِ بِثَبَاتِ قَدَمِهِ . وَلَقَدْ أَشَاحَ الْمَمْلُوكُ بِنَفْسِهِ حَتَّى فَلَّ سَيْفَهَا وَعَزَمَهَا . فَهَمَّ بِالَّتِي يَبْقَى اثْمَهَا وَوَضَمَهَا . فَخَطَرَ مَوْلَانَا عِنْدَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ . وَتَمَثَّلَ لَهُ عِتَابًا فَاسْتَحْيَا مِنْ عَثْبِهِ . وَثَبَّتَ بِمَكَانِهِ نَازِعًا لِلدَّنِيَّةِ . لِأَسَا لِلْمَنِيَّةِ . يَرَى الْإِقْدَامَ مَأْذِبَةً . وَالْقَتْلَ مَأْرَبَةً .

مَثَلَتْ لَهُ عِنْدَ اللَّقَاءِ بَصُورَةٌ عَلَى الْبُعْدِ أَقْضَتْهُ الْحِيَاءُ فَصَمَّمَا
كَيْوَسَفَ لَمَّا أَنْ رَأَى أَمْرَ رَبِّهِ وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَعْرِوْرِي الذَّنْبَ احْجَمَا (٣)

وَالشَّجَاعَةُ كَمَا يُقَالُ صَبْرُ سَاعَةٍ . وَطَاعَةُ الْمَرْءِ عَلَى الْغَيْبِ هِيَ الطَّاعَةُ . وَلِئِنْ أَصْدَأَ الْكِرَّ لَهُ عَزْمًا فَقَدْ صَقَلَهُ ذِكْرُ مَوْلَانَا فَلَمَعَ أَوْ أَنْبَأَ (٤) لَهُ سَيْفًا . فَقَدْ شَحَذَهُ حُدَّهُ

فقطّع . فإن غاب عن هذا المقام صورةً ، فقد حضر معنى ، وما نأى من أسمع قلباً . وإن لم يُسمع أذناً ، فأجرُ هذه الوطأة له بنيتِه التي نابت مناب عمله ، ومن حرص على القتال بذكره ، فقد أنجد بظبَاهُ وأسلِه ، وقد فاز المسلمون بالنصر المبتكر . وانقلبوا بحسن الذكر وحسن الأثر ، وأضافوا حرَّ المغنم الى برده ، وجازوا اولاً أجياد ظبائه وآخرأ أعناق أسدِه ، ويرجو المملوك ان تكون هذه بدرُ الصغرى ومعها لمولانا بدرُ الكبرى فانه ثلم (ه أ) الكفر ومولانا يهدمه ، وكلمهُ وهو يحسّمه ، وقد خاض من الغزو ساحلاً لمولانا غمْرهُ ، وفعل . يوحيد قَدْرُهُ ، ولمولانا ما يوجهه قدره ، وهذه قدحُ زند يتلوها منه ضرامٌ وقُد . ولمحة برقٍ يتبعها منه صلصلة رعدٍ . وللآراء العالية مزيدُ العلو أن شاء الله تعالى .

✧ ✧

عدة كتب انشأها في معارضة كتب كتبها القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيسانى(١) عن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الى الديوان العزيز النبوي مجده الله تعالى يتضمن ذكر وقائع أجراها الله تعالى على يده . فمن ذلك :

[٢]

كتاب كتبه في وقعة تل حطين لما هزم الفرنج خذلهم الله - وفتح مدينة طبرية فعارضه بهذا الكتاب وهو :

أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي . وجدد عهود الاسلام في عصره . وعضده منه بسيف غمْره ورأي غمْره . وأعاد بدولته (ه ب) مامضى من غرة دهره . وجعل مآثرها نجوم ليله وشمس نهاره وطلعة فجره . ولا زالت الاقدار تهبى لاوليائه في كل يوم مطلباً . وتجدد لهم من اسباب السعادة مركباً . وتري كلاً منهم من بركات خدمتها مايقول معه « (اني رأيتُ أحدَ عشرَ كوكباً) » (٢) . هذه البشرية سائرة الى الابواب العزيزة مجدها الله . ولم تأت حتى انتظمت صدورها بغرر الجياد . وأزدادت سطورها بعجاج الطراد . وتقدمتها طلائع . وأشرقت قبلها من الانباء مطالع . فجاءت وطيبها سائل . ووجهها ضاحك . فبهى تزهى فرحاً . وتمشي في الارض . مرحاً . ويقل لها ذلك وكتائبها يروي خير النصر الغريب في الحديث الصحيح ينقله مُسنداً عن اقلام الأسل وورق الصفيح . واکرم النصر ما أعقب فتحاً جليلاً . ووجد القول في وصفه صباحاً طويلاً . كهذا الفتح الذي كانت الغزائم مفاتحه . والمعاقل منائحه . ومثلِه تنزل مددُ الملائكة معلماً . واقبل حيزوم مقدماً .

ولقد كره فريقٌ من المؤمنين في هذا المقام ما كرهه الفريقُ البدرِيُّ في أول الإسلام وأشير على الخادم بقبول تُوخُدْ ، وأسارى عن أيدي الكُفَّار تُنْقُدْ . فأبى الله إلا أن يَحِقَّ الحقُّ ، (٦ أ) ويجعل ذات الشوكة لانصار دينه وحماته . وفي يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر نهضت الجيوش الإسلامية مُجَدَّةً في تشمير ذيلها . مُعَدَّةً ما استطاعت من قُوَّتِها ومن رباط خيلها . تحملُ الاعمارَ القصارَ تحت الارماح الطوال . وترغبُ في اشتراء الجنة بالانفس والاموال ، وتبعثها عصائب الطير عائرة في عثيها . واثقة بالنعيمة من جزرها . وفي اليوم الثالث من نهضتها وطئت ارض العدو وفرَّ مُتَّهاباً كثير من رمالها ، واصبر من جبالها . وارسلت عليها ايام نحوس مستمرة ، وصنبحتها بعذابٍ مستقرٍ على افئدةٍ غير مستقرة . ولم تزل تجوسُ خلال ديارها ، وتلحق عمرانها بعمارها ، هذا والعدو قد جمع كيده واستفرغ أيده ، وزين له الشيطان عمله وبسط لديه أمله . إلا أنه مع ذلك محجَّمٌ غيرٌ مقدم ، ومُواربٌ غيرٌ محارب . فلما رأى الخادمُ طولَ مطاله ، ولم يجدُ سبيلاً الى قتاله ، ترك العسكر على حالته في قتاله ، وقصد ثغر طبرية في جمرة من المسلمين تقلُّ اذا عُدَّتْ ، وتكثرُ اذا شدَّتْ ، فوصله سحرة يوم الخميس الثالث والعشرين من الشهر ، (٦ ب) واحاط به احاطةُ الثوبِ بالجسد ، والطرافِ بالعمد . فما نزلهُ حتى نازله ، ولا شارفه حتى زاحفه . وتقدم الرماةُ فأرسلوا عليه رجل جراد حجب بين الشمس وبينه ، ومنع من به ان يمد يده او عينه ، وتقدم الناقبون فحاولوا منه جبلاً يزل بمصعده ويذهب بمعول النقباب ويده . إلا ان الله قرَّب لهم البعيد ، وألان لهم الحديد . كما ألان لداود الحديد . ولم يبق إلا أن يهدَّ باضرام ناره ، ويدخل عليه من اقطاره . فأراد أهله أن ينههوا طيش القتال . بثقل الاموال . فأبت ذلك نفسُ ترجو اثواب الله بمجاهدة اعدائه . وترغبُ في المغذي نفسه ولا في فدائه . ولو لم يكن جهادها احتساباً ، لأبت أن يكون اكتساباً ، فان النفوس الابية في دق الفرائس . أرغب من ادخال النفائس - فلما علم القومُ انهم قد بلوا بخصم لا يزدهي بخديعة ، ولا يرضى فيما يطلبه بقطيعة . خافوا ان يأكلهم الحرب . وطلبوا الأمان وأن رضيه اللسان وكرهه القلب . فأمضى الخادمُ فيهم أمر السيف الذي يجورُ في الحكم ، وهو برىء من الاثم ..

فمَسَّاهُمْ وَبُسَطَّهْمُ حَرِيرٌ وَصَبَّحَهُمْ وَبُسَطَّهْمُ تُرَابٌ (١) (٧ أ)

ولم ينج منهم إلا من (حماها) (٢) ومن طرَقها عن تيقظ . فاضحت في يد المسلمين نهياً ، واضحت قلوبهم في يدها نهياً . واخذت منهم سلماً ما اخذوه من قومها

حرباً . فنالت بلا سفك دمٍ مائل بسفك الدماء . وأبدت قدرة المالكين من ضعف الآماء . فكم أحرز الرُمح من قَدِ كقده . والسيف من طرف كحده . وكم من نفس كافرة طابت بكسر صليبيها . وفراق حبيبيها . فاذهب نحو كفرها ذل الأسار . وأبرد حرَّ عشقيها حرَّ الشَّفار . ولما هجمَ الثغرُ اشتغل الخادمُ بحضْر قلعتِه . وهي ذات رُكن وثيق . وخذقٍ عميق . فحاربها وجاذبها . وضايقها ولاصقها . ولم يبق من صعبها إلا أهونهُ . فوصلهُ الخبرُ بحركة العدوِّ فعادَ عن القلعةِ وحضْرها . الى الحربِ وجمرها . وتراءت الفتیان عصرَ يومِ الجمعةِ الرابعِ والعشرينِ من الشهرِ . ولم يزل المسلمونُ على مسابرةِ العدوِّ ومساورته . ومقابلته ومقاتلته . حتى اقبلَ الليلُ . فتلاقى ليلُ الظلامِ وليلُ القتامِ . وتقابلت شهبُ السماءِ الطالعةِ وشهبُ الرماحِ اللامعةِ . وباتَ الناسُ يحرسونُ العدوَّ على تيقظٍ وتحفُظٍ . فما منهم إلا من أسهرَ عينهُ في ذاتِ الله فاتعَب . وليس فيهم إلا من لو رآه رسولُ الله صلى الله (٧ ب) عليه وسلم لقال أوجب . فلما أضاءَ النهارُ ركبتُ خيلَ الكفرِ وخيلَ الايمانِ . وتقابلَ حزبُ الله وحزبُ الشيطانِ . ولم تزل الحربُ تُسنُّ والكفرُ ناشٍ . ونارُها تشبُّ والموتُ غاشٍ . الى أن تصافحوا بالصفاحِ بعد أن تحيوا بالرماحِ . فلم نرَ إلا بُتاً مطاشاً . ورأساً مُحاشاً . ومواردَ دمٍ تردُّها الصوارمُ عطاشاً . وليلَ نَقعٍ جعلَ النهارَ لباساً والارواحِ معاشاً . وكان الى جانبِ العدوِّ عشبٌ قد أخذ في الخمودِ . وتهباً للوقودِ . فأرسلَ المسلمونُ فيه النارَ وهي سلطانُ ماعظمه . وأرسلَ الله عليه سلطانَ الريحِ فأججهُ وضرمهُ . فقوتلوا بحدِّ النارِ وحدِّ الحديدِ . وعجلتْ لهم جهنمُ قبلَ اليومِ الذي تقولُ فيه هلْ من مزيدِ . فعند ذلك أيدَ الله الاسلامَ بنصره . وأعادَ اليهم يومَ بدره . وولى طاغيةً طرابلسَ مُعدداً في فراره . حاسداً للطيرِ على مطاره . وقد ألبسهُ الخوفُ ثوبَ السقمِ . وأغراه بتتبعِ الوهادِ والاکمِ . فلم يرَ هدةً إلا طلبها طلبَ الاكتمِ . ولا اكمةً إلا ارتقاها طلبَ الاعتصامِ . فهو موكلٌ بطلبِ الأکمِ والوهادِ . وذُهو له يقضي له الجمعُ بين الاضدادِ :

فَمَرَّ مُطِيعاً لِلْعَوَالِي مُعَوِّدًا . من الخَوْفِ وَالْإِحْجَامِ مَا لَمْ يُعَوِّدْ (١) (٨ آ)

فان لم تكن فديت منه فقد رويت من جنده . وان نجا منها في قربه فسوف ندركه في بعده . واما الباقون من ائمة الكفر وطواغيته . ومردته وعفاريته . فانهم ثبتوا ثبات المستبسل . وابلوا بلاء المستقتل . وكانت هناك هضبةً فارتقوها مُعصمين . واستأخروا اليها مُقدمين . ثم عاودوا الكزةَ وبدءوا الحربَ كما كانت اول مرة . فلم

يَعْصِمُهُمُ الْجَبَلَ مِنْ طُوفَانِ الْقَتْلِ . وَلَا انْجَاهَهُمْ حُدَّ النَّصْلِ مِنْ حَرِّ النَّصْلِ . وَنَجَّ الْمُسْلِمُونَ فِي مَنَاوِيَةِ زَحْفِهِمْ . وَاخَذَهُمْ عَنِ اِيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ . وَمَنْ بَيْنَ اَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ . وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ يُسَلِّمُوا نَفْسَهُمْ حَتَّى حَذَّهْمُ . وَفَنِي جَدَّهُمْ . فَلَمْ يَبْقَ تَحْتَهُمْ مِنَ الْجِيَادِ مَا يَسْتَحْضِرُ . وَلَا فِي اَيْدِيهِمْ مِنَ الْحَدِيدِ مَا يُسْتَنْصَرُ . وَعِنْدَ ذَلِكَ هَاجَمَهُمُ الْمُسْلِمُونَ هَجْماً . وَهَدَمُوا بِنَاءَهُمْ هَدْماً . وَطَغَى بِهِمُ الْخَطْبُ كَمَا طَغَى الْمَاءُ . وَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ الْاَرْضُ وَلَا السَّمَاءُ . وَجِيءَ بِالْاَسْرَى كَالْاَنْعَامِ الْعَقْلَةَ . وَالصُّورِ الْمِثْلَةَ . خَاشِعَةً اَبْصَارَهُمْ . دَامِيَةً اَبْشَارَهُمْ .

جَرَّحَى اِلَى جَرَّحَى كَأَنَّ جُلُودَهُمْ يَطْلَى بِهَا الشَّيْئَانَ وَالْعَلَامَ (١)
 ثَمَّ جِيءَ بِمَلِكِهِمُ الْمُتَوَجِّعِ . وَقَرَمَهُمُ الْمُدْجَجُ . وَقَدْ بَدَّلَ عِزَّهُ ذُلًّا . وَطَوَّقَهُ غَلًّا . (٨ ب) وَبِقَلْبِهِ مِنَ الْخَوْفِ مَاسَلَبَ عَقْلَهُ . وَانْسَاهُ ذَحْلَهُ .

وَلَمَّا فَصَلَّتِ الْحَرْبُ حَازَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمَغَانِمِ اَوْقَارًا . وَمَحَوْا مِنَ الصَّحَائِفِ اَوْزَارًا . فَغَدَوْا ثِقَالًا مِنَ الْاَسْلَابِ . خِيفًا مِمَّا خَطَّ فِي الْكِتَابِ . وَكَانَ الْخَادِمُ نَزَرَ دَمَ طَاغِيَةِ الْكِرْكِ . وَهُوَ مَمَّنْ اِتَّخَنَ فِي بِلَادِ الْاِسْلَامِ قَتْلًا وَاَسْرًا . وَسَلَفَتْ لَهُ وَقَائِعُ كُلِّهَا يَنْطَلِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الْكِبْرَى . وَلَا يُقَالُ فِيهِ الصَّغْرَى . فَلَمْ يَرْقُبْ فِي مَوْمِنِ الْاُ وَلَا ذِمَّةً . وَلَمْ يَأَلْ فِي اَذَاهُمْ رَأْيًا وَلَا يَدًا وَلَا هِمَّةً . وَلَطَالَمَا سَاقَ مِنْهُمْ وَسِيقًا . وَقَطَعَ عَلَيْهِمْ طَرِيقًا . وَشَرَّدَ مِنْهُمْ فَرِيقًا . فَقَتَلَهُ الْخَادِمُ بِيَدِهِ . وَقَدَّمَهُ ذُخْرًا لِغَلِّهِ . وَجَعَلَهُ اَضْحِيَّةً لِعِيدِ النَّصْرِ لَا اَضْحِيَّةً لِعِيدِ النَّحْرِ . وَيَرْجُو أَنْ يُطَهَّرَ بَدَمِهِ كِتَابُهُ . وَيُغَسَّلَ بِهِ حَسَابُهُ .

مُسْتَيْقِنًا أَنْ سَوْفَ يَمْحُو قَتْلُهُ مَا كَانَ مِنْ سَهْوٍ وَمِنْ الْاَغْفَالِ
 مِثْلَ الصَّلَاةِ اِذَا اَقِيَمَتِ اصْلَحَتِ مَا قَبَلَهَا مِنْ سَائِرِ الْاَعْمَالِ (١)

وَمَا فُجِعَ الْكُفْرُ بِاَعْظَمٍ مِنْ فَقْدِ هَذَا الطَّاغِيَةِ الَّذِي كَانَ لَصَدْرِهِ حَنَّةً وَلِقَلْبِهِ جَنَانًا . وَلِعُضْدِهِ سَاعِدًا وَلِكَفِّهِ بِنَانًا . وَلَمَّا قَضَى الْخَادِمُ اَمْرَهُ وَاَوْفَى فِي قَتْلِهِ نَذْرَهُ . عَادَ اِلَى ثَغْرِ طَبْرِيَّةٍ مُتَمِّمًا فَتْحَهُ . مَجْدِدًا قَرَحَهُ . (٩ أ) فَلَمَّا اَطْلَبَ عَلِيْدُ سَلْمَ وَاسْتَسَلَّهُ . وَالْقَى اِلَيْهِ قَلْعَتَهُ وَمَاتَلُومًا . وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ فَتْحِهِ قَدْ جَعَلُوا بَطْنَهُ ظَهْرًا . وَعَامِرَهُ قَفْرًا . وَأَضْرَمُوا بِيَوْتَهُ حَتَّى اَتَّصَلَ اللَّهَبُ بِاللَّهَبِ . وَفَعَلَ فِي الْاِحْجَارِ مَا فَعَلَهُ فِي الْخَشْبِ . فَهُوَ عَلَى عَفَاءِ اَثَرِهِ . وَقَبِجِ مَنْظَرِهِ . اَشْبَهَى اِلَى الْقُلُوبِ الْمُؤْمِنَةَ مِنْ مَحَلِّ اَوْطَانِهَا . وَاَبَى مِنْ مَنَازِلِ اَحْبَابِهَا وَخَلَانِهَا . كَأَنَّ الْوَحْشَةَ زَادَتْهُ اَيْنَاسًا . وَالْعَفَا اُجْدَ لَهُ لِبَاسًا . وَهَذَا الْكِتَابُ اَصْدَرَهُ الْخَادِمُ وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ سَيْفٍ وَغَمْدِهِ . وَلَا فَرَّقَ بَيْنَ جَوَادٍ وَلُبْدِهِ . وَقَدْ نَوَى أَنْ يَأْتِيَ اَرْضَ الْعَدُوِّ وَيُنْقِصُهَا مِنْ اطْرَافِهَا . وَيَغْشَاهَا مِنْ

عزَّته بصدق راجفتها لا كذب ارجافها . فما تعوقه منعة بلد عن بلد . ولا يصده بعدُ أمدٍ عن أمدٍ . وكلُّما ذكره ويذكره من هذه المواقف التي تكون له في الدنيا شرفاً . وفي الآخرة زلفى . فإنه من حسنات الدولة الهادية . إذ أفعال العبيد عائدة الى مواليهم . وما بينونه من عليا أمرٍ فإنه محسوبٌ في اعدادِ معاليهم . وقد عَلِمَ ان احسانَ المرء من احسان مجتبيه . كما أنه وماله لاييه . والله يجعل ايام الدولة من سيوفِ الاولياء ايامَ نحرٍ وتشريقٍ . ومن مواعد فتح الله ايامَ تقصيرٍ وتحليقٍ . حتى تعد امثالاً يُستعار (١٩ ب) فخارها . وتخلدُ في الناس اثارها . وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله (١)

[٤]

ومن ذلك كتابٌ كتبه لما خرج الفرنج خذلهم الله من البحر . ونزلوا على حصارِ عكا في منتصف شهر رجب سنة خمسٍ وثمانين . وكان المسلمون قد ادركوهم بعد نزولهم بثلاثة ايام . وقتلوهم قتالاً شديداً حتى ازالوهم عن جانبٍ من جوانب الثغر . وانفتح الطريقُ اليه وهُو :

ادامَ الله سلطان الديوان العزيز النبوي وامضى في يده الحدين رأياً ونصلاً . ورفع له العلمين لواءً وفضلاً . وناط به القلمين لدنا تزهى طولاً . ويراعاً يزهى طولاً . ولا زالت كلمته في البسيطة مبسوطة . وطاعته في فرائض العبادات مشروطة . وايامٌ دولته في الايام مغبوظة . ورجال بني الرجاء بجانبه الرحب محبوظة . وأطراف الممالك بأمن عدله ثابتة مغبوظة .

تقدمت مطالعات الخادم تروي حديث الصفائح في متون الصحائف . وتذكر من (٢٠ آ) اخبارها ما لم يأت مثله في العصور السوالف . فسطور كتبه محمّرة من آثار الجلال . كأنما خُطت بدمٍ لا يمداد . وكان انهى أنه مواجه العدو الذي قذفه البحرُ الى جانبه . وجاء منه بمثل فيض جوده وحديث عجائبه . فلا حرج على المخبر عن كثرة عدده . وشدة جلاده وطول جلده . ولم يزل الخادمُ معه هذه السنة ومصيفين من لفح الهواجر . ولفح البواتر . فأحدهما يحول بين الجسوم والوانها . والآخر يحول بين النفوس وابدانها . وكانت الحرب بين الفريقين عواداً . والمنيةُ فيهما ولاداً . حتى فقدت البسالة رجالها ولاقت المناضل آجالها . فلما يئس العدو من المغالبة عدل الى المواربة . فأخفى امره واكمن مكره . وسار الى ثغر عكا في منتصف شهر رجب من سنة كذا وكذا . وكان مسيره اليه احتيالا . ونزوله عليه احتيالا .

فاحاط به احاطة الشفاه بالثغور ، ونزل عليه نزول الظلماء على النور . وادركه الخادم في اثره واخذ بحجزه (١) ظهره فصار حاصراً في هيئة محصور ، قاهراً في صورة مقهور ، ولما لم يجد للعود نفاذاً ، ولا ارى الآ الثبات ملاذاً . اقام بمكانه (٢٠ ب) مُكْرَهَا على الاقامة . واذا أخرج المخرج ابدى ظُفر الاسد من قادمة النعامة . وقد اصبح الثغر منه ومن البحر بين بحرين ، من ماء حديد يتألق ، وفيض ماء يتدفق . فهذا يقذف بعجابه . وهذا يقذف بامواجه . ولما اطاف به الخادم نازلاً ، وبادر شوكته مُنازلاً ، ضرب في بحره الى الثغر طريقاً وزحمة زحمة جعلت فضاءه مضيقاً . ولئن سلفت آية بضرب طريق في بحر من الماء ، فهذه الآية بضرب طريق في بحر من الدماء ، غير ان تلك كانت للعصا ، وهذه للسيف ، وما منهما الا من حل محل التعجب ، فقيل له في سؤاله كيف ؟ ولقد اصطدم من الاسلام والكفر جبل وجبل ، والتقى من عجاجهما طفل وطفل ، ورُبُّ مقتبل حلت الآسة رأسه ثغاماً ، وجاهل لم يحكمه المشيب فجدد له وقعها احكاماً . وعند ذلك اخذ العدو في النحير الى جانب ، وكان كحاجب على عين فصار كعين في حاجب ، واذا تزعزع البناء فقد هوى . واذا قبض من طرف البساط فقد انطوى ..

ثلثناهم بالمشرفي وقلما
ثلثم أمر القوم الآ تهتما (٢)

ولم يبق الآن سوى المعالجة وترك المطاولة . والمناجزة وترك (٢١ آ) المناجزة . وقد جاهدهم الخادم بنفسه وولده واتخذ التوكل على الله جنداً دون جنده فبذل في سبيله اعز الزينتين واكرم الطينتين وهو يستنجد بدعوة من دعوات امير المؤمنين تكون سلاحاً لحربه ، ووسيلة الى ربه . فانها الجنة المانعة في القتال ، والذخيرة النافعة في المال . واذا انجده جيش من جيوشها كان الفتخ على يده ، وغني به عن تكاثر عديده وعُدده . وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى

[٥]

ومن ذلك كتاب كتبه يصف فيه قتال الاسطول في البحر على ثغر عكا . فعارضه بهذا الكتاب في معناه وهو :
ادام الله سلطان الديوان العزيز النبوي ، وجعل دولته ديوان الفتوح . ومعين النصر الممنوح ، وبسط يده في اعدائه واوليائه بالدم المسفوك والنوال المسفوح . ولازالت أيامه للجدود مسالك ، وأبوابه للوفود (٣) مناسك ، وجنوده في الارض أملاكاً وفي السماء ملائك . تقدمت مطالعات الخادم (٢١ ب) ناطقة بعزم مرسلها

الذي اثقلَ عَنَّا محلها . ولقد تُفَعِّلُ الاقوالَ في ثقلِ الكتابِ ماتفعلهُ الاعباءُ في ثقلِ الركابِ . ولم تنزلِ الايامُ تُبدي من عزمِ الخادمِ كُلِّ غريبةً . وتهولُ وتجولُ ولا تحولُ . فكلما تجددتْ منهنَّ واحدةٌ تناولها قَلْمُه فصاغها . وأحسنَ ابلاغها . فأياتُ آثارها عجيبة . والاقلامُ في البيانِ عنها خطيبة . واخبار وقائعها غيرُ مصبوعةٍ ولا موضوعة . وهي كثمارِ الجنةِ غيرِ مقطوعةٍ ولا ممنوعة . وهذا الكتابُ يتضمنُ ماجاء منها مبتكراً . وغدا على وجهِ الايامِ مُسَطَّراً . وهو البشريُّ بما يسرهُ اللهُ من الفتحِ البحري الذي اسفاد^(١) اليومَ الأُحديَّ وقامَ باليومِ البدري . والخادمُ ينهى صورةَ الامرِ أوْلَهُ وأخْرَهُ . ويقيُمُ الغائبَ عنه مقامَ حاضرِهِ . وذلكَ أنه لما مدَّ الصيفُ اطنابَهُ . وفتحَ البحرُ ابوابه . جاء من أفواجِ العدوِّ مددٌ كالامداد . لهم أرواحُ كالارواحِ في اجسادِ كالاجسادِ .

بَلَّهْ إِذَا لَبَسُوا الْحَدِيدَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْمَنِيَّةَ تُخَلِّقُ

(٢٢ آ) ولما نزلوا الثغر . جدوا في محاربةِ بره وبحره . وألحوا في مضايقتِهِ حتى غلوا يدهُ الى نحرِهِ . فمنعوا بذلكَ ما يلجُ في أرضه وما يخرجُ منها . وما ينزلُ من السماءِ به وما يعرجُ فيها . فغَيَّبَتْ حينئذٍ على المسلمين أخبارَهُ . وضاقَت على أهلِهِ أظفارُهُ . ولم يجدِ الخادمُ بُدأً من الجدِّ في تنفيسِ خناقِهِ . أو تخفيفِ وثاقِهِ . فاهتمَّ عند ذلكَ بعمارةِ اسطولٍ ترهبُ خيلَهُ . ويعزُّ على العدوِّ نيلَهُ . ورمى البحرُ منه بما ملأ صدرَهُ . وأثقلَ ظهرَهُ . من كُلِّ جوادٍ له من الريحِ عنانٌ . ومن غواربِ الموجِ . فاذا اسرعتْ خفقَ بكلِّ منها جناحاً عُقابٍ . ومرَّت كأنها قطعٌ من سحابٍ . وبها رجالٌ تلقى الموتَ . وتدرِكُ الفوتَ . من كُلِّ سهمٍ هزتهُ الهيجاءُ وهزها . وبزته وبزها . فهو يخوضُها خوضَ مجربٍ لاهوالها . غيرِ مُبالٍ باوجالها .

مُسْتَبِلُونَ كَأَنَّمَا مَهْجَاتُهُمْ لَيْسَتْ لَهُمْ إِلَّا غَدَاةٌ تَسِيلُ
الْفِوَا الْمَنِيَا فَالْقَتِيلُ لَدَيْهِمْ مِنْ لَمْ يَحِلَّ الْحَرْبُ وَهُوَ قَتِيلٌ

فلما استقروا من المراكبِ في صهواتها . ودخلوا من لُجَّةِ البحرِ من لهواتها . ركضوها في هبواتِ التيارِ . ركضَ الجيادُ في ساحةِ (٢٢ ب) المضمارِ . وجاءت مراكبُ العدوِّ مستئمة . واقبلتْ مستقدمةً . وقد أجفلَ الموجُ عن لقاءها^(٢) اجفالِ النعمِ . ووسمها الزبدُ على جحافلها مكانَ الرسمِ^(٣) . وهي تنوءُ برحالها وتتوقدُ بنصالها . فاللتقتْ مراكبُ السريتينِ نطاحاً . والتقى رجالُها كفاحاً . ولم تزلْ بينَ جيئةٍ وذهابٍ . وجدٍ واقترابٍ . فلا تقعُ يحجبُ نظراً المتأملِ . ولا أرضٌ تقلُّ جنبَ المتجدلِ . ولست ترى إلا هاماً طائراً . وجواً بالبيضِ مائراً . حتى صارَ ريحانُ الماءِ

بالدم شقيقاً^(١)، وبرد فيضه بنار الحرب حريقاً، واعتاض القتلى قعر نجر عن القبور، وبطون الحيتان عن بطون الطيور. وعند ذلك فتح الله ونصر. وبُهِت الذي كَفَرُ ونكص الشيطان برياء من حربيه، خائفاً من عقاب ربه. وانبأ المسلمون بأيدٍ ملئت أسلاباً، وصحائف ملئت ثواباً، وحيء بافلاك المراكب. وهي تُقَادُ قُوْدَ الجنائب، وبها من طواعي القوم طائفة في اعضادهم، واذنت بوهن جلدهم وجلادهم. واجلت الحرب عن يوم احوز، ونصر ايضاً، وموسم فخر لا تنقضي ايامه ولا تنقص. وهذا عنوان ظفر يتلوه كتاب، وبارقة نصر يتبعها شهاب، وكلما (٢٣ أ) قسمه الله من هذه الوقائع التي لم يسبق الى احراز مجدها، ومنها تستمد بكل وقعة تأتي من بعدها، فإنه زائد في متاعب الدولة الهادية، التي لها من الخادم فضل النماء، وله منها فضل الانتماء. فكم من طريدة بلد سبقت بيد الكفر فنزعها، وكم من دعوة افك رُفِعَتْ على منبر من منابر الباطل فوضعتها فأتارها في ايام الدولة مباسم، وفي ديوانها موسم، فما يأتي منها أثر إلا كان أكبر من أخيه موقعاً، وأنور منه مطلعاً.

ولئن أدرك بذكر خدمه التي صدقت بأمرها، وأغنت عن ذكرها، وأقرت الاعداء بفخرها، فللديوان العزيز المنّة، أن أهله لهذا المقام، وأنطق في يده ظبا السيوف وألسنة الاقلام.
وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى.

[٦]

ومن ذلك كتاب كتبه في طلاب الانجاد بالمال من الديوان العزيز مجده الله، والفرنج اذ ذاك على ثغر عكا وقد ضايقوه، فعارضه بهذا الكتاب في معناه وهو: جَارَ الدين واستغاث بك الاسلام للنصر مُستغاث الغريق (٢٣ ب) أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي، وحاطه بكلماته التامة واسمائه، واغناه بمرامة الاقدار عن رمائه، ونصر الاسلام بامداد جيوشه ونعمائه، وناط به تصريف أمره في رفع سمائه، وكشف غمائه، وما زالت سرايا جوده الى الاعداء ناهضةً وجياداً خوفه في قلوبهم راکضةً، وشكائم عزائمهم لصغر اعناقهم راضةً، ومكائد آرائه لمعاقد جموعهم نافضة.

الخادم يُنهي ان كتبه كانت ترد معلمة الصدور، موشية السطور، تنقل اخبار النصر، وتحدث بلا حرج احاديث البحر. وقد انتقلت الآن الى الاستجد والاستمداد، وتجهيز بعوث الاقلام لاستصراخ بعوث الجياد، وكتابه هذا ينطق عن

حَالِ الْمُجَاهِدِينَ ، وَيَهَيِّزُ لِنَصْرِهِمْ عِزْمَاتِ الْقَاعِدِينَ ، فَقَدْ عَمَّ النَّفِيرُ وَقَلَّ النَّصِيرُ . وَإِذَا عَادَتِ الْبِلَادُ الْمُنْتَزِعَةَ مِنْ يَدِ الْكُفَّارِ ، مَرْهُوبَةً مِنْهُمْ بِقَارِعَةِ الْحِصَارِ فَلَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ تُشْعَلَهُ رِيحَانَةُ فُؤَادِهِ عَنْ أَجْرِ جِهَادِهِ ، وَلَا يَمْنَعُهُ حُبُّ كَسْبِهِ عَنْ نَصْرَةِ رَبِّهِ . وَلَا يَلْفِتُهُ خَلْطَةُ قَطِينِهِ عَنْ انْجَادِ دِينِهِ .

(قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم (٢٤ أ) وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتُموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صوا حتى يأتي الله بأمره » (١) .

وقد عَلِمَ ان الخادِمَ ومن قبله من خِيَلِ اللَّهِ قد اكلتهم الحربُ الضروسُ ، وفنيت منهم الاموالُ كما فَيَّيتِ النفوسُ ، واستمرَّ ذلك فيهم حتى انفذ الوشِيحُ (٢) جَالِيَهُ ، وأفنى الحديدَ ضارِبُهُ . وعلى هذا فانَّ صبرهم في أوله لم تخلقه الايامُ بتناولها ، ولا أثرت فيه وطأة الحربِ بتثاقلها ، ولكن نفذت نفقاتهم ، فما نفذت عزائمهم ، أو كلَّت احوالهم ، فما كلَّت صوارمهم . غير ان العدو قد علم اقلالهم فزادت اطماعه ، وكثرت اشيائه ، وانتشبت مخالِبُهُ في الثغر المحصور ، وفوق اليه سهم الواتر عن الساعد الموتور . والخادِمُ قد انفق حتى املق ، واخرج حتى احوج ، وكلما سُدَّ خرقاً وسُعيتِ الايام في خرقه ، وقذفه البحر من امداده بمثل طعمه ومثل خلقه ، فطرَقَهُ مسلوكةٌ لا يهتدي فيها بعلمٍ متصوَّبٍ ، ولا يستعان عليها بظهر مزكوب . بل يسرى فيها على الخيول التي ارواحها في جُسومِ اللواح ، وازمتها مصرْفَةٌ بأيدي الرياح ، فبهي تحمل من الحديد بحراً ، ومن الرجال جمرأً ، وقد جاهدتها عساكرُ المؤمنين صابرةً ، ورابطتها مصابرةً ، وهي ممنوة بالثباتِ (٢٤ ب) على حرِّ الاقدام وضرِّ الاعدام ، ولا يزيد ثباتها الا نجدةُ المالِ ، التي هي انفعُ من نجدة الرجال . وقد بسطتْ آمالها الى أميرها الذي هو امامها ومولاها ، ومن تدعى به في أخراها وترغى به في اولها . وسألت في امدادها بنجدةٍ من عطاياها تملأ ايديها وفرأ ، وافئدتها صبراً « وما تنفقوا من شيء في سبيلِ اللَّهِ يُوفِّ اليكم وانتم لاتظلمون » (٣) ، وهذه التوبة هي اخت جيش العسرة ونصرة الاسلام فيها فوق كلِّ نصره . ورُبُّ همةٍ حملت ماتعجز عنه هممُ القوم ، ومثلها قال النبي صلى الله عليه وسلم (ماضرُ عثمان ماضع بعد اليوم) (٤) ، فكانت نَفَقَتُهُ تلك محضَةً لما يأتي بعدها .

وليس ذلك الا لان بلغتِ النفسُ فيها جُهداً ، وبذلت فيها وجدها . وقد تكفل الله باخلافِ النفقة في سبيله ، وعوضَ المنفقَ بكثيرِ الثوابِ عن قليله ، فاصبح انفاقه في الدنيا مُخلفاً ، والثوابُ عليه في الآخرة ربحاً مضعفاً ، وهذه درجة لا ينالها الا من

رَغِبَ فاقترض ، لامن سَمِعَ فاعرض ، ومتى يخلف الدهرُ مثلَ هذا المقام الذي يدعو الى دار السلام ، حتى يؤخِّد فيه بالعزيمة ، ويحظى منه بالغنيمة ، فليس كلُّ زمانٍ موسماً ، ولا كلُّ مكانٍ معلماً ، وليلةُ القدرِ خيرٌ من الف شهر ، ودرجات الاعمال تتفاضل في الاوقات والمشاهد ، ولهذا كانت الصلاة (٢٥ أ) الواحدة في المسجد الحرام كالف صلاة في غيره من المساجد ، فمن أحب ان يقدم ثواباً فيرفعه الله اليه ويتقبله ، ويكون في درجة من يعمل ماشاء فيغفر له ، فلبأت هذا الوطن شاهداً ، أو فلينفق فيه جاهداً ، وليس على الخادم الا البلاغ الذي يرجو ان يكون له مساع ، فكلُّ ذي أمرٍ له بطانتان ، ولهما في الخير والشر مكاتتان ، فبطانةُ الشر تقول : لامفر وافى الحر ، وبطانةُ الخير تأمرُ بالشمير ، وتحدّر من التأخير ، ونبيةُ أمير المؤمنين ازكى ان تتبع من زاده الله تحسيراً ، واغظ له نكيراً ، فقال فيه : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » (١) بل هي من النيات الصادقة التي صدقت الله فصدقها ، ورغبت فيما لديه فهيأها له ووقفها ، ومن فضلها انها تظفر في اعمالها بفضيلة القبول ، وتتخذ ماتنق قربات عند الله وصلوات الرسول ، وقد اصبح امرُ المسلمين مرتهاً بمدد من جودها ، يثبت اقدامهم ، ويمضي اعترامهم ، ويكون لهم عوناً على الخصم ولدده ، ويزيدُ بكثرة عدده على كثرة عدده ، وقد وثقوا بذلك حتى ادانوا عليه ديوناً ، واحسنوا في الوفاء به ظنوناً :

ووثقنا بأن تعطي فلؤ لم تجد لنا لخلناك قد أعطيت من ثوة الوهم (٢)

(٢٥ ب) وهذه مكرمةٌ يخلدُ في الدنيا خبر افضالها ، وحسنةٌ تجزي في الآخرة بعشر أمثالها ، « ان تقرضوا الله قرصاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلیم » (٣) . وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى .

✱ ✱

[٧]

عدة كتب من الاحوانيات ، أنشأها الى الاصدقاء جواباً وابتداءً ، من مصر والشام وغيرها من البلاد بعد سفره . من ذلك كتابُ كتبه الى بعض الاصدقاء جواباً عن كتابه :

وصل كتابُ فلان جعل الله اقلامه للبيان طليعةً ، وللبنان وشيعةً ، وللإحسان شريعةً ، ولالزالت تروص بفيض حكمها صفحة القرطاس ، وتديرُ بها على الخواطر ما لا تديره الحميا في الكاس ، وتخرج منها شراباً مختلفاً الوانه فيه شفاء للناس (فالحق لي حتى حسنه روضه) (٤) ، فمددتُ يدي لاقتطاف زهرها ، وارتشاف

نهرها . واعطيت النفس ماشاءت من حظ سَمْعِهَا وبَصَرِهَا . ثم اني عدت على نفسي منها . ورجعت في التشبيه الذي كنت مُشَبِّهاً وقلت : اين حول الديم من حول القلم ؟ واين زهرُ الروض الذي يمضي أوأنه . (٢٦ أ) وتحول الوأنه . من زهر اللفظ الذي تبقى افواهه . وترفَعُ عن منال الايدي قطافه ؟!

تُنْسَى الرِّيَاضُ . وما يروضُ فكره . أبداً على مرّ الليالي يُذْكَرُ (١)
ولما وقفتُ عليه أهدى اليّ اوج طيبٍ . وجلا عليّ وَجْهَ حبيبٍ . وزارني على أنس مزاره في حسنٍ غريبٍ . فقلت : أهلاً بمن عمّرَ مجلسي من زور هنائه . والبسني ثوباً من سناه وسنائه . ثم حبيته تحية التعظيم . وصافحته مصافحة التسليم . وجلستُ منه مجلسَ التعلّم . واجلسته مجلسَ التعليم .
لا يَسْتَقِي من جفيرا الكتبِ رُوْنَقُهُ . ولم تَزَلْ تَسْتَقِي من بحرِه الكُتُبِ (٢)

ومما وجدته منه انه ألقى بين جوارحي جسداً . وخصّ منها عيناً وقلباً ويدا . فليلد مئة على العين بفضّ ختمه . وللعين مئة على القلب بنقل مسطوره الى فهمه . ولقد أقدم مرسله بمقدمه . وأراني وجهه الكريم في مرآة قلمه . وفي نجوى الكتب على بعد الدار تمثيلٌ لرؤية الابصار . فليسق بها غلتي . وليستدم بها خلتي . وليعلم ان في انقطاعها واتصالها فراقاً من غير فراق . ولقاء من غير تلاق .

وكم من فراقٍ واجتماعٍ على النوى يُرْجِيهِمَا هَجْرُ الكِتَابِ وَوَصْلُهُ

(٢٦ ب)

وانا ارجو دوامَ الاجتماع بكتايه . الى أن يُقَدِّرَ اللهُ الاجتماع بايامه . ان شاء الله تعالى والسلام .

[٨]

ومن ذلك كتابُ كتبه الى بعض الاخوان جواباً عن كتابه :
وَرَدَ كِتَابُ حَضْرَةِ فَلَانِ صَانَ اللهُ مُهْجَتَهُ وَعَرْضَهُ . وَسَقَى عَهْدَهُ وَاَرْضَهُ . وَمَنْحَهُ رَغَدَ العَيْشِ كَثِيرَةً وَخَفْنَمَهُ . وَلا زَالَتْ آثَارُ مَا تَرَهُ تُتْلَى . وَانوارُ خَوَاطِرِهِ تُجَلَى .
واعمارُ محامده يبلى الدهرُ وهي لاتبلى . فالغنى واقنى . وأتى بالحسن والاحسانِ مثنى مثنى . وأغرى القلوبَ بتأمّله اغراء قيس بلبنى . فمددت اليه طرفي ويدي . ووجدتُ به كثرةً في عددي . وبسطةً في مداي وأمدي . وقلتُ : زورْ تَأَوَّبَ مسلماً . أو حبيبٍ توخى ميمماً . وما هذا ممّا يكرمُ إكرامَ الوفود . ولا يقبلُ تقبيل الخدود . ولا يُرْتَشَفُ ارتشافَ الكؤوس . ولا يحملُ على الايدي ولا على الرؤوس . بل هو أعزُّ من ذلك كُلِّهِ . ومحلهُ في النفوس اعلى من محله . ولقد أذكرني عهد الايام

والليالي الماضية بذات الشيخ والصال . فما أدري أتبعها حمداً أم ذمّاً . فانها سقتني
 بقربه شهداً ثم اعقبته ببُعده سماً . فما أنصفتُ اذ بعثت الهوى . انقضت وشيكاً
 (٢٧ أ) بالنوى . فليتها اذ لم تُسعد بدوام الاسعاف . لم تشق بسرعة الانصراف .
 وما أراها كانت الا كلدة الخمر التي تعقب خماراً . وكنت اظنها ملكاً باقياً
 فأضحت شيئاً مُعاراً .

أبدأ بَسْتَرِدُّ مَاتَهَبُ الدد يا فيا ليت جودها كان بُخلاً (١)

ولئن خرجت ايام القرب بانصرامها . فقد آست ليالي البعد باحلامها . فالارواح
 تلتقي سراً من الاجسام . والقلوب تعاض من اليقظة بحسن المنام . والأيدي تتصافح
 ولا لقياً . وغليل الوجد يتروى ولاسقياً . وعلى باطله فاني اقع بتمويه كذابه .
 وتجزع نفسي لاقضائه وانقضابه :

اذا زورة منه تقضت مع الكرى تَبَهَّتْ مِنْ قَدِّ له أَنْفَرَعُ
 ترى مُقلتي ما لا ترى في لقاءه وَتَسْمَعُ أذني رَجَعْ مَاليسَ تَسْمَعُ (٢)

ومع هذا فكل هذه الاقوال تعلقة من حالت دونة البين . فاعتاض بنظر القلب عن
 نظر العين . ومثاله في ذلك مثال متيم أعوزه الماء فعدل الى الصعيد . ومعدم أعجزه
 الثراء فترمق بالنذر الزهيد . وما يتقع حر الغرام بأباطيل الاحلام . ولا تبل شكاة
 القلوب المتمرضة بطروق الخيالات المتعرضة . (٢٧ ب) .

أجدر بجمرة لوعة اطفأوها بالدمع أن تزداد طولاً وقوداً (٣)

لكني ارى طب الفراق في صحائف الاوراق . فانها تشفي من طائف الوجد .
 وتكفي في طارف الود . وهي رسل الاحباب على البعاد . ومستودع سر اللسان
 والفؤاد . والمناسبة بياض نارساؤها ما في العين من البياض والسواد .

وانا عاتب على الحضرة الفلانية لاغباب رسل قلمها . واجمام صوب كلمها . وقد
 قصرت امانتي على ما يصدر عنها من كتاب . كما قصرتها على مراجعة ايام
 الشباب . فان كلامها يمد بنعمى السرور . ويقذف من ظلماء سواده بنور . ويمتع
 برباب الافكار وربات الخدور . فهذا يمكن من قياد المعاني . وهذا يمكن من قياد
 الغواني . وقد بعد عهدي بالكتاب وقرطاسي وقرطاسه . كما بعد عهدي بالشباب
 ولباسه . ومما برح بي نزول قادمة الشيب قبل قدومها . واختلافها فيما احدثته من
 لونها واللوان همومها . فقرنت عشاء ليلي بسحره . وأهلت شهري بغرة قمره . ولئن
 شاب الرأس فقد شاب القلب من قبله . وكلاهما سبب لصاحبه فأعجب لفرع شيء
 هو مادة أصله .

تَسْتَشِيرُ الهمومَ ما اُكْتَنَّ منها
صُعْدًا وهي تَسْتَشِيرُ الهموما (١)

(٢٨ أ)

واذا نُظِرَ الى حال القلوب والاجساد . وَجَدَ شَيْبُ الفود مستمداً من شيب الفؤاد .
وقد زعم قومٌ انه شعارُ الوقار . واضاءة نورِ الهدى في خلال العذار . وهذا قولٌ من
ابدى الرضا بحكمه . اذ لم يَجِدْ محيداً من ظلمه .

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ لِلشَّيْبِ فَضْلاً
جاوَزَتْهُ الأبرارُ في الخُلْدِ شيباً (٢)

ولذلك يَتَحَيَّلُ الناسُ في ستره بضروب الصبغة . غير انهم لم يجدوا فيها ما يؤدي
الى بُلغَةٍ . وقد وجدتُ صبغته في سرور النفس بمساعفةِ آرابها . فانها صبغة لا يتعدى
النصول الى خضاها . ولا أجد ذلك الآ في لقاء الحضرة الفلانية . فانها الخطوة التي
يتوجه اليها المنى . ويقصرُ عليها الغنى وترجع بها الايامُ العامةُ برة . وتعود جديدة
كما بدأ اللهُ أوّل مرّة . والسببُ تُمحي بالحسنة . والمواردُ العذبةُ تذهب بالموارد
الآسنة . وقد يحدث الزمانُ شيمَةً وان تكن أهلها . وقد قيل ان توبته كتوبة مُنتَهية
تَجِبُ ما قبلها . وانا ارقبُ منه متاباً . وارجو من اللقاء اياً بان شاء اللهُ تعالى .

[٩]

ومن ذلك كتابُ كتبه عن نفسه الى بعض اصدقائه جواباً عن كتابه :
تألَّقَ برقٌ من جانب المجلس السامي حاطةُ اللهُ بروحه وأمينه . وحباهُ
بسعادة دنياهُ ودينه . وأتاهُ بما يقترحه من المطالب قبل حينه . وجعل خَلِيقَةً
المكارم من خلقه . وطينتها من طينه . فرفعتُ طرفي الى لوامع أنواره . وبسطتُ
يدي الى مواقع قطاره . وقلتُ هذا بشيرُ الرحمة . ورائدُ النعمة . وهو برقٌ تُرجى
حقائقه . ولا تخشى صواعقه . ومن صفاته أنه يضيء على صفحات الافهام . ويتوضَّحُ
من السنة الاقلام . ويبشِّرُ بقوتِ الارواح لاقوتِ الاجسام . وذلك هو الكتابُ الكريمُ
الذي يأتي بِخَصْبِ الاعمال . غيرَ أنَّ هذا يشامُ بعيون القلوب . ويجودُ بما حَلَّتْ
من عُقْدَةٍ مزنه يدُ الجنوب . ولما تأملته أخذتُ بسُنَّةِ الخبر في الصلاة عند نزول
الطر . وليست الصلاةُ الآ الدعاء لمن أرسله . وبسطُ سحابه وأسبله . ثم تناوَلتُهُ فكنتُ
أوّل من حملَ غماماً بيده وأوآه الى مورده وعلى رِية منه فانه لا يزالُ له شاماً . واليه
حائماً . فلينعم المجلسُ بتصريف مخائله . ولتسبق به الخواطرُ فانها من حمائله .
ورأيه أسمى ان شاء اللهُ تعالى والسلام .

ومن ذلك كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء جواباً عن كتابه : (١٢٩)
تَمَوَّعَتْ نَفْحَةٌ مِنْ تَلْقَاءِ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ رَعَى اللَّهُ عَهْدَهُ وَسَقَاهُ . وَصَانَ وَدَّةً
و ٥٠ . وَيَشَّرَ لِي اللَّقَاءَ الْعَصِيَّ بِمَلْقَاهُ . فَعَطَّرْتُ الطَّرِيقَ الَّتِي سَايَرْتُهَا . وَالرِّيْحَ
الَّتِي جَاوَرْتُهَا . وَأَتَتْ فَأَفْرَشْتُهَا حَذَى . وَصَمَّمْتُ عَلَيْهَا وَدِّي . وَجَعَلْتُهَا رَدْعاً لِحَبِيْبِي .
وَلطَيْمَةً لِرُدَيْبِي . وَحِجَاباً لِعَقْدِي . وَعَلِمْتُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَفْحَةٍ طَيِّبٍ . وَلَكِنَّهَا كِتَابٌ
حَبِيْبٍ . فَانْ مَنَاشِقَ الْاَرْوَاحِ غَيْرِ مَنَاشِقِ الْاَجْسَامِ . وَلَا يَسْتَوِي عَرَفَ الطَّيِّبِ وَعَرَفَ
الْاَقْلَامِ . ثُمَّ مَدَدْتُ يَدِي اِلَى الْكِتَابِ بَعْدَ اَنْ صَافَحْتُ يَدَ مُوَصِّلِهِ . كَمَا صَافَحَتْ
عَنْيَقَةَ (١) مَبْذَلِهِ . وَقَلْتُ اَهْلًا بِمَنْ اَدْنَى مِنَ الْحَبِيْبِ مَزَاراً . وَاهْدَى لِعَيْنِي قُرَّةً
وَلِقَلْبِي قَرَاراً . وَلَوْ اَنْصَفْتُ لَقَلْتُ اَهْلًا بِمَنْ سَرَى فِي الْاَسْرَارِ . وَجَرَى مِنَ الْاَبْصَارِ
مَجْرَى الْاَنْوَارِ . وَجَمَعَ لِي بِرُؤْيَيْتِهِ بَيْنَ الْاَوْطَانِ وَالْاَوْطَارِ . وَمَعَ هَذَا الْقَوْلَ فَاَنْبَى لَمْ
أُوَدِّ حَقَّ التَّرْحِيْبِ بِمَنْ اَسْعَفَ بِالطَّلَابِ . وَطَلَعَ عَلَى الْاَمَالِ الْمَحْلَةِ طُلُوعَ السَّحَابِ .
وَإِذَا كَانَ هَذَا لِحَامِلِ الْكِتَابِ . فَمَا ظَنَنْكَ بِالْكِتَابِ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَيْهِ اَحْدَثَ لِي
نَشْوَةَ طَرْبٍ وَنَشْوَةَ اَرْبٍ . فَغَنَنْتَنِي هَذِهِ بِتَرْجِيْعِ مَثَانِيهَا . وَاعْتَنَنِي هَذِهِ بِمَعْسُوْلِ
(٢٩١ ب) اَمَانِيهَا . وَعِنْدَ ذَلِكَ اَخَذْتُ فِي خَلْعِ الْعِدَارِ . وَسَكَّرْتُ مِنْ غَيْرِ مَعَاقِرَةِ
عَقَارِ . وَانَّ مِنَ الْبَيَانِ لَخَمْرًا يُسَكَّرُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيْمٍ . وَلَيْسَتْ بِنَاتٍ لِعَوِيٍّ وَلَا تَأْتِيْمٍ .
فَهِيَ مِنْ سَلَفِ الْاَلْبَابِ لاسْلَافِ الْاَعْنَابِ . وَمِنْ بِنَاتِ الْخَوَاطِرِ لَامِنْ بِنَاتِ
الدَّسَاكِرِ . وَلَا يَخْرُجُهَا مِنْ مَعْدِنِهَا فَيَرْخِصُهَا عَلَى غَلَاءِ ثَمَنِهَا اِلَّا الْبَيَانَ الْفُلَانِي الَّذِي
يَسْتَخْرِجُهَا وَيَخْرُجُهَا وَيُصَرِّفُهَا وَيَمزُجُهَا . وَاِنِّي لِأَجِدُ لَخَمْرَةِ الْفَاظِطِ طَعْمًا زَائِدًا عَلَى
الطَّعْمِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ لَطِيْبَ الْعَصْرِ وَلَا عَتَقَ الْكِرْمِ : شَيْءٌ بِهِ يَسْبِي الْعَقُولَ سِوَى الَّذِي
يُدْعَى الْجَمَانُ وَلَسْتُ اَدْرِي مَا هُوَ

وقد أعدتُ الجوابَ ولم استعِرْ له نظماً ملفقاً . ولا جلبتُ اليه حسناً منمقاً . بل
اخرجته على رسله . وغنيت بصقالِ حُسنِه عن صقله . فجاء كما تراه غيرَ ممشوطٍ
ولا مخطوط . فهو يرفلُ في اثوابِ بذلته . وقد حوى الجمالَ بجملته . والحسُنُ
ماوشته يدُ التصويرِ لا ماحسنته يدُ التزويرِ .. وقد منح اللهُ لساني من ذلك ما حسده
عليه الروضُ الموشعُ . والسمطُ المرصعُ . والقمرُ وهو ابنُ عشرٍ واربع . فخذ ما أدتُه اليك
حقيقَةُ النظرِ . ودع ما نقلتهُ اَحاديثُ الخبرِ . ووازن بين حُسنِ البداوةِ والحضرِ .
(٣٠ آ) واعلم ان هذا السيل من غير ذلك المطر . فما كُلُّ من قال بماشٍ في أثري .
ولا رامٍ عن وتري . ولا اخذ في وردي ولا صدري . فان النبوة غير الكهانة . ولا

ولا يستوي الحقُّ والباطلُ في المكانة

وليسَ كُلُّ ذَوَاتِ المِخْلَبِ السُّبُعِ (١)

ولا استثنى من هذا القول أحداً سوى المجلس ، فإنه في الفضل شقيقي ، كما أنه في الوُدِّ صديقي . فنحنُ رضيعا بيانٍ ، وان لم نكن رضيعي لبانٍ ، وتوأماً ودايدٍ . وان لم نكن توأمي ميلادٍ .

فكلانا يقتدح من زناد صاحبه ، ويأخذ بما يأخذه من مذاهبه ، وحسبي فضلاً أن احذو على مثاله ، وأعد من أمثاله . ولو وقرت قلمي وقاره . وأسلبت على كلمي اساره ، لأكبرت أن ألقاه بهذا القول ، وعلمت انه اوتي علي بسطة في الطول . لكنني اردت أن استعير من فضله ما تجمل به في محضري ، واموه به يوم مفخري . والآ فالسماء نائية على المتطاول ، واين الثريا من يد المتناول ، فيصيح عما قلته ، ويسمح بما ترشحت له وما نلتته . ورأيه أسمى ان شاء الله تعالى والسلام .

[١١]

ومن كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء ابتداءً (٣٠ ب)

واقمت في قلبي وشخصك سائر لا تبعدن من طاعن ومقيم (٢)

أصدرت هذا الكتاب الى مجلس فلان اعلاه الله واسماه ، وصان من غير الليالي والايام حماه ، وأبعد في اكساب العليا مرماه ، ولا جعله في العمل لاجرته ممن يستوي يوماه . عن قلب مانوس بقربه ، وطرف مستوحش لفراقه . فهذا مروغ باظلامه . وذاك ممتع باشراقه . غير ان لقاء القلوب لقاء غيب تمثله خواطر الافكار ، وتتناجى به من وراء الاستار . وذاك آخر الطيف الملم في المنام ، الذي يموه بلقاء الارواح على لقاء الاجسام ، وما بمثله ينقع حر الاشواق الظماء ، ولكنه نقلة المتيمم بالصعيد عن عدم الماء . ولئن اقامت بعده في دار وطن ، وفي أهل وسكن ، فليس الانس بكثرة الناس ، بل بيهجة اليناس . واذا لم تكن سكان القلوب سكان الديار ، فلا فرق بينهما - وان كانت أهلة - وبين القفار .

وما حاجز الآ بليلى واهلها اذا لم تكن ليلي فلا كان حاجز

فمن جفت على النوى شؤونه ، والتقت على اليبين جفونه - فان عهده ذميم ، ووده سقيم . وأرى المنازل وهي جماد أرعى منه ذماماً ، وأخلق (٣١ آ) بالمحافظة ليالي واياماً . الا ترضى أنها لا ترضى في غرامها الآ بسقامها ، ولا يقنع في وفاتها الآ بعفائها - فتباً لشوقي ان رقت عنه قساوة الاحجار ، وزادت بأثرها على ما عنده من الآثار . واني لاخجل من هذا القول وقد وجدت على البعد مصطبراً ، ولم (ترعه

لي) (١) الفراقُ سَمْعاً ولا بَصْراً . لكن يَقُومُ عُذْرِي فِي ذَلِكَ بِأَمْرِ (النجلاء نَدِيمُ) (٢) غرس الحياة بالاسقاء ، وما يُمسك ذمء النفس كالاماني وموهب . والآمال ومطالبها . وانا ارجو ان يُتَاحَ لايام الاجتماع يوم معادها ، وتردُّ رُوحها الى اجسادها ، لأخاصم ايامَ الفراقِ الى رَبِّها ، وأخذ منها بذنبها . واجزي سيئات الاشواق باعمالها ، واعطيها كتابها بِشمالها .

وما أنا من أن يجمع الله شملنا كأحسن ماكنّا عليه بآيس وقد علم انه ليس للشوق زاد في ايام البعاد . إلا ماتهديه الية اليد عن الفؤاد . وذلك هو الكتب التي في نجواها لقاء لمن شطت محلته ، وفي قطرات اقلامها ري لمن اضطرمت غلته . فليجمع شملي بشملها (٣١ ب) الى ان يقدر الله جمع الشمل بأهلها . وليعلم انها هدية تحل محل مُرسلها . وتطوق الاعناق بمئة موصلا . والله لا يخلي من خبره إلا بنظره ، ولا من كُتبه إلا بقربه إن شاء الله تعالى .

[١٢]

ومن كتاب الى بعض الاخوان جواباً عن كتابه :
 وصل كتاب حضرة سيدنا لازالت اقلامه منتقلة من منبت أجم الى منبت حكم ،
 ومن استسقاء قَطْرٍ الى استسقاء بحر ، ومن مجاورة ليث غاب الى مجاورة ليث
 خطاب ، فاطرب اذ اغرب ، وأزهر اذا اسفر ، فعلمت ان من البلاغة الحاناً ، ومن
 الكلم ورذاً وريحاناً . ولقد غدوت من حُسنه البديع . في فصل ربيع . فكلما شاقنتني
 سَطوره . قلت : روض سنج وكلما غنتني الفاظه ، قلت : حمام صدح ، وكلما
 سقنتني معانيه ، قلت : غدِيرَ طَفْح . فما أدري ماأصف ، ولا عندما أقف ، غير اني
 وجدته قد حوى اسرار البيان جزالةً ولطفاً ، وعرف منها ما لم يألّف البلغاء له عرفاً ،
 وأنسى ماتقدم من أساليبها فعصف بها عصفاً . ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها
 ربّي نسفاً . وما أقول إلا انه الآية الموسية التي أتت تقلب الاعيان . وتنقل العصا الى
 صورة الثعبان . (٣٢ أ) فلمثله تسجد شجرة الكلام . وتؤمن بأية قلبه التي تلففت
 آيات الاقلام . وها أنا قد سجدت له وان لم اكن ساحراً بقلمي ، لكنني زدت به
 غراماً ، فسجدت له إعظاماً . وقد يسجد لحكمة البيان كما يسجد لحكم القرآن .
 ومما اعتده لنفسي فخاراً واتخذة لفضلي مناراً . اني إذ فاتتني مُضاهاة مكانها . ام
 يفتني العلم بمزية إحسانها . والعلم بالفضيلة . ومن لم ينل زهر الخميلا كفاه نظر
 الخميلا . وقد اصدرت كتابي هذا جواباً عن اصدار كتابه لاجواباً عن فضل
 خطابه . فأن موازنة المداد بالمداد أيسر من موازنة الفؤاد بالفؤاد . وليس من عمل

يبدأ كمنُ أعملُ فكراً . ومعادنُ القلوب كمعادن الأرضِ صُفراً وتبراً . فليرضِ مني
 بما عندي . ولا يكلفني فوقِ وجدي . فما كُلُّ هاتفةٍ ورقاءٍ ولا كُلُّ ناظرةٍ زرقاءٍ .
 وأنما يبلغُ الانسانُ غايتهُ ماكلُ ماشيةٍ بالرجلِ شمالاً

ومن ألقى سلاحه فقد استسلم . ونصفُ العلمِ قولُ لأعلم . فان شاء سيّدنا ان
 يجعلُ لساني خطيباً . وخاطري قليلاً . فليتحفني بفضلةٍ من كاسه . وليمدني
 بشيء من أفوافِ قلمه وقرطاسه . والسلام ان شاء الله تعالى .

[١٣]

ومن ذلك كتابُ كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان ابتداءً : (٣٢ ب)
 تَرَحَّلْتُ عنكم لي أمامي نظرةً وعشرٌ وعشرٌ نحوكم لي ورائياً
 أصدرتُ هذا الكتابَ الى حضرةِ فلانٍ عن قلبٍ مُقيم . وجسدٍ سائرٍ وصبرٍ مليمٍ .
 وجزعٍ غادرٍ . وخاطرٍ أدهشتهُ لوعةُ الفراقِ فليس يخاطر . فهو يشكو الاشواق التي
 أصمتهُ بسهمها . وانزلتهُ على حكمها . فهي وان لم تكن قاتلةً . فانها حائلة . وان لم
 تكن محرقةً . فانها مُقلقةً .
 يغلي اذا لم يضطرمُ ويَري اذا لم يحترق . ويغص ان لم يُشرق (١)

وهذه شكوى لايشكى منها الا مساعفة الايام . بمعاودة (٢) الاجتماع والالتئام
 فالمشكؤ اذا هو حادث الفراق . الذي نشأت عنه لوعةُ الأشواق : ولم يجنه الا بنات
 القفار . من ذوات السروج والاوكار . فانها طالما فرقت حبيباً . وباعدت قريباً . ولم
 تترك بالدار غريباً . كأنها من اخوات الدهر في حوادث صروفه وما يعول عليه المرء
 في الفه ومألوفه .

مالمالبلايا الا المطايا وما فر ق شيء تفريقها الاحبابا
 فانا ادعو عليها ان تضل في سبيلها . وترمى بالفناء في نسلها . حتى تعطل البين
 ورحله . ويستقر بكل بلد أهله . وحسبها فناء ماُميت به من ظهور (٣) الجوانح
 وقطع الصحاح (٤) . فانهما يقذفانها بالموت الزعاف . ما بين حر الاكباد (٥٣ أ)
 ونقب الاخفاف . ولئن كانت سبأ في تباعد الاقوام . وتبديل المنازل والايام . فلولا
 جناية النفس في أعمال مسيرها . ومفارقة عشيرها . لما كان للركاب سلطان في
 تطويح رفقته . أو تبريح فرقة . فاللوم على النفس لاعلى المطايا . ولا تؤخذ ذوات
 الخطى بذنوب المطايا . والسلام :

عَدَّةٌ كُتِبَ تَتَضَمَّنُ التَّعَازِي وَالتَّهَانِي

فمن ذلك كتابُ كتبه عن نفسه الى شخصٍ بدمشق يعزيه عن والده . ويبدلُ له المودَّة التي كانت بينه وبينه . وهو :

على أَيِّ عَرْنِينِ غَلَبْنَا وَمَارِنِ وَأَيَّةُ كَفِ فَارَقْتْنَا وَسَاعِدِ (١) !

أحسنَ الله عزاءَ المجلس السامي الفلاني . وأجزل من الثواب جزاءه . وحفظ عليه إكرامه واعزاه . وجعل الى الصبر انتسابه واعتزاه . وبعد . فلو اخبرتُ كتُبَ التعازي عن حال مصدرها . واعربت منظره بمنظرها . لجاء هذا الكتابُ وقد شقَّ قرطاسه . كما يُشَقُّ من الثاكل جيبُ لباسه . وأبدت الكتابة على وجهه . وتكاثرت العثراتُ في خُطى أقدامه . ويَقْلُ ذلك (٣٣ ب) لوفاة السيد الاجل فلان أرضاه بالعيشة الراضية . وحباه بما يصغرُ عندها أمر دنياه الماضية . فأني قلبٍ عليه لم ينصدع . وأني صبرٍ لم يمتنع . وأني دمعٍ لم ينسجم . وأني عيشٍ لم ينصرم . ولقد بكاه البعيدُ بكاء القريب . حتى كأنه للناس صديق أو نسيب . فالايامُ بعده ليال . والهمود ملء والآمال خوال . ولا يُعرف فقدُ النهار إلا بعد الاظلام . ولا قدرُ اليسر إلا بعد الاعدام . وريبُ الدهر له تطلُّعُ الى رؤوس الذرى من عين الورى . ولذلك يجفُّ زهرُ الربى قبل الوهاد . ولا تختلف من النجوم غير الافراد .

كَأَنَّ الرَّدَى عَادَ عَلَى كُلِّ مَاجِدٍ إِذَا لَمْ يُعَوِّذْ مَجْدَهُ بِغُيُوبِ (٢)

وفي بقاء المجلس خلفُ يرضي المكارم استخلافه . وتستأنف به تجديد عهدها فيحمد استناباه . واذا أفلح سحابٌ نشأ سحاب . واذا أفل شهابٌ طلع شهاب .. فلا أخلى الله المكارم من سيِّدٍ منهم يلي زعامتها . ويشدّد دعامتها .. وأبقى المجلس لها خليلاً . وبها كفيلاً . ولئن كان الماضي له وكراً فقد كان لي جناحاً . او كان له ظهراً فقد كان لي سلاحاً . فكلانا فقد منه ما فقد . فانا ادعوه (٣٤ آ) بدعاء الاخ وهو يدعو بدعاء الولد . وقد علّم ما كان بيني وبينه من توثقة العهد الذي جعله الله مسؤولاً . وتوثقة الود الذي جعلته الايام ذماماً موصولاً . ونسب المؤدات كنسب الميلاد . وحقوقها موروثه كالمال التلاد . وخيرها ما لم يمت بموت مجتبيه . وحفظ فيه الولد لأبيه . فكلُّ مودَّةٍ لاتفي بعد الوفاة . ولا تحيا اذا صارت العظام الى الرفات . فليست ممأ يغتبط باقتنائها . ولا يعتمد على تأسيس بنائها . فقد نقلت مودتي الى المجلس انتقال فريضة الارث المستحقة . وصارت في يده كالملك المتاع والرقبة المسترقة . فليسلمها تسلّم من استحقها (٢) فوفاه . ولا يتصرف فيها تصرف

وارث لا يعلم ما حدث كفاًه . على اني قد بذلتها له بذل من يحمله على علاته .
ويلمه على شعث خلاته . ومن شيمتي أن أشرب الصفي على الكدر . ولا أغير له على
اختلاف الغير . والسلام ان شاء الله تعالى .

[١٥]

كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء بالموصل جواباً عن كتابه . وكلفه ان
ينوب عنه في التعزية بوفاة النقيب شرف الدين نقيب العلويين .

وصل كتاب حضرة سيدنا الاخ فلان جمع الله شملي بشمله . وعمر ربيع
(٣٤ ب) الانس منه باهله . واعاد لي ليلة سفحه وايام ائله . وجاءني من لقائه
باسعاد سعده واجمال جميله . فوقفت عليه وقوف محب كثر في الدار لائمه .
لاؤقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه (١) . شعر :

وكنت جديراً حين اعرف منزلاً
لال سلمي أن يُعنفني صبحي

وما شبت كتابه في وروده وانقباضه . الا بنظر الحبيب في اقباله واعراضه .
وكلا الامرين كالسهم في ألم وقعه وألم نزعته . والمشوق من استوى غرامه في حالتي
وصله وقطعه . وما لذلك على وجل من ارسال كتبه واجمامها . واشتباها لمها
بالمأما .

وأحلى الهوى ماشك في الوصل ربه وفي الهجر . فهو الذهر يرجو ويتقي (٢)

وكنت أنبسط خاطري لجوابه فجاش . واستنجدت فكري له فاستجاش . غير
انهما ذهلا بخبر وفاة الصدر الكبير شرف الدين رضي الله عنه فانه آيس من
احدهما ماعان . وخذل من الآخر ماعان . فاعذرنى في تبلدي وتلدي . وذهاب
جلدي وتجلدي . فاني عدمت صبراً . وارهقت من امري عسراً . واذا كان هذا
شأني . ولم يخلص الي سوى الخبر . فما شأن من حضر ورأى احدي الكبير؟
(١٣٥ آ)

رأوا شمسهم في يومهم وهي ظلمة
وبدرهم في ليّلم وهو أفل (٣)

ولقد أوحشت منه المعالي كما أوحشت المنازل . وأمت المكارم كما أمت
الخلائل . وعمت لوعة خطبه فما يشتكى ثكل الآ الى ثاكل .. وما اقول فيمن
عدمت الارض منه حياها . والمحامد محيها . فلو نطق الجماد بلسان . وتصور
المعنى لعيان . لأعربت تلك عن ظماً صعيدها . وبرزت هذه حاسرة حول فقيدتها .
ولئن مضى على رغم الآمال . ورغم الاحسان والاجمال . فلقد ردت حياته شيمه . ولم

يَمْتُّ مِنْ عَاشٍ فَضْلُهُ وَكِرْمُهُ . فَلْيَنْبِ الْإِخُ فَلَانَ عَنِي فِي تَأْدِيَةِ حَقِّ الْعِزَاءِ . وَتَذَكَّرِي بِمَا لَهُ مِنْ حُسْنِ الْجِزَاءِ . وَقَدْ تَهْدِي الْفَضِيلَةَ إِلَى مَنْ أَخَذَتْ عَنْهُ . وَرَبُّ حَامِلٍ فَتَهُ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ . غَيْرَ أَنَّ التَّوَقُّرَ وَالْأَرْضَ مَائِثَةً لَا يَدْخُلُ تَحْتَ طَوَاعِيَةٍ . وَلَا تَتَّصِلُ بِهِ أَسْبَابُ طِمَاعِيَةٍ .

تَكَفَّأَ مَتْنُ الْأَرْضِ يَوْمَ تَعَطَّلَتْ
 مِنَ الْجَبَلِ الْمُنْهَدِّ تَحْتَ الْفِدَائِدِ (١١)

وَكَنتُ أَرَى أَنَّ الصَّبْرَ عَوْضٌ بَاقٍ عَنِ فَانَ . وَانَّهُ رَأْسُ الذِّكْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي هُوَ عَمْرٌ ثَانٍ . حَتَّى حَدَثَ هَذَا الرِّزْءُ فَأَصِيبُ الصَّبْرُ بِمِصَابِهِ . وَذَهَلَ التَّقْوَى عَنْ فَضِيلَتِي ذَكَرَهُ وَثَوَابِهِ . وَقَدْ تَمَدَّحَ بِهِ قَوْمٌ فَطَالُوا . وَقَالَ فِيهِ (٣٥ ب) الْوَاصِفُونَ فَطَالُوا . وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لَمَّا تَقَدَّمَ لِخُطْبِهِ يَوْمَ كِيَوْمِهِ . وَأَصِيبُ بِهِ قَوْمٌ كَقَوْمِهِ . فَمَا هَذَا الْخُطْبُ الَّذِي ابْتَدَعَ الْخُطُوبَ . وَشَقَّتْ لَهُ الْقُلُوبُ كَمَا شَقَّتْ لِغَيْرِهِ الْجِيُوبَ . فَانَّ الْجَزَاعَ عَلَيْهِ مَعْدُورٌ . وَالطَّمَاعَ فِي الصَّبْرِ عَلَيْهِ مَعْرُورٌ .

فَلِكُلِّ مَفْجُوعٍ سِوَاكُمْ مُشْبَهُ
 وَلِكُلِّ مَفْقُودٍ سِوَاهُ نَظِيرٌ (٢)

فَلَا شَمْتَ الْإِعْدَاءِ بِتَقَشُّعِ غِمَامَةٍ خَلْفَهَا زَهْرُهَا . وَمَغِيبِ شَمْسٍ رَدْفَهَا قَمْرُهَا . فَقَدْ وَفَى السُّبْحِيُّ بَرَزَ الْمَيْتِ . وَإِذَا سَلِمَ مِنَ الْبَيْتِ دَعَائِمُهُ فَمَا هِيَ بِنَاءُ الْبَيْتِ . وَلَمَّا أَطَلَتْ فِي سِنَا الْمَقَامِ وَهُوَ مَوْضِعُ الْإِفْحَامِ . فَانْ دَمَعِي غَاضَ فَظَهَرَتْ عَلَى اللِّسَانِ مَنَابِعُهُ . وَلِذَلِكَ رَقَّتْ حَوَاشِي لَفْظِهِ حِينَ اسْتَجَابَهَا قَائِلُهُ وَسَامِعُهُ . وَمِنْ عِلْمَةِ الْمَفْجُوعِ أَنَّ يَجْرِي لَفْظُهُ فِي الرِّقَّةِ مَجْرَى الدَّمْعِ . وَقَدْ لَبَسْتُ الْحَدَادَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْكِتَابِ . وَلَوْ لَمْ يَشِبْ رَأْسِي لِبَلْوَى الْهَمِّ لِاسْتِجَادَةِ بِلْوَنِ الشَّابِّ . وَلَا اقْتَعَرْتُ مَعَ شَهَادَةِ الْوُدَادِ إِلَى اسْتِنطَاقِ اللِّسَانِ عَنِ الْفُؤَادِ . فَانَّ وَدِّي مِمَّا يَزِيدُ عَلَى النِّسَبِ نِسْبًا . وَيَرِثُ خَلِيلَهُ الْمَاضِي حَزَنًا إِذَا وَرِثَ أَهْلُهُ نَشْبًا . وَفِي عِبَادَةِ الْإِخِ فَلَانَ عَنِي مَا يَفُوتُ مَدَى الْبَيَانِ . وَيَقِيمُ الْخَبَرَ مَقَامَ الْعِيَانِ . وَالسَّلَامُ أَنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى (١٣٦ آ) .

[١٦]

كِتَابُ كَتَبَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى وَالِدِهِ جَوَابًا عَنْ كِتَابِهِ الْمَخْبَرِ بِوَفَاةِ أَخِيهِ رَحِمَهُ اللَّهُ . وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى الْمَوْصَلِ .

وَصَلَّى كِتَابُ مَجْلِسِ الْمَوْلَى حَرَسَ اللَّهُ مِنَ الْحَوَادِثِ جَنَابَهُ . وَحَفِظَ عَلَيْهِ أَعَزَّتَهُ وَأَحْبَابَهُ . وَأَجْزَلَ عَلَى هَذِهِ الْمَصِيبَةِ ثَوَابَهُ . وَلَا لَقِيَّ بَعْدَهَا مَا يَسِيءُ بِهِ ظَنًّا . وَلَا يَقْرَعُ سَنًّا . وَلَا يَحْمِلُ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ ضَغْنًا . وَجَعَلَ بَقَاءَهُ عَوْضًا يَأْسُو كُلَّ كَلِمَةٍ . وَيَرَابُ كُلَّ ثَلَمٍ . وَيَحُلُّ عَقْدَةَ كُلِّ هَمٍّ .

فوقفتُ عليه وألفيته مخبراً بوفاة الاخ فلان . مهّد الله له الى الجنّة طريقاً . وجعله
لترفيق الاعلى رفيقاً . فعَمِي طرفي عن نظره . وصمّ سمعي عن خَبْرِهِ . ووقف لساني
فلم يمض بقراءة أسطره . وزاد ما بي كثرة الأمرين بالصبر والتسليم . ولئن علمت
ان ذلك اجدى عليّ قرب علم لا ينتفعُ به العليم . ولقد بكيتُه حتى أرقّت كل عين
شحيحة . وأعديتُ بدائي كل كبدٍ صحيحة . وما أصنعُ بالحياة وقد فقدتُ من كان
قَسِيمَهَا . وعَدَمْتُ من كان جَنَّتْهَا ونعيمَهَا . وأصبحت بعده كمنقلة فارقتها انسانها . أو
يد بان عنها بنائها . ولا أقولُ كما قالت الخنساء (١) :

ولولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي
وما سيكون مثل أخي ولكن أغزى النفس عنه بالتأسي

(٣٦ ب)

فان هذا قول من اقام بعزائه عُذراً . ووجد بعد اخيه صبراً . لكنني لم اتأس على
اخي بكثرة الاشباه والامثال . ولم ينخ اسفي عليه مرّ الايام والليال . وليس حزني
مما يخفّ باليأس من اياه . ونفض اليد من ترابه . ولا مما يذهب العلم بحسن
مصيره . وما اعده الله من نصرته وسروره . فان ذلك داء لا يحسم الا بورودي على
مشرعه . ومشاركتي اياه في مصرعه . ولو روي من ماء الحياة لكان للآسى منزع .
وفي الصبر مطعم . لكنه عوجل ولم يدق سكر الشباب . وانزل ولم تثبت رجله في
الركاب . ويعز علي ان يذبل من دوحتي (٢) ذلك الغض المياد . او يفارق ناظري
ذلك الكوكب الوقاد . فقد كان املني الذي به اصحب الايام . ومجدي الذي به
افاخز الاقوام . وكنانتي التي تجمع سهام المطالب . وجنتي التي تقبي سهام
النواب .

ومما شجاني اني كلفتُ بعدهُ بزيارة المقابر . وامدادها بالدموع البوار . فلم ارقبراً
الا منحته وأنسته وجداً . وعفرتُ عليه قلباً وخذاً . حتى كادت تجيبني اقطاره .
وترقُّ لي احجاره .

لقد لأمني عند القبور على البكا خليلي لتذراف الدموع السوافك
فقال : أتبكي كل قبرٍ رأيتُه لقبرِ ثوى بين اللوى فالدكادك

(٣٧ آ)

فقلتُ له : ان الشجى يبعث الشجى فدعني فهذا كله قبرُ مسالك (٣٦)

وهذا جُهْدٌ من ضاقت عليه الأرض باقطارها . ولم تصل يده الى الاخذ بشأره
 قتباً للموت لقد فجعني بواسطة عقْد . وغلبني على بارقة غمْد . وهُدْ مني ذرْوَة
 شاقق . واخذ لي نور بارقٍ ونار طارق . فياليتني فديته من الردى . او سبقتني
 هذا المدى . وعليه مني سلامٌ حزين لا ينفدُ حزنه . ولا ترغّب في مرأى ولا مسمع
 عَيْنه ولا اذنه . وسقى قبره كل حيا مدرار . وعطّر ترابه كل نسيم معطار . وحيّاة
 كُلّ نجمٍ وشارقٍ ماأظلم ليلاً وضاء نهار . على ان هذا كله لا يبيل لي أواماً . ولا
 يشفي مني سقاماً . فان حرّ الحزن لا ينضخ باهداء السلام . واستسقاء صوب الغمام
 ولو رأى شخص الموت لبسط يدي الى دفاعه . ولم احفل بهول منظره ولا كثرة
 اشباعه . وكنت مليئاً بفعلٍ مضر به . ورده على عقبه . والآ فما تغني المعونة باللسان
 ولا تجدي المحاماة اذا لم تكن بسيفٍ ولا سنان . والسلام ان شاء الله تعالى .

[١٧]

ومن كتاب كتبه عن نفسه الى [ابن] (١) الامير مجاهد الدين رحمه الله وقد وثب
 الاسماعيلية بالمسجد الجامع في سنجار في الجمعة ثامن المحرم سنة تسع وتسعين
 وخمسائة وقتلوه (٣٧ ب) وكان هذا الامير مجاهد الدين (٢) كثير الغزوات في
 الفرنج . أرض الشام مشهوراً بالدين والصلاح .

طوى الجزيرة حتى جاءني خَبْرٌ فزَعْتُ فيه بآمالي الى الكَذِبِ
 حتى اذا لم يدع لي صدقهُ أملاً شَرَقْتُ بالدمع حتى كاد يَشْرُق بي (٣)
 لو لم يلبس قلم الخادم ثوب الحداد لهجر مداده . ونفى عنه سواده . وبعد عن
 قرينته . وعاد الى طينته وحرم على نفسه ان يمتطي يداً . او يجري الى مدى . لكنه
 احد فندب . وبكى فسكب . وسطر هذا الكتاب من دموعه . وضمّنه ماحملته احناء
 ضلوعه . وانما استعار ذلك من صاحبه الذي اعداه . وابدى اليه من همّه ما ابداه .
 فقد اخذ منه . وقال عنه . وناب في تعزية المجلس السامي احسن الله صبره . ويسر
 له امره . وارضى عنه دهره . وفحوى هذه التعزية ما حدث من وفاة والده رحمه
 الله . وجعل سعيه مشكورا . ولقاه نضرة وسرورا . ولقد اصم نبأه فاسمع . وتناول
 الصبر فاغاض والحزن فاتبع . واشرك الخادم فيما احده من مصابه . وان لم يكن
 من ذويه ولا انسابه . لكن المودة امس من الرحم ميلاداً . واقرب وصله وانجاداً .
 (٣٨ آ)

لاخير في قُربى بغير مودّة ولربُّ منتفع بوذّ اباعد

وهذا الخطبُ اعظمُ من ان يُرضى له بامتناع الرقاد ، وانصداع الفؤاد ، واسبال الدماغ ، واقفضاض المضاجع ، بل هو صيحةٌ صَمَّتِ البلادُ لها حشاها ، وفوجئت منها بما غشاها ، فما للارض ثابتةٌ وقد خَفَّ عنها جَبَلُها ، وما للشمس طالعةٌ وقد احاطَ بها طُفْلُها ! وما للرياض مخضرةٌ وقد نضب عنها منهلها ! ومما خفض على النفس ان فقيدتها مات ميتةً كانت الجنَّةُ لها ثمناً ، وجوار الله فيها سَكناً ، فعاد حياً بعد مماته ، وِعَوْضُ بنعيم الآخرة وكراماته ، ولقد ارتدى اثواب موته حُمراً ، فأمستُ وهي من سُندُسٍ خُضراً ، وتلك درجةٌ تودها الهممُ العظيمة ، وتعملُ لها النفوس الكريمة . حتى ان صاحبها يتجاوز ان يكون محموداً الى ان يكون محسوداً :

أطابَ النفسَ أَنْكِ مُتْ مَوْتاً تَمَنَّتْهُ البواقِي والخوالِي (١)

ومن فضله انه أتيح له أجرُ الجهاد وهو في باب داره ، وعَلِمَ اللهُ ما يؤثره منه فأتاه بايثاره ، ولطالما أسرى اليه محتشداً ، وبذل نفسه فيه مجتهداً . لكن أبى الأمد الذي كان مقدرأ ، وأذ لم يأتَه مَقْدَمًا فقد أتاه مؤخرأ . فليلزِم الوشيحُ بعده مواطنه ، والحديدُ معادنه ، ولتُبكه (٣٨ ب) الحربُ وما حوته من مَوَاقِد نارها ، ومثار عُبارها ، ولئن شُقَّتْ على غيره الجيوب . فقد شُقَّتْ عليه الاعلام ، واوحشت من غيره الديار ، فقد اوحش منه الجيشُ الهمام . فرزوه في الرزايا كمزيتته في المزايا :

فكم غَيَّبَ التُّرْبُ من سُودِدٍ وغالَ البلى من جميل الهلاء (٢)

وفي بقاء المجلس عزاء عن هذا الخطبِ واهواله ، وأنما يتعزى عن الذهابِ باشباهه وامثاله . ولو شعر والده رحمه الله بما سدَّه من مقامه ، لسرى النشورُ في رمائ عظامه ، ولعلم أنه ابتنى ما كان له بانياً ، وأنه ردَّ اليه عمراً ثانياً . فلا اخلى الله السيادةَ من قائم منهم يقومُ بأمرها ، ويرتدي رداءَ فخرها ، ويحظى دون الناس بثيها وبكرها . وقد كان يجبُ على الخادم ان يشافه بهذه الخدمة معجلاً ، وان لا يقنع بخطاب قلمه مُرسلاً . فليعذرهُ المجلسُ في تأخر حضوره ، والاكتفاء مما يجبُ عليه بميسوره ، وليأخذ باذن الله فيما يأتيه من مكارمه . فانه يحب ان يؤخذ برُخصه كما يحب ان يؤخذ بعزائمه . والرأيُ أعلى . ان شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن نفسه الى مخدومه الملك الافضل على بن يوسف يتضمّن ترميزه
ببرئه من مرض . (٣٩)

يُقْبَلُ الارضَ بَيْنَ يَدَيْ مولانا الملك الافضل . نور الدنيا والدين اقر الله بسلامة
حوبائه عيون الانام . وزاد بامتداد عمره في نضاره شبة (١) الايام . وجعل عليه من
كلائه حارساً في اليقظة والنام . وضرب على اعدائه رصدين من ضوء الضبح
والاطلام . وينهى انه منذ علم وعكة المزاج الكريم . سرت الامراض الى قلبه
وجسمه . ووجدتها في كل شيء حتى في امله وعزمه . وغير بدع ان يمرض العبد
لمرض مولاه . وان يجعل الشركة في ذلك جزاء لما اولاه .

وإنَّ مُحَالاً إِذْ بَكَ العَيْشُ أَنْ أرى وَحِسْمُكَ مُعْتَلٌ وَجِسْمِي صَالِحٌ (٢)
ومن سنة الملوك انه يستعين فيما اهمه بكثرة السجود . ويستنجذ من الدعاء
الصالح بكثرة الجنود . ويأوي الى بيوت الله التي اذن ان ترفع . ويعلم انها المرفع
الذي يمنع وينفع . فان يد الابتهاج ترفع فوادح الاعباء . وطب الهياكل انفع من
علاج الاطباء . ولقد بلغ به الاشفاق الى انه ودا ان يكون لمولانا البرء وله الوصب .
ولمولانا السلامة وله العطب .

وحسبُ الفتى من وده ووفائه تمنيه ان يردى ويسلم صاحبه
ومما شغ قلبه . وزاد كربه . ورود الخبر ان هذه الوعكة طال مقامها . (٣٩)
ب) وتكرر المأمها . وما تقول ان مكثها الا سعفا بتأمل مجده العميم . لاقتصاد
لاذى مزاجه الكريم . واذا علمت ما عند مولانا من حب الندى . فانها جاءت لاجتداء
العافية في جملة ما يجتدى . ولقد يفتن جوده في اتلاف الجوهر والغرض . حتى
وهب عافيته فداء المرض .

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها . فليتنق الله سائله (٣)

وأما الايام وما البستها مناقب مولانا من بشاشة جمالها . وتقضته عليها من
روعة جلالها . فانها ابدت في وجوها قطوباً . وفي الوانها شحوباً . وكادت الخطوب
ان تسط باعها . والمعالي ان تحسّر قناعها . حتى قيل ازلزلة ما دت بالدهماء . أم
كسفت سقط من السماء . هنالك ابتلي الاولياء وزلزلاً شديداً . وظن الاعداء ظناً
راوه قريباً وراه الله بعيداً . ولما وصل خبر العافية . مرت قلوب كانت طائرة .
ورقدت عيون كانت ساهرة . وعادت مسرات كانت عازبة . ووجبت نذور لم تزل في
معالي مولانا واجبة . واقبل الناس على الهناء فتقارضوه قرضاً . وهناً بعضهم بعضاً .
وتمثل كل منهم بقول ابي الطيب : (٤)

وأنا منك لا يُهْنِي عُضْوُ

بالمسرات سائر الاعضاء (٤٠ آ)

ولم يُرِ المملوك إلا شاكراً بقلبه ولسانه ، راضياً بحسن عافية المولى عن اساءة زمانه . ولا يد اعظم من يد المخبر بهذه البشرى . وكلُّ يمكن جزاؤها إلا اذا كانت كهذه اليد الكبرى . فلو خلعت عليه العيون انوارها ، والقلوب اسرارها (١) . لما قامت بازائه ، ولا استقلت بجزائه . والمملوك وان اطاعته اعنة الكلم . وسبح في يده لسان القلم . فانه لا يحيط بكنهه اوصافها . ولا ينتهي الى شكر الطافها . لكنه يجتهد مع اقراره بالتقصير . ويقول : « ولكن ضاق قترٌ عن مسير » (٢) . على انه لا يدعي اختصاصاً بهذه البشرى التي عمّت وجوه نفعها . وكانت كالغيث في عموم وقعها . لكن يدعي انه اولى الناس بها حمداً . واكثرهم منها وجداً . وله على هذه الدعوى شاهداً عدلٍ من ولائه المتقادم . ولا يفتقر مع اعتراف قلب المولى الى اقامة بينة ولا حكم حاكم . وللآراء الشريفة مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[١٩]

كتاب آخر كتبه عن نفسه الى مخدمه الملك الافضل يهنيه بملك مصر . وراسله من الموصل في ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمس مائة . وكانت مصر لآخيه الملك العزيز عثمان (٣) . وهو الذي انتزع دمشق من يده (٤٠ ب) في سنة اثنين وتسعين . واخرجه الى حصن صرخد . فقدّر الله سبحانه أن مات . واجتمع العسكر المصري على اختيار الملك الافضل من بعده . وارسلوا اليه واستدعوه من حصن صرخد . فسار اليهم سراً . وكان عمه الملك العادل ابو بكر بن ايوب (٤) قد طمع في ان يملك مصر . وسعى لذلك . وارصد للملك الافضل ارسداً يمنعونه عن طريقه فانجاه الله منهم .

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » (٥)

يُقْبَلُ الارض بين يدي مولانا الملك الافضل نور الدنيا والدين . جعل الله الليالي والايام من جنده واظهر آيته في اعلاء امره . وتجديد جده . ووهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . وعقد له لواء نصر لاشركة للناس في عقده . ويهنيء مولانا باثر نعمة الله المؤذنة باستخلافه واجتباؤه . وتمكينه حتى بلغ أشده واستخرج كنز آبائه . ولو انصف لهنا الارض منه بوابلها . والائمة بكافلها . وخصوصاً ارض مصر فانها حظيت بشرف (٤١ آ) سُكْنَاهُ . وغدت بين بحرين من فيض البحر وفيض يمناه . فاضحت تشمخ بأنفها . وتسمو بطرفها . وتجبر من الايام وصرفها . كأنما حيزت لها الدنيا بحذافيرها . او سيقت اليها الجنة بنصرتها وسرورها .

مازلت تدنو وهي تَعْلُو عِزَّةً حتى تَوَارَى في شَرَاهَا الْفَرْقَدَانِ

وقد كان منتهى امل الاولياء ان تعود الضالة الى ربها . وتفك الضريدة المغصوبة من يد غصبها . فأتى فضل الله بما لم يبلِّغهُ امل الأمل . وعوَّض عن القصرة الواحدة بسحابِ هاطل . وهذه نعمة يضيق عنها مجال القول المعاد . ويسرع بيبضها في سواد عين الحساد . ويقوم لسانها خطيباً في كل ناد . فلو ظَلَّت الحياة ساجدة . والقلوب حامدة . والايدي برفع العاء بادئة وعائدة . لما وقى ذلك بحقها . ولا اخرج الاعناق من عهدة ربها . واحسن ما فيها انها زارت عن غير ميعاد . وحشت على ركبها من غير سائق ولا حاد . واغنت في بذل مائها ومرعاها عن الفراط والزواد . وتخطت وقد ضرب دونها بسور من صدور الظبا ورؤوس الصعاد . فلم يكن فيب لاحد منة سوى الله الذي قرب اسبابها . وفتح مستغلق ابوابها . وأبرزها على حين مهلة من حجابها . فيجب على مولانا ان يحرسها بالانفاق . (٤١ ب) ويُقَيِّدُهَا بِالاطلاق . فيقبض اجنحتها لتظلل طائرة في الآفاق .

والمملوك في هذه الوصية كقصيل نصل له من جوهه صقال . وعامر سحاب له من طبعه انهمال . ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه . ولقد شرق بهذا الامر قوم كانوا له أمليين . وعليه عاملين . حتى تحجروا بدقيق نظرهم على الاقدار . ومكروا له مكر الليل والنهار . فليرجع (٢) كل منهم من حيث اجمع . او فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع . فرب مرشح للسبق لم يدر انه يسبق . ومدخر لنفسه وغيره الذي يوزق . وما يدري البيان ما يقول في هذه النعمة وعمومها . والافاضة في وصفها بمنثور الالفاظ ومنظومها (٣) . فان الاطناب فيها ايجاز . والتحدي بالافصاح عنها اعجاز . والناس في التحدث بها بين اصدار وايراد . وفي الاحتفال لها في ايام جمع وأيام اعياد . كأنها في السنهم اسمار . وفي صدورهم اوطار . فلا يرى الا محدث وسامع . وساجد وراكع .

ذاك السرور الذي (٤) آلت بشاشته ألا يجاورها في مهجة كمد (٥)

والمملوك يشكر يوماً تضمنها . فانه كتب له عهداً . وجعل له وداً . وعُد له عدداً . ومد له من الاطراء مداً . . وما يقول الا ان مائدة نزلت فيه من (٤٢ آ) السماء ليأكل منها الناس . او سحاب جود تصوب فطر (٦) الايدي من دس الافلاس . ولئن غاب عن ذلك المقام فخدمته السالفة تخلفه . ولو لم تكن له خدمة لكانت العوارف الكريمة تشملهُ وتكفنه . فانه لا يعُد البر براً حتى يلحق الغائب بالشاهد من كرم الاحسان . ولذلك نابت شمال رسول الله - صلى الله عليه - عن يمين عثمان .

وما يظنُّ المملوكُ أن سببه يُضعفُ ببعْدِ الدارِ ، إذ كان في مسيره عن الخدمة الشريفة من المهاجرين ، وفي الاتجاه بهمته من الانصار ، ولن يضع بين هذين عملً وان كان صغيراً ، ومن فاز بأولية الولاء فلا يضُرُّه ان جاء اخيراً .

كُنْتُ عن غرسه بعيداً فأذنتني اليه يداك عند الجداد (١)

والحمد لله على هذه النعمة حمداً يغدو معها تواماً ، ويكون الى الزيادة عليها سلباً ، وهو المسؤول في متابعة وفودها مُماسين ومُصاحبين ، وابقاء شجرتها آتية يأكلها كلُّ حين . والسلام ان شاء الله تعالى .

[٢٠]

كتابُ كتبه عن نفسه الى الملكِ المحسنِ احمد بن يوسف بن ايوب (٢) يُهنيه بالحج ، وارسله اليه عند عودِهِ الى دمشق ، وهذا الكتابُ جوابٌ عن كتابٍ وردَ منه .

(٤٣ ب)

ورد الكتابُ الكريمُ عن مجلس مولانا الملك المحسن قرنه الله بأصحاب اليمين ، ورفعهُ الى المقام الأمين ، وجعله ممن صدق يقينه ، وثقلت موازينه ، وعلت يده وكلمته ودينه . ولا زال مستمسكاً في إخلاص عمله بالسبب الأقوى ، آخذاً بأدب الذين آمنوا وتناجوا بالبرِّ والتقوى ، فتأرجحت انفاسُ نجدٍ من عنوانه ، وجاءت بخزاماه وحوذانه ، وحرّكت الى تلك الارض كلَّ عزمٍ فاتر ، واذكرت بالاذان الذي يأتونه رجالاً وعلى كلِّ ضامر ، فتناوله المملوكُ بعد ان بدأ بالتطهير ، واتخذ يومه عيداً فاعلن فيه بالتكبير ، ثم فضّه فوجد آثار المناسك باديةً في أوّله ، ممزوجةً بأثار يد مُرسله ، فهذه يستمدُّ منها بركة الطاف والاركان ، وهذه يستمدُّ منها سجيّة الفضل والاحسان ، وكلاهما مأمولٌ من مثل مولانا الذي أفاض الطاف عبادته ، كما أفاض الطاف افادته ، ولقد فخر هذا العام بحجة على ماقبله ، وازدان بفضله حتى حسدت الاعوام فضله ، فلو كان ذا نُطقٍ لنشر أفواف كلمة ، وخطب بالثناء على مولانا ومقدمه ، وعرف اهل الموقف انهم في خفارة ذممه ، وأنهم غفر لهم ببركات قدمه .

وما يقول المملوكُ أنّه ادرك بالحج فضيلة لم يُدرِكها ، (٤٣ آ) سوى انه سلك طريقاً لم يسلكها ، ولكنه ادى فرضاً وزاد عليه بنوافل برّه فواجب قرضا ، فكلُّ ايامه ايام حج في طهارة يده ولسانه وقلبه ، وتعظيم حرمت الله التي هي خير له عند ربه . ومُد سار مولانا عن دمشق ، اضحت عارية اللباس ، خالية من الناس واحدة من الوحشة بقدر ماوجده الحرم من اليناس . واما الآن فقد راجعتها

بشاشتها ، ورُدَّتْ إليها حشاشتها ، فلها الهناء بالمولى الذي ينزل بلدها منزلة الروح من جسدها . ويحلُّ من قطنها محلَّ الرؤوس من ابدانها .

انما الناسُ حيثَ انتَ وما النانا سُ بناسٍ في موضعٍ منك خالٍ (١)
واما المملوكُ فان المولى جمع عليه فراقين ، وأثار له اشتياقين ، فأحدهما بعدُ عن
ثغره . والآخر بعده عمّا يتوقعه من خبره . وما جعل الله له . فحمل من الفراق
والاشواق لوعة خطيبين . ولما ورد عليه الكتابُ الكريمُ اعاد عهد أنسه ، وأمسك بقيّة
نفسه . وهي حسنةٌ يومه اساة أمسه . فما يدري أضيفه مسطورة ، ام رحمةً منشورة ،
لكنه تحقّق منها معنى النشأة وارتجاعها بما أعلّى به من الحياة الذاهبة بانقطاعها .
والمملوك يسأل ان يتعهده المولى بامثالها ، ويعتدّ بها عن عطايها وافضالها (٤٣)
ب) فانه في هباتِ قلمه ارغُبُ منه في هباتِ نِعْمِهِ .
وللآراءِ العاليةِ مزيْدُ العلوّ ان شاء الله تعالى .

[٣١]

كتابٌ آخرٌ في هذا المعنى ايضا كتبه على حكم الرياضة . يُقبَلُ الارضُ بين يدي
مولانا الملك المحسن تقبّلُ الله حَجّه . وهدى سبيله ونهجه ، وجعل في ذاته نفقته
وخرجه ، ولا زالت اعماله من العمل الصالح الذي يرفّعه ، وللفضل الباهر الذي يسنه
للناس ويُسْرِعُه ، وينهي من أشواقه الى خدمته ماتكاثرت عليه الحجيج (١) بالموسم ،
واحرم له قلبه من المسار فلزم ما يجب على المحرم ، ومن الله يأملُ قربَ ايايه .
واستشاق انفاس نجدٍ من ثيابه . وقد أصدر هذه الخدمة مهنته بنعمى اداء الحج
الذي هو فرض عين ، وقضاء دين ، ولربّه فضيلة الزائر بيت ربه الفائز بنفحات
قربه . وليس كل سائر اليه كالمولى الذي تباشرت به الاقطار ، وتحدثت عنه
الاخبار ، وحدث بذكره السفار ، وانتظره البيت واهله انتظار الارض للقطار ،
فمسيره اليه مسير قبلة صلّاتٍ الى قبلة صلاة ، ومطافُ كرم الى مطاف حرم ، وعرفة
تأمل الى عرفة تكبير وتهليل . فلو كان الجماد يفهم خطاباً ، ويردّ جواباً ، لجعل
المملوك الى البيت فحوى كتابه ، وقصره على الهناء بالمولى واقترابه . والمزية
بحلول كتابه . (٤٤ آ)

لو يعلمُ البيتُ من قد جاء يلثمهُ لخرَّ يلثمُ منه مؤطاً القدم

وما يقول المملوك انه كان في الصحيفة الكريمة سيئة فأزيلت ، بل كان هناك درجاتٌ تولّت فيلّت ، ويكفي فيه انه المقصّد الذي تظماً به الاكبادُ . ويمتنع له الرقادُ . وتقطعُ اليه السبابُ . وتحث له الاسمة والغواربُ . وقد سلّكه المولى فلم يقع فيه بشحوب الجسم دون شحوب المال . ولم يرض بتعب المسير دون تعب النوال . وما علم قبله ان السُحب تهزُّ على ظهور الركاب . ولا ان الاطواد تضمها شعب الاكوار . وتنقلها من دار الى دار . ولقد حسدت الارض موضع مسراه . وحسدت المطايا منها راحلة سراه . فتلّك محرمة على المحمول بصوب ديمه . وهذه محرمة على الرجال بمصافحة قدمه . وقد عجب المملوك من اداء الحجيج منسك الاحرام . وذكر المولى بينهم مفوض الختام . ولا شك انهم عجزوا عن ادائه فاخذوا بالترخيص في ندائه .

وتفوح من طيب الثناء روائح لهم بكل مكانة تستنشق
مسكية النفحات الا انها وحشية بسواهم لاتعقب

ولئن قعد المملوك عن الخدمة بجسمه . فقد سار بقلبه . ومن صحب مولاه (٤٤ ب) بظهر الغيب . فلم يغيب عن صحبه . هذا وقد استخلف في الخدمة دعاءه الصالح الذي هو حارس ليل لا يغمض طرفاً . ورفيق نهار لا يني براً برفيقه ولطفاً . وافضل الدعاء ماصدر عن قلب كقلب المملوك . معمور بالولاء . مغمور بالآلاء . فلو استنشقه المولى لرأى نفسه موضع أمله . وعلم ان نيته في اخلاص المودة كعمله . وهذا الكتاب ينوب بمشاهدة لسان بيانه . عن ما يباشره المملوك في الخدمة بيده ولسانه .. وهو يرقب الجواب بسلامة النفس الشريفة التي هي نفس الجود والكرم . وبسلامتها تسلم آمال العبيد من الخوف والعدم . والرأي اعلاه إن شاء الله تعالى .

[٢٢]

كتاب كتبه عن نفسه الى بعض امراء دمشق من اصدقائه يهنيه بالحج . وكان ذلك عقيب فتوح البلاد الساحلية من يد الفرنج .
أحقّ النعم بالهناء ، واجدتها بالثناء ، نعمة أجزلت ثواباً ، وأكرمت مناباً .
كتيسير الله عبده لليسرى . وتوفيقه للاعمال الصالحة التي تسره في الآخرة . وأكثر الاعمال أجراً أكثرها مشقةً . وأقربها الى الله أبعدُها في التعب شقةً . كحج بيت الله الحرام الذي تهجر له راحت النفوس والاجسام ، والخادم يخدم المجلس السامي الفلاني وقاه (٤٥ آ) الله الريب (١) الساهرة . وأمنه من الكرة الخاسرة . وقرنه بمن هو وئيه في الدنيا والآخرة . وجعله من ذوي الوجوه الناضرة . التي هي الى ربها ناضرة .

وقد جعل كتابه هذا مُعرباً عن هنائين ، مبنياً من شكر نِعَمِ اللَّهِ عسى بنائين فأحدهما احراز المجلس فضيلة الثواب ، والآخر سرور الخادم بسلامة لايب . فد يدرى أيهما يولي حمداً ، ولا أيهما يحيى عدأ ، ولئن حَسُنْ هِنَاؤُهُ بِالحج فبئذ البيت بحجِه وان زار ، () (١) فتلك المواقف بقربه أزين ولقد أمن نخيف بجواره ، وحرَمُ الحرْمُ بذمة مزاره ، وكاد الحجرُ الاسودُّ يبيضُ باستلامه ، وتركز يحيه بتحيتِه وسلامه . فلو نطقت هذه المناسك لاقرت بشرف محضه ، وابدت المسرة بمورده والمساءة بمصدره . ولو استطاعت لجعلت ساعات الحج شهوراً ، وإيامه دهوراً ، لتطول بها مدّة مقامه ، وتتزود من بركة ليلاليه وإيامه . فما أكثر وحشتها لذهايه ، وأشدّ لهنّ لسرعة إيايه . ولقد وددتُ الحج هذه السنة التي لا اظفرُ بمثلها ، الا أن يكون المجلس من أهلها . فقد روي ان الله يقبلُ الحاجَّ في خفارة شخص واحد ، ويكرمُ وفدهم عليه كرامةً لذلك الوافد ، والمجلس هو ذلك الشخص الذي عمّ الحجيج يمن صحابته ، واجاب الله دعاءهم في ضمن اجابته . ولو كنت معهم (٤٥ ب) لكان ميزاني في هذه الموهبة ارجح ، وهجرتي فيها ازكى واربح ماكان تمسكي بجبله ، والخليل أبر بخله . فلا يستقصِرُ المجلس نفسه عن نيل هذا الفضل العريض ، ويظنُّ ذلك لذوي الاطمار السود وانما هو لذوي القلوب البيضاء ، والحج وان نُحرت منه رقابُ الاثام ، كما تنحرفه رقابُ الانعام ، فلم يكن للمجلس بحمد الله مائة تحرفها ، بل كان له حسانت يضاعف ثوابها ، وكيف لا وقد مضت له في الغزوات ايامٌ بل أعوام ، وملاً الصحف بشهادت سيوفه التي هي أفصح من شهادات الاقلام .

بالمطايا مقام ابراهيم(١)

حين غفى مقام ابليس سامى

وطوراً يحرم سيفه كأساً من دم الكفار ، وطوراً يحرم جسمه عارياً من اللباس كما عريت صحيفته من الاوزار ، ولا بقاء للاثام بين احرام السيوف والاجسام ، على انه لم يزل فائزاً بأجر الحج وان لم يعمل رواجله ، ظافراً بفضل الجهاد وان لم يُشهر مفاصله .

فمدخله بين الامانة والتقوى ومخرجه بين الهدى والتهجد

وأما السرور بسلامته في تلك المشاق المتضاعفة ، وعوده من تلك النوى المتقاذفة ، فاني لا ادعي الافصاح بمزية أثره ، وان فاتني الاستمتاع (٤٦ أ) بنظره ، فما فاتني الاستمتاع بخبره . ولقد كان الشوق في غلوائه واخبار المجلس وارده مع كل وارد ، وكتبه الكريمة واصلة مع كل قاصد ، فكيف وقد أتت عليها مديدة ، وحالت

بينها نوى بعيدة ، فلينتقع غليل الغرام بصوب كتابه ، وليطلق النفس من قبضة الهمة
فأنها موثقة بقيد غذابه ، ولا يقطع أخباره فأنها غذاء الأرواح ، ودواء ما تخنه البعد
من الجراح ، والرأي أسمى ان شاء الله تعالى والسلام .

[٢٣]

كتاب يتضمّن التهنئة بأول مولود كتبه عن نفسه الى مخدومه الملك الافضل علي
بن يوسف بن ايوب .

أحلى النعم موقماً ماتعلقت به الآمال من قبله ، وأذن فرعه ببقاء أصله ، كالولد
الذي هو من ريحان الله ورزقه ، واحدى الزينتين المحببتين الى خلقه . والملوك
يهنيء مولانا بالمصباح المتوقد من شجرته ، والباكورة المفتحة من ثمرته ، ويرجوان
يتبع هذا المصباح بكل سراج وهاج ، وهذه الثمرة بأخر من شكلها أزواج ، حتى
لاتخلو ظهور الأسرة والجياد ، وصدور الاقلام والصداد ، من مولى يتغايى على مجال
يده ، وموطيء قدمه ، ويتشرف بايام بأسه ونعمه ، والله يري مولانا فيما اتاه من
سليل غابه ، وبارقة سحابه ، ما يغدو به الملك مجموع الشمل ، موصول الجبل .
ويتم نعمته عليه كما اتمها على ابويه من قبل ، (٤٦ ب) ولا أعدمه من عقبه من
ينافسه في مجده ، [وتتوالى (١)] على الالسنه والقلوب صحيفتي وده وحمده ، حتى
يشهد الاعداء بفضل علائه ، ويجمعوا فيه بين الضدين من جسده وولائه .
لاعدمتم غريب مجد ربقتم في غراء نوافر الأضداد (١)

وهذا الدعاء شطرة للمملوك فهو يقلب وجهه في سمائه ، كما يقلب يده في
نعمائه ، ولم يقيض له هذا الزمن المخصوص بالمولى ونسله ، الا ليلغ مالم يبلغه
الزمن في نفسه ولا في اهله ... والسلام ان شاء الله تعالى

[٢٤]

كتاب آخر كتبه عن نفسه أيضاً اليه يتضمن التهنئة بمولود وهو :
اصدر هذه الخدمة الى الجناب الشريف وقد جاءت البشرى بفرع ندى من
نجره ، ولؤلؤة خرجت من بحره ، فعبقت الاسماع بهذا الخبر الاريح ، واهتزت له
الآمال وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، واستدل الناس بطيب الاصل على طيب
الثمر ، وتفرسوا ماتفرسوا في الهلال بن القمر ، ولو نطق يوم مولده
بلسان ، أو كان ذا روح وثمان ، لافتخر على الايام الاولة والآخرة ،
فبرز في اثواب زينته الفاخرة .

وإذا ما الأيَّامُ أَصْبَحْنَ خُرْساً كُظْمًا فِي الْفَخَّارِ قَامَ خَطِيئاً (١)

(٤٧ أ) ولئن سَبَقْتَهُ أَيَّامٌ جُعِلَتْ عِيداً لِلصَّيَامِ ، ونَحَرَ الْإِنْعَامِ ، فهذا اليوم عيدٌ نَحَرَ العدى ، وابقَاءُ سُنَّةِ الْبَأْسِ وَالنَّدَى .

والله يجرى مولانا على عادة فضله ، وينمي فرعه الكريم حتى يستظل بظله . ويمضي الامور بعقده وحله ، ولولا اشفاق المملوك من اللفظ بكلمة تنقل على لسانه ، لدعا له بخلافة ملك مولانا ووراثه سلطانه . لكنه يدعو لمولانا وله بالخلود . وان لا يملك سوى ملك العدو ولا يرث سوى ميراث الحسود ان شاء الله تعالى . والسلام .

[٢٥]

كُتَابٌ آخِرُ كُتُبِهِ أَيْضاً إِلَيْهِ فِي الْمَعْنَى :

أولى النعم بالشكر ما بقي لصاحبه ذكراً ، وزاده من بعد عمره عمراً ، كالسلالة الطيبة الاثر التي هي أحد الثلاثة الواردة في نص الخبر . وقد أوتي مولانا من هذه النعمة ما أقر ناظره . وكثر على وجه السماء زواجره .. فالحمد لله الذي يجمع شمل المجد باجتماع عقبه ، وحبا الملك منهم بمعاقد أمله ومعامل قضيه ، وفي الصعدة التي خرجت الآن من منبت صعبه ، وزادت في ثروة عتاده (٢) . مسرَّحٌ للهناء ، ومطمحٌ للسناء ، ومطرَّحٌ لكنز الغنى والغناء . والله يمتع مولانا بانشائها حتى يشهد طعانها وتركب [(٣)]

وبقيت حتى تستضيء برأيه وترى الكهول العُرَّ من اولاده (٤٧ ب)

ولقد كان بالاسماع ظمأ الى مورد هذه البشرية ، فبالقلوب شوق الى أن تستوفي بها سروراً ، وتفي لها نذراً . فأية مولانا فيما مُبَشَّرَ به ان يطلق لسان الانعام ، لان يعقل لسان الكلام ، وان يخرج على الناس من محراب الصلوات لامن محراب الصلاة .

« وهذا دعاء لو سكت كفيته »

[٢٦]

كُتَابٌ آخِرُ كُتُبِهِ عَلَى حُكْمِ الرِّيَاضَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى وَهُوَ مَا يَكْتُبُ إِلَى الْخَلِيفَةِ :

« ووهبنا لداود سليمان نعم العبد أنه أواب » (٤)

هذه الخدمة مُهَيَّئَةً بالنعمة التي امتنَّ اللهُ بها على خليله ، وكرَّرَ ذِكْرَهَا فِي محكم شَرْطِهِ ، وجعلها سَبَباً لوراثَةِ النبوة والكتاب ، وأمر ملائكتَه ان ينادوا بها زكريا في (١) المحراب ، فالحمدُ لله الذي أظهرَ من معدِنِ الامامةِ جوهرةً شريفةً ، وأخرج من طودها هضبةً منيفةً ، اذناً (٢) منه ان تكون هذه الكلمة باقيةً في عقبها ، محرمة على من رام الاعتلاق بسببها كيلا تخلو الارضُ من رواسي حملها التي تمنعها ان تميد ، وسبل هدايتها التي تهدي الى الطيب من القولِ وتهدي الى صراط الحميد .. والعبءُ ان اختصر وصف هذه النعمة فهو معذور ان لا يجمع البحر الى الزاد ، ولا يحصى مواقع الغيث بالاعداد ، فليس له الا أن يدعو الله دعاء (٤٨ أ) من يبتغي اليه الوسيلة . ويقدم بين يديه صدق النية التي هي بكل طلب كفيلة في أن يرى مولانا من سليله ما يملأ قلب الزمان ، ويمنعه بفضله حتى يقال معه « فَفَهَّمْنَاهَا سَلِيمَانَ » (٣) ، ولقد كان بالخلافة تطلع الى هذا الفرع الكريم ، فترقب لهذا الشرف الحديث الدال على الشرف القديم ، فليهنها ان تسربلت منه هدى ونوراً ، وخرجت بمزية فضله من عهدة الشورى ، فلو أبانت عن سرها المخجوب ، ونطقت بمرادها المطلوب ، لاقترح ان يرثها وراثه يحيى من آل يعقوب ، ومن وسائل العبد التي يعدها من قربه ، فيرقى بها من الولاء الى اعلى رتبته . أنه يؤمل لنفسه وللاولياء كافة أن يحرزوا نعمى يده ، كما احرزوا بشرى مولده ، ويفوزوا بمشاركة عصره ، في درجة فخره . فهو يفخر على ماسبقه من الايام ، وهم يفخرون على من سبقهم من الانام . وللآراء العالمة مزيد العلو . ان شاء الله تعالى .

[٢٧]

فصل من كتاب في هذا المعنى

المملوكُ يُهَيَّئِء مولانا بالجوهرة التي خرجت من معدنه ، والبارقة التي تلالأت من خلال مزنه . ولقد تشوقت تيجان الملك الى ديمها (٤) واقرباه ، وطمئت رياض الامال الى صوب سحابها وانسكابها . (٤٨ ب) .

[٢٨]

فصل من كتاب في هذا المعنى

كتبت هذه الخدمة وقد جاءته البشري بطلعة هلالِ سفرت ، ومخيلة سحابٍ ظهرت ، ونرجوان يصير هذا الهلالُ بدرأً كاملاً ، وهذا السحابُ غماماً هاطلاً ، ولقد اهتز السيفُ والقلمُ جذلاً بمولده ، وتفاخرا في السبق الى منال يده ، وبشرت منه المكارمُ بكالتها ، والعيونُ والقلوبُ بمالتها .

[٢٩]

فصل من كتاب في هذا المعنى

المملوك يهنيء مولانا بالشبل الخارج من عرينه ، والعضب المنتضى في يمينه
ولقد اهتزت أسيرة الملك لارتقابه ، ومدت الجياد عيونها الى وقت ركابه . وريغ له
جيش العدو قبل اوان غزوه واقترابه .

ان الهلال اذا رأيت نموه أيقنت ان سيكون بدرأ كاملاً

✱ ✱

عدة كتب تتضمن اغراضاً مختلفة من المعاني السلطانيات والاخوانيات وغيرها .

[٣٠]

فمن ذلك كتاب كتبه عن نفسه الى اخيه بالموصل ، بعد ان خرجت دمشق عن
يد مخدومه الملك الافضل علي بن يوسف . واخرج الى حصن (٤٩ آ) صرخد ،
وسار هو على اثر ذلك الى الموصل ، وارسل هذا الكتاب من اثناء الطريق ، وكان
طريقه على البر دون البلاد .

يخدم المجلس العالي لاخفصت الايام له مناراً ، ولا دخلت الخطوب عليه داراً ،
وأرته متاحول في اعدائه حتى يخالها اعواناً وانصاراً .

وينهي الى علمه ان دمشق فُتحت آخر نهار الاربعاء لثلاث بقين من رجب .
وكان ذلك بسيف الكيد لاسيف القتال . ولم تسفك عليها مهجة دم ولا مهجة
نوال . وهذا من اعجب ما يحكيه من رآه . ويرويه من سمعه . وحق على الله انه
لايرفع شيئاً من الدنيا الا وضعه . وطراً قبل ذلك وبعده من متجددات الحوادث
الظريفة ، ماتثقل باستقصائها حجم هذه الاوراق الخفيفة . لكن اذكر من الاحوال
التي تخصني طرفاً على سبيل الاختصار ، وأنبه على عجب صنع الله الذي لا يضر
معه الاهمال ولا ينفع معه الحذار ، وذلك انه لما فتح البلد رمانى الاعداء عن يدي
واحدة ، واخذوني باكبأ حارة واغراض باردة . وما تقموا علي الا أني حفظت
واضعوا ، وعصيت شيطان النفاق واطاعوا . (٤٩ ب)

« وما آفة الحسناء الا جمالها » (١)

ثم لم يزل بي سعيهم حتى اخذوا علي المسالك ، ونصّبوا لي المهلك . ونو
اجتمع (٢) الخلق ان يضروك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدرؤا على ذلك .
فتوكلت على الله ونعم الوكيل . وخرجت وقلت : عسى الله ان يهيني سوء
السييل ، واجمعت المسير في يوم طوله ترقب الوقوع في حبالل الأرصاء . وقصره الفكر

في ركوب لُجّة البرّ بغير قرين ولا هاد . ثم هَوُنَ ذلك نفسٌ لم تكن على ركوبِ الاخطار ضئيلة ، وعزيمةٌ اذا عَنَّ لها بحرُ الاهوال كانت له سفينة . وهمةٌ يقصُر عندها المدى المتطاوُل ، ولا ينظرُ عاقبةً فيما يُحاول . فَسَرَتْ غيرَ متكثِّرٍ برفيقٍ ولا صاحبٍ . ولا مُخْلِذٍ الى طيبِ طعامٍ ولينِ جانبٍ . وخضتُ مفاوِزَ تكذبُ فيها العين والاذنُ . وتشفقُ منها الابدانُ والبُدُن .

وَعَيْنِي الى اُذُنِي اَعَرَ كَأَنَّهُ
شَقَقْتُ به الظلماءُ اُذُنِي عِناهُ
مَنْ الليلِ باقٍ بَيْنَ عَيْنِيهِ كوكِبُ
فِيطغى وأرْخِيهِ مراراً فَيَلْعَبُ (١)

فكم مفازة خددت خذها ، وهاجرة فُلَلْتُ بالسيرِ حذها ، وكم ليلٍ شطَّتْ غياهِبُهُ ، وَخَشَنْتُ مراكبِهِ ، وطال حتى ماتغورُ كواكبِهِ ، فلا ظِلُّ الا ظِلُّ (٥٠ آ) ذابلٌ او جواد ، ولا سَمِيرَ الا ظَهَرَ رِبْوَةٌ او بطنِ واد . ولقد وطئتُ ارضاً لاعهد لها بخفٍّ ولا حافرٍ ، ووردتُ مياهاً لاعهد لها بوارِدٍ ولا صادرٍ ، فلم احلُّ وضيئاً ولا غرضاً ، ولا سَأَمْتُ طوولاً ولا عرضاً ، ولم أرْخُ رِكابِي الا ريثما نأكلُ علائهُ ، ونتقَمُّ من بقايا الزادِ حثالةً ، فتناثرتُ تناثرَ نضيجِ التمرِ ، فلكل طائرٍ منها حظٌّ وبكلِّ دارٍ منها اثرٌ ، حتى لقد خُفْتُ ان يصبَحَ (رِيقِي فتقا) (٢) ، واغدو كالمنبتِ الذي لا ارضاً قَطَعَ ولا ظَهراً اَبقى ، لكن رِقبَتُ اسبابِ المخافة ، وأشفقْتُ من نفاذِ الزادِ لبعْدِ المسافة . فأخذتها بالاعمالِ والدؤوبِ ، وألَفْتُ بَيْنَ اشباحِها وبينِ السهوبِ ، وما زلتُ على ذلكِ مراحاً ومغدى ، ومعاداً ومبداً . وكُلَّمَا نَفَدْتُ من الفلواتِ سَدًّا رأيتُ امامِي سَدًّا ، حتى ظننتُ الارضَ تسيَرُ مع الرِكابِ ، وقلْتُ تشابهتِ الصوى بالصوى (٣) ، والشعابِ بالشعابِ ، ثم وردتُ الفِراتُ أجرُّ الرِكابِ ، وكأنما تمشي على ابصارها ، وفي الاكبادِ حرارةٌ أوامٍ لا تقِي حُمَّتُهُ باطفاءِ نارِها ، فعند ذلكِ حَرُمْتُ ظهورَها على الرِحالِ ، وأكْبَبْتُ على وجوهها وأحفافها بالتقبيلِ ، والاقبالِ . ثم نزلتُ ارضَ الخابورِ فعزبتِ الارواحَ ، وشرقتِ الجسومُ ، وحصلتِ الاعدامُ (٤) (٩ ب) من المسارِ والاثراءِ من الهمومِ ، وطالبتني النفسُ بالعودِ والقدرةُ مُفلسةً ، وأويتُ الى ظِلِّ الآمالِ والآمالِ مشمسةً ، وتبلَّدَ خاطري وبراعةِ المشتاقِ ان يتبلَّدَ . وفزَعْتُ الى الدموعِ واجدرِ بلوعةٍ تطفي الدمعَ ان تتوقدَ ، وناديتُ صبري فما اجاب ، وفنَدْتُ جزعي فما تفندَ

وما يلام محزون فارقَ جَنَّةً وحريراً . وترك نعيمًا وملكاً كبيراً .

ولو قال لي الغادونُ ما أنت مُشْتَبِهٌ غداة جزعنا (٥) الرملُ قلتُ ، أعودُ

وليس الأسي على مالٍ وان فارقتُ منه مغربه ، ولا على جاهٍ وان خلعت رداءً

معلماً واياماً مُذهبه ، بل على صحبة ملكٍ قدمني على أصحابه - وان كنتُ متأخر

الصُّحْبَةُ وَغَادِرُنِي مِنْ [بِرّه] (١) فِي وَطْنٍ وَإِنْ كُنْتُ مُقِيمًا فِي دَارِ غُرْبِهِ . وَبَسَطَ لِي قَبِي
 وَلِسَانًا وَيَدًا ، وَأَفْسَدَ نَظْرِي عَلَيَّ فَلَمْ أَرَ بَعْدَهُ أَحَدًا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَجْفُوهُ فَلَا يَجْنُو .
 وَأَكْدَرْتُ عَلَيْهِ فَيَسْفُو . وَمَتَى طَلَبْتُ جَزِيلَةً أَعْطَاهَا ، وَإِنْ رَأَى حَسَنَةً كَشَفَهَا أَوْ رَأَى
 سَيِّئَةً غَطَاهَا ، فَلَا أُنْسَى ذَلِكَ الْعَهْدَ وَلَوْ غَبَّتْ تَحْتَ الصَّفَائِحِ ، وَلَا أَجْزِي ذَلِكَ
 الْإِحْسَانَ وَلَوْ أَصْفَيْتُهُ غَرَائِبَ الْمَدَائِحِ ، وَلَا الْأُمَّ عَلَى سَفْحِ الدَّمْعِ لِبُعْدِهِ وَلَوْ أَعَشَبْتَ مِنْهُ
 قَقَارٌ وَسَالَتْ أَبَاطِحُ . (١٠)

أَبَيْتُ وَطْرًا قَالِي الْهَمُومُ كَأَنَّهَا
 مَحَافِلُ حَيٍّ يَنْتَخِي وَجُمُوعُ
 أَقَارِعُ أَوْلَى اللَّيْلِ عَنْ أَخْرِيَاتِهِ
 كَأَنِّي أَقُودُ النِّجْمَ وَهُوَ ظَلِيْعُ

وَزَادَ ذَلِكَ مَا وَجَدْتُهُ بِأَرْضِ الْخَابُورِ مِنْ حَرِّ مَلْهَبِ الْإِوَارِ ، لَا يَقِي مِنْهُ ظِلُّ شَجَرَةٍ
 وَلَا ظِلُّ جِدَارٍ ، وَرَأَيْتُهُ بِهِ مِنْ وَجُوهٍ كَأَنَّمَا عُرِضَتْ عَلَى الْعَذَابِ ، أَوْ خَرَجْتَ مِنْ
 تَحْتِ التَّرَابِ ، وَقَدْ نَسَجَتْ لَهَا الْهَوَاجِرُ بَرِاقِعَ مِنْ قَارٍ ، وَنَفَضَتْ عَلَيْهَا الْأَسْقَامُ غَيْبَةً
 مَعْصِفَةً الْإِزَارِ ، فَاعْتَمَضَتْ بِنَارٍ عَنْ جَنَّةٍ . وَتَبَدَّلَتْ عَنْ نَاسٍ سِجِّئَةً ، وَتَقَلَّتْ مِنْ نَسَبٍ
 إِلَى سُمُومٍ ، وَمِنْ رَغْدٍ إِلَى زُقُومٍ ، فَاعْجَلْتُ [تَقْوِيضُ] ٢ الْخِيَامِ ، وَادْهَلْنِي وَبَاءَ الْإَرْضِ
 عَنْ رَاحَةِ الْمَقَامِ ، وَأَصْدَرْتُ هَذَا الْكِتَابَ فِي الْخَمِيْسِ الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، وَأَنَا
 أَسْأَلُ اللَّهَ عَزِيمَةَ الصَّبْرِ ، وَاعْجَبُ مِنَ السَّلَامَةِ وَمَا تَثَبَّتْ الْآ فِي () (٢) أَمْرٍ ، وَقَدْ
 خَفَّضَ سَلْسِيَّتَهُ أَنِّي لَمْ أَحْبَبْ فِي الطَّلَابِ ، وَلَا قَنَعْتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ، بَلْ بَلَغْتُ
 مَا مَلَكَتُ بِهِ النَّفْسُ أَمَدَ عَنَانِهَا ، وَسَمَّتُ بِهِ عَلَى زَمَانِهَا وَأَبْنَاءَ زَمَانِهَا ، وَتَلَّكَ النَّفْسُ
 بِحَمْدِ اللَّهِ مُحْكَمَةَ الْمَرِيرَةِ ، تَزْهَى بِشَبِيْبَةِ عَزْمٍ وَاكْتِهَالِ بَصِيرَةٍ ، لَمْ يُوْرثْهَا صَدَأُ
 الْخَطُوبِ الْأَصْقَالِ ، وَلَا زَادَهَا ضَيْقُ الْإِيَامِ إِلَّا مَجَالًا (١٢) . (١٠ ب)

يُغَيِّرُ مَنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا
 وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمْرِ وَهِيَ كَعَابُ (٤)

وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْإِقَامَةِ بِسَنْجَارٍ لِأَكُونَ بِهَا غَرِيبًا ، وَأَدْعُو اللَّهَ عَسَى أَنْ يَكُونَ
 لِدَعَائِي مُجِيبًا ، فَإِنْ دَعَاءُ الْغَرِيبِ غَيْرُ مُرْدُودٍ ، وَهُوَ فِي جُمْلَةِ الدَّعَوَاتِ الْمَقْبُولَةِ
 مَعْدُودٍ ، وَمَا أَخْصُ بِذَلِكَ إِلَّا الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ الَّذِي اخْضَلْتَنِي (٥) نَوَافِلُهُ ، وَهَبَّتْ شِمَالًا
 عَلَيَّ شِمَائِلُهُ ، وَالسَّلَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[٢١]

كِتَابُ كَتَبَهُ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْإِمِيرِ مُجَاهِدِ الدِّينِ قَائِمَازِ زَعِيمِ الْمَوْصِلِ . وَكَانَ
 بِخِدْمَتِهِ أَوَّلًا قَبْلَ اتِّصَالِهِ بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ . فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ
 دِمَشْقٍ كَتَبَ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ يَعْتَدِرُ فِيهِ عَنْ مَفَارِقَتِهِ آيَاهُ ، وَيَتَلَطَّفُ فِي عَوْدِهِ إِلَيْهِ .

ولمَّا نَبَتْ بِي الارضُ عُدْتُ اليكُم
وقد يُتَدَي بالنجم يُشكَلُ سَمْتُهُ
أمتُ بجبلِ الوُدِّ وهو رِمَامٌ
ويُرَوَّى بماءِ الجَفْرِ وهو ذِمَامٌ (١)

يقبَلُ الارضُ بالمقامِ العالِي المولوي المجاهدي لازال ظلُّه ظليلاً . وجنابه لوفد
سبيلاً . ولا برحَ من أحداثِ الدهرِ مديلاً . ومن عثراته مُقبلاً . وينبى : انه اصدر
هذا الكتاب وقد همَّ ان يجعل ورقته حمراء كلونِ أيامِهِ (١١ آ) الكلمية . او صفراء
كلونِ أحواله السقيمة . ثم علم انه قاصدُ البابِ الكريمِ الذي يرد عنه الى رونق
بياضه . وصفاء حياضه . فاصدر كتابه في ورقة بيضاء تفاقلاً بعقبى مقصده . وما
اذن به يومه من بشرى غده . ومن لجأ الى ظلِّ مولانا علم ان الأيام ستلقاهُ بوجه
الاعتذار . وتقف له موقفَ المتاب والاستغفار . ومد علمت مسيرته الى الخدمة الشريفة
كفَّت عنه سَهَامِها . وجددت على يده اسلامها . هذا قبل أن تطوفَ بأكنافِ ذلك
الحرم . وتستدُمُّ بحرمة تلك الذم . فكيف اذا صار لها جاراً . واستوطن منها داراً .
فعند ذلك تتمثلُ بقول القائل :

مَسَّتِ الخُطوبُ القَهْقريَ لمَّا رأت
فَزَعَتْ الى التوديعِ غيرَ لَوَابِثِ
خَبِيبي اليك مُواصلاً بِرَسِيمِ
لَمَّا فَرَعْتَ اليك بالتَّسليمِ (٢)

والمملوك لا يمت بحق صحبته الاولى وان كانت بكرية الصدى . علوية السبق .
بل يقول : انه لا يجد له سبباً يمت بدمامه . ويدلّ بقدم أيامه . لكن اذا نظر الى
سُنَّة الكرام في وجوبِ الاسباب . بالقاء الارشية على الارشية والاطناب على
الاطناب . وجد سببه متيناً . وحقه مكيناً . وذمامه بالارعاء قميناً . ولئن أذنب في
بُعدِهِ عَنِ (١١ ب) الخدمة فقد نابت الايامُ عن مولانا في عقابه . وأعلمته ان الخيرة
له في ايايه . الا انها لم تعلمه الجرم الا بعد الايلام . ولا ارته نُور الصواب الا بعد
عثراتِ الاظلام . ويكفيه عقاباً مالمقى في هذه الطريق التي كانت كصعبة ركبها وما
راضها . وهي اليومُ مأوى ذؤبان الاعراب . وقد جمعت بين خوفِ الركب وكرال
الركاب . فسلكها ناصباً وجهه لكل هجيرة عتورية النسب . وطيسية اللهب . لانخف
بمقيل . وتذكى بغير فتيل . فبهي تنقل بني سام الى بني حام . وتتنفس بها جهنمُ
في كلِّ يومٍ ولا في كلِّ عام . ولم يزل يصلُ الزميل بالزميل . ويلف الضحى
بالاصيل . والارض كالبحر في سعة صدره . والمطايا كالجواري راكدة على ظهره .
فمكانُ الركب منها كمكانهم من الاكوار . ومسيرهم فيها على كرة لاتستقر بها
حركة الادوار . هذا وكلما نال السرى من المملوك استروح الى ذكر مولانا . فأزال
كلاله . وأذهب ملاله . فهو زاد للسفر المطوح . وزيادة في الشوق المبرح . ولقد تخير

لنفسه سلاحاً يحمله في طريقه . ويستنصرُ به على العدو وفريقه . فلم يجد أولى من يمن قُصده الباب الكريم الذي يغني بصحبه جَدَه . عن (١٣ آ) السيف وحَدَه . فجعل ذلك نجاداً على عاتقه . واستعان به على قاطع الطريق وسارقه .

وكتابه هذا من الفرات وقد قطع غمرة مائها . ودوني من فرات مولانا التي لا تقطع غمرة نعمائها . فأروى من هذه غليل أوامه . وسيروى من تلك غليل أيامه . وكلما استقره من هذه عذوبة مذاق . ورونق اشراق . فانه حكاية لما يرحوه من تلك عذوبة الطاف . ورويق عيش صاف . وابرح ماتكون لوعة الغراء . اذا دنت الخيام من الخيام . وقد ودّ لو ساقق الريح في مجراها . والشمس في مسراها . شوقاً الى ذلك الجنب الذي هو موطن هواءه . ومحل نجواه . ومقر عزه الذي أُلِفَه فنه يعرف سواه . وعهده به والليالي اتراب . والايام اصحاب . والعيش كله ربيع وانعمير كله شباب وسيخلف ذلك كله بمعاودة جلولة . واستئناف نزوله . وسيدخل بابه ساجداً ويقول حطة عند دخوله . وللآراء العالية مزيد العلو إن شاء الله تعالى .

[٣٢]

كتابُ تَبته عن نفسه الى تاج الدين الكندي (١) جواباً عن كتابه وارساله الى دمشق ر ر :

وصل كتابُ المجلس السامي رفع الله ذكره في الذاكرين . وجعل (١٣ ب) له لسان صدق في الآخرين . ولازال قادراً على تمام كل فضل اذا بان نقص القادرين . فتلقيته تلقى المعدم لليسار . ووجدت به وجد المشوق بدنو الدار . وتأملته بطرف مانظر الآرأه مائلاً . ولا رقد الآ كان بين جفنيه نازلاً . ونقلته الى قلب لم يحل عن عهد وفائه . ولا حاد عن سنن حبه مع خفائه . وكنت أومل ان يكون كتابه قبل كل كتاب . وثواب وده عدل كل ثواب . فكذبتني مخيلة ذلك الأمل . ولم أحصل من الثقة به الآ على الخجل . ولو عتبت لآثرت بجياد القلم تقع العجاج . وطاعت بأطراف القول التي هي أمضى من اطراف الزجاج . غير أنني لاأخذ بقول القائل :

اني اذا ماالصديق أحدث لي هجرأ وملّ الصفاء أو قطعأ

لا أحتسب ماءه على رنق ولا يراني لبينه جزعا

ولكنني ألس الصديق على لبيه . وأنظرة الى أن يعترف الحق على نفسه . ولا أنسى برد ظله لحر هجره . وأذكر ماعرفته من وده بما أبدته الاياء من تنكيره . فان من يرى الاخاء معارضة . والوفاء معاوضة . لم يكن عقد خلته وثيقاً . ولئن

يَسْمَى تاجراً أُولَى من أن يَسْمَى صديقاً ، وربما اعتذر (١٣ أ) المجلس لتأخر كُتْبِهِ ، وأحالَ بذلك على مُواصلة قلبه ، فيقول ليسَ الوُدُّ باطلاقِ اعْتَةِ القلم ، وما يرغبُ من مواظبة الزيادةِ الأمتهم ، وهذا عذرٌ لا يعلم صحته إلا الله المطلعُ على السرائر ، وأما نحن فلا نستدل على البواطن إلا بالظواهر ، ولو حصل الغناء بمجرد النية ، لخط عن المكلفين مؤنة الاعمال البدنية ، وكان يقع التعويل في العبادة على عالم الغيب دونَ عالم الشهادة ، ولستُ أقنع منه باقامة الاعذار ، ولا أرضى من مودته بالاسرار دون الاعلان . ولا بالاعلان دون الاسرار .

وما أنا راضٍ من صديق بنائلي قليل ، ولا راضٍ له بقليل

ولو استجد بعدي خليلاً يكونُ عهده كعهدي ، ويرد في القيام بمصالحه على وردي ، ولم يكن له عذرٌ في رفض أيماننا بذِي سلم ، ونسيان عهدنا ولو أتى عليه القِدمُ ، كيف ولم يسأله خليلٌ بمودته ، ولا اخلق بيننا ذلك العهد لتطاول مدته ، وعلى كلِّ حالٍ من قربه وبعده ، ووصله وهجره ، فانه يحلُّ من كلِّ صدرٍ محلُّ قلبه ، كما يحلُّ من مجلسٍ محلُّ صدره .

لاأبتغي بَدلاً يَسلمى خَلَةً فُلْتَقَرَّبَ بالوصلِ أو فُلْتَهَجَّرَ

وأما الاشواق الى خدمته فان طول العبارة عنها يقصر ، وما يضمره القلب (١٣ ب) منها اكثرُ مما يظهر ، فايَسرُها مايقود برد النسيم ، ويعدي قلبَ السليم ، ويوقظ اصحابَ الكهف والرقيم ، ولقد هجرتُ العيشَ لبعده وان شاقني باعجابه ، ودممتُ الزمنَ لفراقه وان كان في شرحِ شبابه ، ولئن بخلَ عليّ بكتاب فقد جدتُ له بقلب ، او طوى عني اخباره فان الصبا رسلُ الصبِّ ، ولم يزل الهوى منفرداً بالحكم في اهله ، فهذا مقلبي على جوده ، وهذا مودودي على بخله . وكان بلغني ان القرية التي ابتاعها من بيتِ المالِ اُرْتُجِعَتْ ، وأنه كرَّرَ المخاطبة في استرجاع ثمنها فما نجعت ، ولو أنصفَ لعمولٍ بكلِّ جميلة ، وعلم ان مقامه بتلك الخطبة فضيلةٌ تزيد على كلِّ فضيلة ، فانها لم تُفْضَلْ غيرها من البلاد الا بسكناه ، ولا يشرف اللفظُ الا بشرف معناه .

أرضٌ لها شرفٌ سِواها مثْلِها لو كانَ مثلكَ في سِواها يوجَدُ (١)

وأنا ارجو ان تفيق الايامَ من سكرها ، وترجعَ الى المعهود من أمرها ، فربَّ زنديكها ثم وري ، ومنيع غاضٌ ثم جرى ، ولا يعرف قدر الصحة الا بعراض السقم ، وقد ينعمُ الله بالبلوى كما يبلى بالنعيم ، ورأيي المجلس أعلى في ايناسي بكتبه التي تلهي عن كلِّ لذة ، ويكثر وقعها (١٤ أ) عند ذوي المعارف ولو كانت فذة ، وللآراء العالوية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن نفسه الى الملك الافضل علي بن يوسف ابن أيوب ، وارسله اليه الى حصن صرّخذ .

يقبّل الارض بين يدي المواقف الشريفة المولوية الملكية الافضلية ، بسط الله أمرها كما بسط سماحها ، وسهلّ لديها كلّ صعبةً ولأنّ جماحها ، وجعل التقوي جنتها والتوفيق سلاحها ، والهمها امسك عقائل نغمه بالمعروف ولا قضى لها سراحها ، وينهي ولاءه وان كان لانتهي اليه المفاوضات ، ولا يحموه التعويض بصحة مولى غيره فانّ الولاء لاتدخله المعاوضات ، ويتعذر عن تأخر كتبه اعتذار مذنب مقرر بذنبه ، ولولا وثوقه بمعرفة مولانا أنّه الولي المخلص الذي لاتزيده الايام الا ودأ ، وليس بالمحب الذي أصاره البعد حراً ، وكان في القرب عبداً ، لما سامح نفسه باجمام لسان اقلامه ، والقعود عن مواصلة من شمله بانعامه ، وهذه الخدمة أصدرها وقد اخذت الاشواق منه مأخذها ، ونفذت سهام الغرام من قلبه منافذها ، فهو يتعلّل باستنشاق النسيم وما يشفي عليل غليلا ، وينضح أوامه بالعذب النмир وليس مايل (١٤٠ ب) شفة يبل غليلا ، ولو رأى بعده عن الخدمة في منامه لما اكتحل بالمنام واشفق من تعبير رؤياه وقال هذه أضغاث احلام ، كيف وقد رأى ذلك عياناً ، ومُنِي به زماناً ، الا أنّ الله أمده بجلد يقوى به على الاشواق وسعيرها ، وثبته بالقول الثابت عند مسائلة منكر الصباة ونكيرها ، واذا انزل الله بلاءً أنزل معه صبرا ، واذا أتى بعسر جعل الى جانبه يسرا ، وهو المسئول في اعادة أوقات اللقاء التي تعدل كلّ ساعة منها دهرًا ، وتكفر سيئات الايام ولو كانت كُفرا .

أسالم حين أبصرك الليالي وأصْفَحَ للزمان عن الذنوب
وأُنسى كلّ ماجنت الرزايا عليّ من الفوادح والذنوب

والمملوك يجدّد تقبيل الارض ، ويرجو التوفيق لاداء نافلة الخدمة ، فانه لايطمع في اداء الفرض ، ويسأل انعام مولانا الذي لا يخيب سائلة كيف وهو البحر الذي لجّته المعروف والجود ساحله ، أن يشرفه بكتبه ، ويُفسّر بها من كربه ، وان يستنهضه في المتجددات من الاوطار ، ويسلك به مسلك العبيد الاحرار ، لاعبيد الدرهم والدينار ،

وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن نفسه الى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي البيساني جواباً عن كتابه .

يخدم المجلس العالي الفاضلي جعله الله من الذين سبقت لهم من الحسنى ، ووصل به اسباب السعادة صلة اللفظ بالمعنى ، ولا زال ساهراً في كسب المجد اذا غدت عيون الامجاد وسنى ، عامراً لاعماله الصالحة اذا تشاغل غيره بعمارة المعنى . وينبى انه ورد من جنابه كتاب كريم ، بل شهاب عميم ، رقم على الالباب بل نظم في الرقاب ملابس عبقر ، بل نفائس جوهر ، فأحرمت للقاءه ومن حج البيت أحرم ، وسلمت لحكم فضله ومن عرف الحق سلم ، وأفضت في ذكر مناقبه فقلت التي هي أحسن ، وسلكت التي هي أقوم ، وتناولته بيد ما بسطت الآ بالدعاء لايامه ، ولا قبضت الآ بالاشتمال على انعامه ، وتأملت به بطرف ماهدب الآ كان أول شيء عند هبويه ولا نام الآ كان آخر شيء عند منامه ، فابتد لي صفحته روحاً وريحاناً ، وحلت علي من فضائله وفواضله بكراً وعواناً ، وأذكرتني من أيام لقاءه أوطاراً وأوطاناً ، وعرفتني (١٥٠ ب) من حسن خبره خيراً ما كنت أعرفه عياناً .

فشغلني اللهج بحسنه عن شكر احسانه ، ووجدت به ما يجد المحب بأحبابه ، والخيال بخلانه . وجعلت يومه للايام سيّدا ، وضربته للسرور موعدا ، وأطربته حتى سار به الحادي مشمراً ، وغنى به الشادي مغزداً ، وكأني كنت قبل وصوله في ظلمة فأتى بالصباح ، وفي عقلة فأتى بالسراج ، وفي غلة فجاء بالماء القراح ، وفي شكوى خصاصة فأهدى ماملاً اليد من السّماح :

فكان أغض في عيني وأندى على كيدي من الثمر الجني

وضمن صدره مالم تضمن صدور الغانيات من الحلي (١)

فياله من كتاب أتعب اللسان بوصفه ، وأراح القلوب باستنشاق عرفه ، وأثقل الاعناق بيزه الذي وقفه في سبل المكارم فلا انقطاع لوقفه ، ولقد رمت معارضته فكان الخاطر قطرة في تياره ، وسكيتاً في مضماره ، وعلمت اني أساجل شهباً بحصى ، والقي سيفاً بعضاً ، وأخوض غمرة لست فيها بسابح ، وأوازن كفة لست فيها براجح ، وأطاول هضبة ليس بصري اليها بطامح ، فعمدت الى سوابق معانيه (١٦) فسلبت منها طرفاً ، ودخلت جنبته فرزقت من قطوفها قطفاً ، كي أغدو في حومة البيان فارساً ، وأتخير ثمرات المعاني جانياً وغارساً ، وأصدرت هذه المكاتبه وشطر منها حلبة رهان ، وشطر منها منبت أغصان ، فحوت الجمال بأسره صورة

ومعنى ، وحازت الفضيلتين معاً سبقاً ومجنى ، ألا انها أتت رافلةً في ثوب سارق ، وغدت مسبوقهً على صهوة سابق ، وعلى الحقيقة فما هذه الصهلة الآ من ذلك الطرف ، ولا هذه الخمرة الآ من ذلك القطف . وأما شوقي الى رؤيته الكريمة فان السكوت عنه أفصح من البيان ، ورَبَّ صمت قلب أفهم من نطق اللسان ، الآ أن ايسره مقارعةً الهموم والضلوع ، ومطاردةً الجفون والهجوع ، ولقد كان في غلوائه والدارُ قريبة ، والآمال غير مربية ، فكيف وقد أصبح شمل الآمال مفرقاً ، وأضحى الركب مغرباً ومشرقاً ، لكنني اتقع بزورة كتابه التي هي زورة حبيب ، وأستشفي ببرد نسيمه الذي هو لداء الغرام طبيب ، واستجمر بأرج نشره الذي تضع وما خامرةً طبيب .

وقنعت بالمُهْدِي اليّ نسيمهم أن المحب بما تيسر يقنع (١٦٠ ب)
 فليجزل المجلس عارفتي باهداء كتبه ، التي تنوب مناب قربه ، فانها موهبةً تؤكل بالضمير وتُشرب ، وتعن لرد الحروف فيصحب ، وهي خلعة فخر تتجدد بمداومة اللباس ، وتحفة انس إيامها ايام شباب ولياليها ، ليالي اعراس ، وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[٢٥٠]

كتاب كتبه عن الملك المعظم العادل نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل الى ابن أيوب الملك العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب في ربيع الآخر سنة اربع وتسعين وخمسائة ، وسبب هذا الكتاب أن الفرنج خذلهم الله نزلوا على حصار حصين تبنين ، وضايقوه وأشرفوا على فتحه ، وكان هذا الحصن قد فتحه والده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب في جملة ما فتحه من حصون الفرنج بالبلاد الساحلية ، فخرج الملك العزيز من مصر منجداً له فاتفق رحيل الفرنج عنه بغير قتال وهو ، (١٧ آ)

خلد الله ايام المجلس السامي الملكي العزيزي ولا زال عزمه على الاسلام حرماً ، وسيفه على هام الاعداء حكماً ، ورأيه في ظلم الخطوب التي تتصل بها الآراء علماً ، ولا برحت رأيته بالرعب منصوره ، ومواقفه في كتاب الله مشكورة ، والليالي والايام في قبضة تصرفه مأسورة . هذه الخدمة مهنية بالنعمة التي اصبح الدهر يذكرها خطيباً ، وغدا يومها ليوم الاحزاب نسيباً ، واتى فضلها على تأخره مسابقاً وعلى كثرة أشباهه غريباً ، ومن صفاتها أنها سبقت وتمت ، وخصت وعمت ، فهي عامةً للاسلام وأهله ، خاصةً بمن قام بنصره ونهض بثقله ، وغير بدع ان يشب

المجلس عماداً رفعه أولوه ، وان (١) (٢) من أمر المساعي ما أولوه ، فان العلياء تورث وراثته الا (٣) (٤) واطيبُ البواكر دليلٌ على طيب الآصال ، غير انه لا يرضى فيما يبينه بالمشي على الاثر ، ولا يقنع بغرس (٥) (٦) يحنيه من الثمر ، وحسبه ما استجدّه الآن من غزو العدو ، وقد نهض لاخذ ثاره ، وغزا الاسلام في عقر داره ، ولئن غرّه الطمع حتى نازل حصناً غلب عليه قومُه ، وساموا عودَه من قبله ، فعزَّ سؤمُه فقد رأى بساحته (٧٠ ب) في مصارعهم ما ينسيه طلبُ ثاره ، ويدمُّ اليه عقبى اغتراره لكنّه اطمأنَّ الى خلوّ القاب من أسيدِه ، وبُعِد الانجاد على مستجدّه ، وان اتاه غيله فوراءه من المجلس طالبٌ لا يأتيه اغتيالاً ، أو اغتتم خلوّ ارضه فدونها من يملأها عليه ظباً ورقاقاً واسلاً طوالاً ، ما ذلَّ طرف حاميهِ مقيمٌ بوسطه ،

ولا شطَّ تحديد مرمى تقذفه الهمم باضعاف شططه ، والمجلسُ يحمي ما قبل حريمه ، ويركب اليها حدَّ الخطب فتجد حرَّ سؤمِه كبرد نسيمه ، فلماذا ترك العدو تلك العقيلة صاغراً ، وأبدى هجرها وان لم يكن لها هاجراً ، ولقد عادوا عنها بقلوبٍ مخفة ، وهمم مقيدة ، وهموم مطوية ، لم يظفروا الا بخيبة الطلاب ولا حصولوا من تقسيمه الا على اياب ، وزادهم غيظاً انها بنتٌ عجز فرسانهم عن اقتراعها ، وسبيته من سباياهم لم تطاوعهم على ارتجاعها ، واشدُّ ما بذلوا لها نفوساً واموالاً ، ومدوا اليها عيوناً وامالاً ، وصبروا فيها على صبارة الشتاء في أشدِّ صرّه ، والتياث قطره ، فسُحِب السماء وسُحِب الدماء متوافية ، ونارُ القتال ونارُ الاصلاء متكافية ، وتلك الارض مجودة سحابين من ماء الغمام ، وماء الح الجماجم ، وهم مصطلون (١٨ آ) بنارين من وقود الحطب ووقود الصوارم ، وعلى ما بهم من ثبات الاقدام واستعذاب الحمام ، فانهم تركوا الطريق للسيل الذي يضيقُ به كلُّ واد ، وبقوه بسلاح الهرب الذي رأوه أمتع من سلاح الجلاذ .

عَلِمُوا أَنَّ الْغَزْوَ كَانَ كَمَثَلِهِ غَزَوْا ، وَأَنَّ الْغَزْوَ مِنْكَ بَوَارٌ
فَالْمَشِيُّ هَمْسٌ وَالنَّدَاءُ إِشَارَةٌ خَوْفٌ انْتِقَامِكُ وَالْحَدِيثُ سِرَارٌ (٤)

ولقد قطعتُ فيهم شباةٌ خوفه قبل أن تقطع شباة شفاره ، وكبر في صدورهم بحر حربه فتولوا عن ساحله قبل أن يغرقهم بتياره ، فقاتلتهم سيوفُه وهي في اجفانها نائمة ، وجرت في قلوبهم خيلُه وهي بمرابطها قائمة .

والآ تقتل نفوسهم فقد قتلت عزائمهم ، والا تأسر رقابهم فقد أسرت شكائهم . وربما أذكى فوتهم بقلوب المسلمين همماً ، وظنوا أنهم غدما من جهادهم اجراً ومن اسلاهم غنماً . والهزيمة شبيهة بالقتل ، وأجرُ الجهاد واجبٌ وان لم يكن بهز رمح وتجريد

نصل ، وفي مواهب المجلس ما يغني جيوشه عن الانفال ، كما اغنتهم جيوش نصره عن القتال ، وكفاهم غنيمة بقاء حصنهم بعد أن اخذ العدو بمخنقه ، وفك إليه معقد سوره وخندقه ، فإن (١٨ ب) هذه غنيمة تكون سبباً لمغانم ، وذخيرةً لاحتيفها النفقات والمغارم ، وهي من نعم الله التي لا يزيد لها الاطراء سناءً ، ولا يهدم لها قدم العهد بناءً ، بل تزيد فضلاً على قول كُـلُّ قائل ، وتستجدُّ مكثاً على عقب كل زمانٍ راجل ، ويزينها انها زُفَّتْ للمسلمين بيد المجلس الذي هو وليُّها ، وبرزت مختالة في شرف مساعيه التي صيغَ منها حليُّها ، وللآراء العالوية مزيد العلوان شاء الله تعالى

[٣٦]

كتاب كتبه عن نفسه الى الامير مجاهد الدين قايمار وكان سار عن الموصل الى نصيبين في خدمة مخدومه الملك العادل نور الدين ارسلان شاه في ربيع الآخر سنة اربع وتسعين وخمس مائة ، وذلك بعد موت عمه عماد الدين صاحب سنجار ، وجرت الحرب بينه وبين اولاد عمه على باب نصيبين ، وكانوا تحصنوا بارسال المياه حولهم فهزمهم ، وفتح نصيبين فاصدر هذا الكتاب ، وضمننا ذكر ذلك بعد ذكر الشوق والوحشة وما جرى مجراها : (١٩ آ)

وإذا ارتحلت فشيئتُك سَلامَةً أنى اتَّجَهْتَ وَدِيمَةً مُدْرَارُ
وأراك دهرُك ماتحاولُ في العدى حتى كأنَّ صُرُوفَهُ أنصارُ (١)

يخدم مجلس المولى مجاهد الدين مههد الاسلام لازال مواجهاً لسعادة في مقامه ووطنه ، محلياً للدهر بايامه التي يفخر بها على ماتقدم من زمنه ، مغالياً في ابتياع المعروف اذا تقاصرت الهمم وعن المغالاة في ثمنه ، جاعلاً تقوى الله نصال سيوفه وأسنة رماحه ومعاطف جنته ، وقد استتاب هذه الخدمة في ابلاغ ادعيته الفائزة باجابتها وقبولها ، وتقبيل اليد الكريمة التي حسدها على الاختصاص دونه بتقبيلها ، وحملها من أعباء الشوق مالا يستقلُّ به ظهور الركاب فضلاً عن سطور الكتاب ، ولئن تختلفت تخلف عن الخدمة الشريفة بجسمه فقد سار معها بقلبه ، وأنما أقام بما هو من طينة الارض وصحب المولى بما هو من روح ربه ، ولقد وجد أثر بُعْدِهِ في أحوال زمانه ومكانه ، حتى أظلم له ضوء نهاره ونبا به مهاد ليله ، وتنكرت عليه وجوه اخوانه ، فالايام لديه مُدْمَمَةٌ وان كانت حميدة ، وملابس العيش عنده مخلقة ، وان كانت جديدة وما يعلم (٥٠ ب) هل اعدته الموصل بذلك

أعداها ولا يدري ايماً افسح بولاء المولى مداه أم مداها . فلو سعت بقعة الى ماكبها لكانت الى جانبه الشريف ساعية . أو تكلم خلق بغير لسان لكانت باشواقها اليه معلية . وبسرعة اياه اليها داعية . وكيف لا تشاققه وقد اضحت عارية . وان كان بها الجميع . عابسة وان ضحكت بارضها ثغور (١) الربيع . وليس رَوْح الديار بكثرة انيسها بل بواجد ناسها . كما انه لاحياة للجساد بكثرة اعضائها مالم تؤيد بشرف رئيسها . وقد تصبح الارض أنيسة والانيسة خالية . ولولا الحظوظ لما أمست الموصل عاطلة ونصيبين حالية .

وإذا تأملت الديار رأيتها تثري . كما تثري الرجال وتقدم وما صرّها ابطاء الحيا وقد روضها المولى بموطىء قدمه . وأنشأ لاهلها سحاب احسان لا تستريح عقائق ديمه . ومن بركة خلوله بها انه ابراً ما كان بارضها من السقم . وأزال ما كان بجوها من الوخم . وقد يعتدل مزاج الارض المريضة باعتدال الشيم . ويدل على ذلك انه وافاها والربيع المعتدل في زمان . ولو لم يتناسبا (٥١ آ) في الاخلاق لما اتفقا جميعاً في مكان . واما هذا الفتخ الذي عوتبت عليه الايام فاعتبت . وحوكمت بالسنة الرماح فأجابت . وطالما أبت فقد كان متوسماً بصوادق الظنون . مشاهداً بالقلوب قبل مشاهدة العيون . ويكفي في تناوله عزم المولى الذي لم يبرم قوماً الا تقدمه جيش من الرعب . ولا هم بمفعول الا قرب عليه مناله ولو كان بمعاهد الشهب . وليس ذلك بيمن يقينه بل بمضائه (٢) ولا أقول كما قال ابو الطيب :

فما لك تُعني بالأسنة والقنا وَجَدُّكَ طَعَانٌ بغيرِ سِنَانِ (٣)

لكن أقول كما قال ابو تمام :

فتى هز القنا فحوى سناء بها لا بالأحاطي والجُدود (٤)

وبلغني ان عسكر الخصم ضرب عليه سوراً من الماء . واحتفى به من نار السيف التي لا تقى قوة الاحتماء . وهذه تعلّة من يضرب عن عز القتال الى ذل الاحتيال . وما ذلك بعجز لمن يعد الغمرة مسيلاً . ويرى الاسداد المانعة كشيئاً مهيباً .

إذا اعتاد الفتى حوض المنايا فَأهُونُ مَا يُمرُّ به الوُحُولُ (٥) (٥١ ب)

ولو أتوا البيوت من ابوابها . ولحظوا هذه الحال في مباديها قبل ان يجيء في اعقابها . لم يتسربوا ليل هم لا يجدون له صباحاً . ولا اضطرروا الى موقف يتخذون نقرار فيه سلاحاً . ولكنهم اغتروا بتناول الايام الذاهبة . وظنوا ان ما في ايديهم ليس من العواري المردودة وانما هو من الاملاك الواجبة . وكذا الباطل يُظن حقاً بتضوؤ زمان . ومن لم ينصف من نفسه انصف منه حدّ السيف وطرف السنان .

وهذه مخيلة ظفر يليها شحَابٌ ، وعنوانُ نصرٍ يتبعه كتابٌ ، وما تستدامُ نعمُ الله الأ بالشكر الذي (١) يقصُّ جناحها ، ولا تُستفتح مغالِقُ الصعابِ إلا بطاعة الله التي يضاعُ (٢) مفتاحها ، فينبغي ان يعتمد الى الرعية فيفاض عليهم العدلُ افاضةً اللباس ، وتطهر أرضهم من الظلم تطهيرِ الارجاس والانجاس ، وأول ما يبدأ به ان يضربَ رِقَابَ المكوس بسيوفِ الابطال ، وتنقل الحوالة فيها على خزائن نعم الله التي لا ينقصها كثرة الافضال ، فانه يجزي على الحسنة عشر أمثالها ، ويعوِّض عن قليل حرام الدنيا بكثيرِ حلالها ، () (٣) وهذا القول كمن (٥٢ آ) نبه يقظاناً ، واستمطر تهتاناً ، وأهدى الى الجنة ريحانا . وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله .

[٣٧]

كتابٌ كتبه عن نفسه ، الى بعض الاخوات بالموصل ، وسببه انه لما ملكَ مخدومه الملكَ الافضلُ علي بن يوسف الديارَ المصرية ، وخرج منها الى حصار دمشق ، سار هو عن الموصل الى خدمته ، وكان مسيره على الخابور الى مدينة الرحبة ، وسلك طريقَ البرِّ على تدمر ، ولقي في طريقه مشقةً وأذىً ، واصر هذا الكتاب من ظاهر دمشق في ذي الحجة خمس وتسعين وخمس مائة وهو :

أصدرتُ هذا الكتاب الى حضرة الاخ فلان متعه الله بخفض الجناب ، ولقاء الأحاب ، ولا ابتلاءه بالسفر الذي هو قطعة من العذاب ، وقد ضمنته تفاصيل أخباري في ظعني ، ليعلم اني ودعت برد العيش منذ ودعني ، وأنا أشرح له الطريق التي سلكتها ، والصعاب التي عركتها ، والمخاوف التي أرادت تملكيني فملكتها ، وذلك اني سرتُ على أرض الخابور وهو نهرٌ ذو غدرٍ وشجر ، لا يجد مأوه (٥٣ ب) من البرد ، ولا يروي وارده على كثرة الورد ، فالحميمُ مستمدٌ من شرايه ، وطينة الجبال مخلوقة من ترابه ، ومن صفاته انه منبعُ الوخم ، ومنبتُ السقم ، وكلُ تربة منه تضرب من ألم ، واذا رأيت أهله قلت احياء في صورة الاموات ، قد منو بدقة الرقاب وعظم البطون وضعف الاصوات ، كأنما البسّتهم الامراض لباساً بين الاخضر والاصفر ، فخال المتأمل ان جلودهم نمية (٤) عبقّر ، فسرت في هذه الارض خمسة ايام ، لأجد بها لذة قرار ولا راحة منام ، ثم نزلت أرض الرحية مستبشراً بانجاة من ذلك العذاب ، فلم أخلص من الوكف إلا الى تحت الميزاب .

لم آتيا من أي وجه جئتُها

وَتَرُدُّ ذَكَرَانَ الْع. قَوْلِ اَنَا (٦)

تصدا (٥) بها الأفهامُ بعد صقالها

قد فتك الغناء بعمارها وعمرانها ، واعجمت فأعرب البلى عن ترجمته لسانها ،
 كأنما اتخذها ملك الموت داراً ، فلم يترك بها دياراً .
 الآ بقايا من أناسٍ عذبوا بغرائب الامراض والاسقام

فلما رأيتها مستوبلةً ، نويت عنها رحلةً معجلةً ، فوجدت الطريق مشحونةً (٥٣)
 (آ) بقبائل الاعراب ، مغلقةً دونها الابواب ، فسألت واليها ان ينجدنا بطائفةٍ من
 أجنادها ، ويمدنا من كل قبيلةٍ بواحدٍ يكف عنا عاديةً فسادها ، فاذا الرجل مضطرباً
 الى مُصانعةٍ عن بلده ، لا يجدُ سبيلاً الى نفعنا بلسانه ولا يده ، فبسطنا له من
 العُذر ، وانما يلام الفتى فيما يستطيع من الامر . ثم جمعنا شردمةً من طوائف
 الاعراب متفرقةً ، ووظفنا لهم وظيفةً من المال ليكونوا لبابك رقه (١) ، وسرنا عن
 الرحبة ليلة الخميس الثالث والعشرين من ذي الحجة ، فلم يكن الا صبيحة ذلك
 اليوم حتى وقعنا بين فرق الاحلاف ، وصرح لنا الشرُ فعلمنا انه واقع بنا بلا
 خلاف ، وأحاط بنا جمعٌ كثيرٌ من مشقتي الكعب والثياب ، البوالين على
 الاعقاب ، ما بين مليحة وشويحة ودعيج وبُعيج (٢) وسحيم ، وآخرون غير
 هؤلاء ، كأن أسماءهم رقى الاساود (٣) والاراقم ، وصورهم صور الاناسي الآ أنهم
 بهائم .

حُرَابٌ باديةٍ غرثى بطونهم مكن الضباب لهم زاد بلا ثمن

ثم أخذوا يرمون أمراً وينقضونه ، ويأتمرون فيما يمضونه ، ونحن مرتهنون بما
 تسفر عنه العقبى (٤) ، الى ان قاطعونا قطيعةً سموها مداراةً ، وهي عين النهي
 فاستنصرنا عند ذلك من معنا من ذوي السلاح ، فلم نر الا وجوهاً (٥٣ ب) قد
 امتعت ، وافئدة قد انتزعت ، وأكفأ قد قطعت فلا تمُد ، وابصاراً قد حُسرِت فلا
 تردت ، فاشتبهت السيوفُ باغمادها والنصالُ بأعوادها ، وصارت عدة ليوم زينتها ،
 لاعدة ليوم جلادها . فبينما نحن كذلك اذ ادركنا اميرٌ من امراء بني كلاب يدعى
 عامر بن سعد فقلنا هذا الرجل يمنع ، وان لم يمنع فيشفع ، فلم نجد له بذلك
 يدين ، وكاد أن يكون لنا ثاني اثنين ، فقطعنا الرجاء ، وأخذنا من القوم النجاء
 فانقذنا الله من الطامة الكبرى ، وأرانا قبل الممات النشأة الاخرى ولا حال
 (٥) بالخبر من ذكرها ، ولا تفي حلاوة يسرها بمورارة عسرها ، فأثرها
 غيرٌ ممحورٍ من القلوب ، الا بقاء الملك الافضل الذي يكفر ماجنته الايام من
 الذنوب . ثم نزلنا تدمرَ فقيل ان امامكم طائفةً من بني فضل ، فحفنا ان يكون
 يومنا مع اولئك يوم الجمع ، دمع هؤلاء يوم الفصل ، ولم نزل سائرين بين نار

الخوف الموقدة ، الى ان تطلع على الافئدة ، ونار الهجير التي تتضرم وهجاً ، وتوسع
الجلود تبديلاً ونضجاً . هذا الى غيره من ادمان سهر ناط كل جفن بحاجب ، وادمان
سير خاط كل ظهر براكب ، حتى لاح لنا الجناب الأفضلي ، الذي (٥٤ آ) هو من
كل وفيد مملو وبكل فضل ملي . فحينئذ رفضنا غوارب الابل وصهوات الخيل ،
ونسينا شقاوة حر النهار وظلام الليل ، ونبتنا بذلك الجناب كما نبتت الحبة في
حميل السيل (١) .

فلم نغش باباً أنكرتنا كلابه ولم نتشبت بالوسيلة (٢) من بعد

فليتأمل الاخ فلان صورة أمرنا كأنه يراه ، ويحمد الله على سلامة أخيه قانه
يظنها من أحلام كراه ، وليدم المواصلة بكتبه فانها قبلة تولى القلوب شطرها ، ويد
لاتؤدي الالسنه شكرها ، ولو لم يكن فيها الا الاستمتاع بخبره ، فقد ينوب سمع
المرء مناب بصره ، وكنت أعرته كتاب الموازنة بين شعر الطائيين لتعتبرون (٣)
مؤلفه وتنتقد صرفه من تصرفه ، ولا اعلم هل أتى عليه أولاً وأخيراً ؟ وهل كاد أصنام
المقلدين فلم يستثن منه كبيراً ؟ أم عكف عليها كما عكفوا فصار لهم ظهيراً ؟ على
أنى أعلم انه لا يستنجد في حومة الجدل الا بمدد قريحته ، ولا يستعصم الا بقاءم
لسانه الذي النصر مكتوب على صفحته ، ولئن ساء هذا القول قوماً يأخذون ببيئات
الطريق ، فاني لاقول الا الحق من صديق ، والسلام ان شاء الله تعالى . (٥٤
ب) .

[٢٨]

كتاب آخر كتبه اليه في جمادى الآخر من هذه السنة بعد الخروج من مصر ،
واستيلاء الملك العادل ابي بكر بن ايوب عليها :

أهمُ بشيء والليالي كأنها تطاردني عن كونه وأطارده (٤)

صدرت هذه المكاتبة الى حضرة الاخ فلان ، أراضه الله عن الزمان ، ولا فرق
بينه وبين الاخوان ، وجعل مطالبه سائرة الى وطنه اذا سير في طلبها عن الاوطان ،
مضمنة مالمقيته من الحادث الذي لم أضح من سكرته ، وان نجوت من خوض غمرته ،
ليعلم ان عزمي لم ينحني ، وان سلامتي أشجع مني .

وكنت كاتبته بما نالني من الضر في ابتداء السفر ، وكيف جرت الحال مع
العرب الذين حالوا دون الطريق ، ومعاناة المشاق في النجاة من ذلك المرمى
السحيق ، والنجح العميق .

ثم أقمنا بعد ذلك على حصار دمشق في خروبٍ قائمةٍ ، وغراماتٍ لازمةٍ ، حتى استنفدت قوى النفوس والاجسام ، ولم نحظ منها إلا بطول المقام ، وسرنا عنها الى الديار المصرية والعساكر برمتها ، والمهاجرة باقية على حرمتها ، وتركنا من بها بادي الضعف ، مغضوض الطرف ، لاتخشي منه عادية بعد استحصاره ، ولا يُرجى له خروجٌ من وراء جداره . فوثب (٥٥ أ) على ظلعه ، وتبعنا على قلة تبعه ، فصادف العسكر قد تفرق في بلاده ، والمملك قد أمكن من قياده ، فاقدم وماتردد ، وفوق (١) سهم كيده فسدد ، ولقد ركب خطراً لا يسلم رايته ، وان سلم لاتسلم له مطالبه ، إلا انه تيباً له من صنع القدر ، مالم يكن في وسع البشر ، فواتاه الزمان مبادراً ، وكان محصوراً فاصبح حاصراً ، وكنت قدمت اليه ذنباً لارجو معه عاقبة اغضائه ، واستسلفت منه ديناً لاصبر لي على اقتضائه ، ففجأني من هذا الامر ما أسقم وأهرم ، وجلب اليّ الهيم من حيث أعلم ولا أعلم ، ومنيته بمرض الليالي الذي هو أشد من مرض الاجساد ، غير انه لا يوجب علاج الاطباء ولا عيادة العواد ، ولقد اصابتني قبلها شدائد ، وعودني الدهر منها بئس العوائد ، حتى تتابعت اليّ بما ضاقت عنه أيامي ، وصار فؤادي لها كرقعة للرامي .

فصرت اذا اصابتني سهام تكسرت النصال على النصال (٢)

ولما طمئت هذه الحادثة كبرت عليّ حتى توهمها عياني ، وصادف تلك الحوادث بالنسبة اليها أماني ، فعلمت حينئذ ان الحزم في التشمير ، ولم آت بالرأي الاول في الزمن الاخير ، فكتمت أمري ، وخففت ظهري (٥٥ ب) ، وهوتت إلا اكون في هذه السفرة من الغانمين ، وخرجت وقلت :

« ربّ نجّني من القوم الظالمين » (٣) . . ثم سرت وعلى الراحلة من عزمي ما بزها ، ولو اهتزت الارض من ثقل لهرها ، غير أنها طموخ الزمام ، تذر المطي خلفها صفاً وهي أمام ، لاتخور السير لها جسماً ، ولا بدّل جهلها حلماً ، كأن لها منه مقاماً مريحاً ، أو مراداً فسيحاً ، وانا من فوقها لانجي الآ غضب الحد ولدن الكعوب ، ولا صاحب الآ بلغة العيش والسرى والشهب ، فأصبحت بالاهوال ، وأخا الشد والترحال ، كأنني خلقت من اقدم ، وولدت على صهوة أو سنام .

أسي زميلاً للظلام ، وأغتدي
رذفاً على كفّل الصباح شهب
فأكون طوراً مشرقاً للمشرق الـ
أقصى ، وطوراً مغرباً للمغرب (٤)

هذا والنفس معلقة بمصر ، فاني لم اقم بها شيئاً يمتع نظري ، ولا يذهب وعثاء سفري ، كأنها شوقتي وما ذوقتي ، وطالعتني ثم قاطعتني ، ولقد شاهدت منها

بلداً يشهد بفضلله على البلاد ، ووجدته على الحقيقة هُوَ المَصْرُ وما عداه فهو السَّوَادُ .
 فما رَأَهُ رَأَى الأَمْلَأَ عَيْنَهُ وصدرة ، ولا وصفَهُ واصفٌ الأَعْلَمُ انه لم يقدره قدره (١) .
 وبه من عجائب الآثار ما يضبط بالعيان (٥٦ أ) فضلاً عن الاخبار ، فمن ذنك
 الهَرَمَانِ اللذان هَرِمَ الدهرُ وهما لا يهرمان ، قد اختصَّ كُلُّ منهما بعظم البناء ، وسعة
 الفناء ، وبلغ من الارتفاع غايةً لا يبلغها الطيرُ على تحليقه ، ولا يدركها الطرفُ
 على شدة تحديقه ، فاذا اضم برأسه قبسٌ ظنُّهُ المتأملُ نجماً ، واذا استدار عليه قوسُ
 السماء كان له سهماً ، والناسُ مختلفون في وضع هذين الهرمين ، فالأكثر تزعم انهما
 وضعا عصمةً من الطوفان ، وعلى الحقيقة فانهما بانكار شأنهما اولى من العرفان .
 ولقد صدق ابو الطيب المتنبي في قوله :

أين الذي الهَرَمَانِ من بُنيانه ماقومُهُ ما يومُهُ ما المَصْرَعُ (٢) ؟

ومن عجائبها ايضاً موضعٌ يقال له المقياسُ ، وهو بناء وضع بجزيرة تجاه
 الفسطاط ، يعلم منه ميزان النيل في الارتفاع والانحطاط ، ويوسط هذا البناء عمودٌ
 قُسم اذرعاً ، وقسم كلُّ ذراع اصبعاً اصبعاً ، فاذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً عند
 الازدياد ، يستحق حينئذٍ الخراج على جميع البلاد ، وبظاهر مصر متنزهاً كثيرةً ،
 كبركة الحبش وبركة الفيل ، ومستنقعات ماء يغادرها المدُّ فسمي مقطعات النيل ،
 ولأهل مصر بهذه المستنقعات غرامٌ واستهتار ، ومفاخرة في تفضيلها (٥٦ ب) على
 غيرها من الديار ، وهي لعمري حسنة المنظر ، شبيهة بدراهم ماثوثة على فراش
 أخضر ، وهذا الذي ذكرته من محاسنها عنوان كتابها ، و(٣) في الاشتغال بهذه
 الحادثة عذرٌ لخاطري الذي أتى بها ، ولما حدث ما حدث بغض الي هذه المدرة (٤) ،
 تطيَّرتُ بها وان كان لا طيرة ، على انها بلدٌ يسلي المحبَّ عن أحبابه ، ويفري
 الغريب بطول اغترابه ، فمن خواصها ان المقيم بها يجد نشوةً من غير شراب ،
 ومسرات تتجدد بلا أسباب .

فالرياحُ التي تهبُّ نسيماً والنجوم التي تطلُّ سُعوداً

غير اني رأيتُ مفارقتها عين الاحتياط ، فما يفني طيبُ الجنة بروعة المشي على
 الصراط ، ولئن ضلَّ بها (٥) مقصدي ، وخباسنا الكواكب الذي كنتُ به اهتدي . فلا
 عليّ ان أرسلتُ سهماً فصفتُ به ريحٌ عن عرضه ، فما أنا بأول من مني من الحظِّ
 بأسوده ، وقد أتى من القصد بأبيضه ، وان سرُّ بايايبي قومٌ ذوو وداد ، وسيء به
 قومٌ ذوو أحقاد ، فما أب من خاب ، ولا غاب من بلغ الطلاب ، وعلى كلِّ حالٍ
 ففي الارض مضطرب ، وللرزق مطلب غير هذا المطلب ،

« ولو قَعَدْتُ أتاني لا يعنيني »

لكن كبر النفوس مغلبة بالرؤوس ، وما حمل على الشمل المبدد . والنوم (٥٧ أ)
 مُشَرَّد . كقول القائل « اغترب تتجُدُّد » وقد أن أعصي الاطماع . واترك الزماع .
 واقبل بوجهي على الآخرة التي تبقى . فكفى المرء واعظاً ما يلقي في هذه الدنيا
 وما يشقى ، وطالما تُوقَظُ الحوادثُ لتركها . وهو منحرفٌ في سلكها . وأنا أسأل الله
 ان يوقظني من هذه السنة . ويجعلني من الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه .
 وهذا الكتابُ صدر الى الاخ فلان . وقرب الدار قد برح بشوقي . وحملني منه فوق
 طوقي . وانا ارجو ان اعقر برؤيته ذنوب الايام . ويصبح مالمقته منها كأضغاث
 أحلام . وقد كان يعهدني وقلمي يتجلى من البيان باسمائه . ويوضح . أنوار المعاني
 بظمائه . فأصبحتُ يدي حمالة الحطب . وأصبح خاطري أبا جهل بعد أن كان ابا
 لهب . فلا هذه تُخبِرُ . ولا هذه تعبُرُ . فان عاملني معاملة المنصف تلقى كتابي
 غاذراً . وأمضاني في ديوان عرضه وان كنت حاسراً . فللاضطرار (١) حكمه . وقد
 يجهل أمراً من سبق لديه علمه . والسلام .

[٣٩]

كتابُ كتبه في المعنى الى اخيه الأكبر مجد الدين (٢) أبقاه الله تعالى (٥٧ ب)
 « كم تركوا من جناتٍ وغيونٍ وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين » (٣) .
 أصدرتُ هذا الكتابُ الى المولى الاخ مجد الدين لامدَّت الايامُ اليه يداً . ولا
 أشمت الله به عدئ . بعد ان فارقتُ مصرَ التي هي مدى الاوطار . ومددُ احاديث
 الأسمار . والجنة التي تجري من تحتها الانهار . الا اني أخرجتُ منها قبل أن أكل
 من شجرتها . ولا سرحتُ قلبي في سُورها . ولا عيني في نضرتها . وقد هون ذلك
 انه لو دام الى انقطاع . وإن خيراً منه ما يقدره الله من الاجتماع . وأنا أسأل الله أن
 يجعل هذه السيئة آخر ما ألقى . وان يؤتيني منه هدىً لأظلُّ بعد اتباعه ولا اشقى .
 وبعد : فلا شك ان المولى يستطلع خبرَ هذه الحادثة على اصله . وقد تضمنت هذه
 الاحرف ما يستدلُّ ببعضه على كله . وذلك انه لما فارقتنا وترك الامور على ما بها من
 اختلاف الامر . في حلِّ زيدٍ وعقد عمرو . ولم يخف على ذي بصيرة ان بناءها يُهدمُ
 وشيكا . وان أمر الملك لا يحتملُ شريكا . لجزم لتفرق الكلمة حكمً بتفرق الجماعة .
 وسلب الطوعية من اهل الاستطاعة . فسار كلُّ الى بلده . بعد اذ هاب ماله واضعاف
 عدده . وانفاق ما (٥٨ آ) تحويه ذاتُ يده . فلما عدنا الى الديار المصرية تفرقت
 العساكر في مرتبها . وتناقلت عن مجتمعا . فعلم العدو من اخبارها . ما بعثه على
 غزوها في عقر دارها . وكان الملك الافضلُ قد امسك نفسه بطرف البلاد . في طائفة
 يسيرة من الاجناد . وهو يظهر قوةً من ضعفٍ . ولا يجد بدأ من اللقاء ولو انه في

مائة عدد وعدوه في الف ، وكان فيمن معه عصيبة، لئيمة مردها اكرامه ، وبَطَرها انعامه ، فنزعت يوم الروع اسنتها ، وامسكت اعنتها ، افشش في القدم الفشل ، وتقطعت بهم الحيل ، ثم تخاذلوا عن حفظ السور ، وقعدوا عن الاتيان بالميسور . واما المملوك فلما فجئه هذا الامر تلكاً قليلاً ثم اقدم ، واستسلم لقضاء الله وسلم ، وخرج خروج موسى صلوات الله عليه من المدينة ، ولم ينقله ذلك الانزعاج عن خلق السكينة ، ثم سار يلقي الليل من همّه بمثل سواده ، والسير بصبره بمثل امتداده واستداده ، عالماً ان الزماع قرن النوب ، وان البلاد ليست بذئ بنسب ، فخيرها ماوافقك مكثه ، وأمسك حرثه ، ولئن ترحلت عن مصر غريباً فقد اضحت من بعدي غريبة ، وغدت من محاسنها سلبيةً ، فلو استطاعت النطق لقاتلت وتأملت ، (٥٨ ب) او امكنها الانتقال لسارت معي وما تلومت . وهذه الاحرف اصدرتها من موضع كذا بعد ان مخضتني الحوادث مخض السقاء ، وعرقتني طعم النعيم بما مرّ بي من الشقاء ، فأيسرُ مالاقيته اني مُنيتُ بقطع ارضٍ لاعلم بها ولا أثر ، ولا يسري بها الطيرُ الأعلى غرر ، ويكاد ينسى بها عدد الظماء لبعْد الورد من الصدر ، فاصحت قرين اوجال ، وطريد امال ، وزميل شد وترحال ،
كأن به ضغنًا (١) على كل جانب من الارض أو شوقاً الى كل جانب (٢)
وأنا احمد الله على السلامة ، فاني أعدّها خلقاً جديداً ، وأرجو من الطافه قرب اللقاء فاني كنت أظنه بعيداً ، والسلام ان شاء الله تعالى .

[٤٠]

من فصل في كتاب كتبه عن الملك الافضل ، علي بن يوسف الى اخيه الملك الظاهر غازي (٢) ، صاحب حلب عند دخول عمه الملك العادل ابي بكر بن ايوب الى الديار المصرية في ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمس مائة .
والمولى اذا استصرخ اصرخ بعزم كالشهاب في رجمه ، وهو كالقوس (٥٩ آ) المتلوى بنزع سهمه ، ويرى ان صريخه لم يجب ، وانه اذا لم يجبه بالسيف فكأنه لم يجب ، فهو مُعري جواده وحسامه ، ومسمع العدو صرير رمحه قبل قَعْقَعَة لجامه . والخادم يرى ان هذه النوبة هي القاضية ، فاما ان تكون النفس بعدها كل الساخطة او كل الراضية ، فليولها المولى عيناً لا تكحل برقاد ، وعزماً يسير بين الجياد اسرع من الجياد ، ويصحب الاغمام بأقطع مما في الاغمام ، فان يومها بالعمر وما ضمنه الأمل بامتداده ، بل بالملك وما ضمنته السعادة من ازدياده ، وكيف تفرقت الحال فالمولى ذاب عن نفسه ، ومحافظ عن بقاء غرسه ، وهذا الكتاب هو

الاولُ والآخر . ولا يرجى بعده طولُ مدَّةٍ يترددُ فيها الواردُ والصادر . والسلام ان شاء الله تعالى .

[٤١]

كتابُ كتبه الى بعض الاخوان بالموصل في ربيع الاول سنة سبع وتسعين وخمس مائة بعد الخروج من مصر ، وهو اذ ذاك مقيمٌ بحصن صرخد في الخدمة الافضليَّة :
وفي الكُتُبِ نجوى من يعزُّ لقاءه وتقريبٌ من لم يدُنْ منه مزارُ
(٥٩٠ ب)

فلا تخلني منها فان ورودها لعيني وقلبي قرة وقرارُ
قد علم سيدنا الاجل الاخ فلان رعى الله عهده ، وحفظ عليّ وده ، ان كتبه طُبُّ
أوصابي ، وريحانُ شرابي ، وراحتي المضمنة نفاذ زادي وكلال ركابي ، وأنها مناب
لقيام ، وتشفي اوام غلتي الذي لولاها لم أطمع في سقياه . وقد حرمني منها حظاً ،
ومنعني ماكنتُ احذو حذوه معنى ولفظاً . لاجرم ان كتابي هذا صدر غثاً مملولاً ،
وجاء كما يقال كتاباً مغسولاً ، على ان فيما لقيته من هنات الايام عذراً لخاطري ان
ينشي ، وقلمي ان يمشي .
ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خدَم الفؤاد (١)

وانا أشرح له أحوالي ، فانها مما تزيد القلوب صدأً ، وليس بمنكر أن تغدو خيراً ان
كانت الحوادث له مبتدأً . وقد عدلتُ الآن عن شكوى الزمن المليم ، الى شكوى
المكان الذي أنا به مقيم ، وكيف لاشكو ارضاً مئيت بقلة خيرها وشؤم
طيرها ، فلا يوجد بها جارُ الآبوم ، ولا زادُ الآلهوم . (٦٠ آ)
أرضٌ خلقتُ اللهو خلعي خاتمي فيها ، وطلقت السرور ثلاثاً (٢)

وقد كان القلبُ يسكنُ ، والمقام يمكنُ ، قبل ان يلقي الشتاء رحلةً بساحتها ،
وتأخذ أكف الغيث في سماحتها ، فان بسط ثراها يتبدل اذ ذاك ببسيط مائها ،
وتشبه ارضها في تدفقها بسماتها ، وتنحجر الناس في بيوتهم انحجاز اليرابيع ، ولا
يخرجون منها الا في ابان الربيع () ، ولا بد ان أصف له من حال هذه الارض في
بردها ومطرها ، ما يستعيدُ به من خبرها فضلاً عن نظرها . على ان خاطر والقلم
بها قد جمدا ، فلا يستطيعُ أحدهما ان يمضي قولاً ولا الآخر ان يسلك جذاً ،
وجملة الامر أنه لا يزالُ جفنُ الشحابِ بها ساكبا ، وان بدا لنا خدُ الشمس فلا يبدو
الا شاحباً ، على انها في هذا الوقت قد لزمت خديرها ، وأرخت سترها ، فلا ترى الا
من طريق التنجيم في اوراق التقويم . واما بردها فانه يفعلُ في الاجساد فعل الحر في

الزاد ، ومما اشكوه منه أن الفرد لا يلبس بها إلا في شهر ناجر ، وهو قائم مقام الظل الذي يتبرّد به من لفتح الهواجر ، (٦٠ ب) ولفرط شدّته لم أجد ما يخففه فضلاً عما يذهب ، فإن النار المعدّة له تطلب من الدفء ايضاً ما طلبه ، غير اني وجدت ناز اشواقى الى الحضرة الفلانية اشدّ حراً ، فدفعت بضررها عني ضراً . وكنت في ذلك كمن سدّ خلة بخلة ، واستشفى من علة بعلة ..

« فاقتل ما أعلك ماشفاكا (١) »

فما ظنك بمن يصطلي نار الاشواق ، وقد تمنع من اخيه بنجوى الاوراق فضّ عليه بالاوراق ، ولا بدّ من مُرافعته الى حاكم القلوب ، والدعوى عليه بفسخ عقد الاخاء بعد الوجوب ، فليعدّ للمسألة جواباً ، ويستهدف لعتبٍ يجدّ وقعه طعناً وضراباً .

عتابٌ بأطرافِ القوافي كأنه طعانٌ بأطرافِ القنا المتكسر

وبعد فاني أسأله ان ينوب عني في خدمة الموالي السادة شرف الدين نقيب العلويين ، واولاده حفظهم الله من عصابة خصّت بشرف الابوة ، وجعلت كلمة باقية في عقب النوبة ، ويكفيها شرفاً انها احد الثقلين المخلفين عن رسوله ، وان مودتها في هذه الامة هي فحوى مسؤولة ، والسلام ان شاء الله تعالى (٦١ آ)

[٤٢]

كتاب مختصر كتبه عن نفسه الى الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب صاحب حلب عند المسير من حصن صرخد اليه في خدمة مخدومه الملك الافضل علي ابن يوسف ، وذلك في جمادي الاولى سنة سبع وتسعين وخمس مائة . وكان المسير على طريق البر من جانب رحبة بني عنزة فأرسله الملك الافضل من اثناء الطريق ليسبقه الى حلب ويعلم بوصوله ، فسير هذا الكتاب الى الملك الظاهر وهو بالقرب من حلب يوم وصوله اليها :

يارجاء العيون في كل أرض لم يكن غير أن أراك رجائي

ولقد أفنت المفاوز خيلي قبل أن نلتقي وزادي ومائي (٢)

يقبل الارض بالمقام العالي الملكي الظاهري لازال على الممالك زاهياً ، وللايام أمراً ونهاياً ، ويطالع بوصله وقد نزل بالفناء الكريم الذي هو منبت الكرم ، وحره يقوم لمن دخله مقام الحرام (٦١ ب) .

وكان مسيره اليه في لجة البر التي هي أخطر من لجة البحر ، وكانت سفنه بها ما استظهر به من قوة الظهر ، فركب فيها وقال :

« بسم الله مجريها ومرساها » (٣) ، وأمل نعمى اللقاء الذي يذهب بما لاقاه من بؤساها ، ولقد اتمت الركاب وصوت الرعد حاديها ، وضوء البرق في الظماء هاديها .

والارضُ تحبها بلطائفها ، محاكته يد الشحاب من مطارفها ، كأنما أعداها خلق مولانا فتعلمت منه الندى ، واستشعرت قُصْدَ المملوك لبابه العزيز فاتخذت عنده يداً .

كَلِمًا رَحَّبَتْ بنا الروضُ قُلْنَا حَلَبٌ قَصَدْنَا وَأَنْتِ السَّبِيلُ
فِيكَ مُرْعَى جِيادِنَا والمطايا واليهَا وَجِيفُنَا والدَّمِيلُ (١)

ولئن لم ينطق بالترحيب فحوى لسانها ، فقد نطق به فعل احسانها ، ومن برّها انه لم يسر المملوك على مكانٍ منها الا تبدل بَعْدَهُ قُرْباً ، وكاد يصيرُ المركبُ رَكْباً ، وقد انتقل عنها من زهر ربيع الى زهر صَبيع ومن مرتع زكاب الى مرتع ظلاب ومن موارد ماء الى موارد نعماء . وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى . (٦٢ أ) .

[٤٣]

كُتِبَتْ كُتِبَ عن مخدومه الملك الافضل على بن يوسف الى الملك العادل نور الدين اتابك ارسلان شاه (٢) صاحب الموصل ، وذلك بعد الوصول من حصن صرخد الى حلب ، وضمنه الاستنجد على عمه الملك العادل ابي بكر بن ايوب .
يخدم المجلس السامي الملكي العادلي الاتابكي النوري ادام الله ايامه ، وكف بياسه شعب الدهر وعرامه ، وامضى في مواقف القتال ومعارك الافذال سيوفه واقلامه . ولا زالت اوامره للايام رؤوماً ، ومواهبه للآمال المجدية غيوماً ، وآراؤه للآراء الضالة نجوماً ، وعزائمُه للاولياء همماً وللاعداء هموماً ، ويواصل بدعائه المرجو من الله ان يتقبله ، فان لم يكن ذلك بصدق نيّة الداعي فبجاه المدعو له ، يعرض نفسه على ما يعن من الحدم التي تكسوه فخراً ، ويعتدها من الايادي الكريمة التي يوجب لها شكراً ، وينهي ان مودته للمجلس تقتضي (٣) إعلامه بما يتجدد من المهمات ، والاستضاءه برأيه في دجى الحوادث والملمات ، فان المودات (٦٢) ذخائر الايام ، وزحمة واشجة اذا انقطعت وشائج الارحام ، وهذه المكاتبه صدرت من حلب حرسها الله ، بقدر الاتصال بالجناب الكريم الظاهري والاستقرار منه بمنشأ شحاب ، ومراد ركب ومناخ زكاب ، ولما استنصره الخادم وجد منه مهب الصبا ، لقيه في إنجاد أحياناً وفي الاكرام ولدأ وفي الرأفة أباً .

وبنو الأب وان تضافروا على الانجاد ، فان ذوي المودات بنو أب وان لم تجمعهم لحمة الميلاد ، وقد علقَت اليد من المجلس بحبل اذا لوي على مرّة نقضها ، واذا نصب جبالة لنوافر الاغراض قبضتها ، والله يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم ، وينفع به

يومَ يقول القائل فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ، والباعثُ على التوجه الى حلب حرسها الله ، ان العساكر المصرية راسلت الخادمَ طالبةً للأوبة ، قارعةً باب التوبة ، راجيةً عواطف الاحسان ، مستشهدةً بقوله تعالى (الأ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) (١) . ولم تنزل المراسلاتُ تتكرر ، والقواعد تتقرر ، والبيعةُ على هذا الأمر منتظمة ، والحال فيها مُنكّمة ، حتى صرخ الشيطان على عقبها ، وأظهر العدو على حصتها ، (٦٣ آ) فحينئذ وقعت الهجرة الى هذا الجانب ، وكانت الصُحبة فيها لخيرة الله التي هي خيرُ صاحب ، والأملُ منوطٌ بمشيئته في أن يقرن هذا المدخل الذي دخله الخادمُ باعزٍ مخرج ، وينصره من العزائم الظاهرية والاتابكية بحزبي الأوس والخزرج ، وقد سير الى الخدمة السامية (٢) فلاناً وهو له بطانة ،

ولا يداع سره خزانه ، وقد وثق منه بحسن المناب ، وتفصيل ما أجمله فحوى الكتاب ، وملاك أمره أن يلقي من المجلس وجهاً ممتعاً ، وقلباً مُجمِعاً ، وسمعاً لمجال القول مُوسِعاً . فان الاقبال على الرسول اقبال على مُرسله ، ولا يستدل علي عُقبى كُلِّ أمرٍ إلا بتباشير أوّله ، وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[٤٤]

كتابُ كتبه عنه في المعنى الى القاضي ضياء الدين الشهرزوري (٣) وهو اذ ذاك قاضي القضاة ببغداد ، وكلفه ان يعرض هذا الامر على الديوان العزيز النبوي ، وذلك في جمادي الاول سنة سبع وتسعين وخمسائة ، وكان هذا القاضي ضياء الدين قبل ان يلي القضاء ببغداد في خدمة الملك الافضل بدمشق ، وقبلة في خدمة والده الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب (٦٣ ب) .

أدام الله ايام المجلس السامي قاضي القضاة ضياء الدين عماد الاسلام ، وزاده بسطةً في علمه ، ونفاذاً في حُكمه ، وطمسٌ بعدله صلي ظلم الدهر وهضمه ، ونصبه طبيباً لبكمه (٤) ، وسداداً لثلمه ، وجعل ما ينوبه من مستقبلات أفعاله كائناً حتى يمضي قبل حزمه ، ولا زالت () (٥) مستغرقة أقسام القول حتى تأتي على نثره ونظمه .

لو تواصلت كتبُ خادمه بقدر أشواقه لما جنحت شمس لأفولها ، ولا قلصت ليلة من ذيلها ، إلا عن وafd ضمير يحملها الكتاب ، ووافد رسالة تحمله الركاب ، لكن التعويل على ماخط في صحيفة القلوب من الوداد ، لا على ماخط في بياض الصحائف من السواد ، وهذه المكاتبه أصدرها من حلب حرسها الله بعد الاتصال بأخيه الملك

الظاهر غياث الدين ، وقد غَوَّلَتْ يَدُهُ مِنْهُ عَلَى يَدِهِ ، وَكَانَ يَوْمُهُ فِي رُؤْيَيْهِ بِشِيرَاءٍ بَعْدَهُ ، وَقَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ أَنَّهُ الْيَوْمَ شَجَرَةٌ بَيْتُهُ الَّتِي يُسْتَنْطَلُ بِظِلَالِهَا ، وَهَضْبَتُهُ الَّتِي يَعْتَصِمُ بِقَلَالِهَا ، وَحِمَاةُ الَّذِي لَا تَوَطُّأُ أَرْضُهُ ، وَحَبْلُهُ الَّذِي لَا يَرَامُ تَقْضُهُ ، وَقَدْ كَانَ كَذَلِكَ وَمَلِكُ الْبَيْتِ بَاقٍ ، وَلَهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَاقٍ ، فَكَيْفَ الْآنَ وَقَدْ اسْتَطَارَتْ صُدُوعُهُ ، وَتَشَذَّبَتْ فُرُوعُهُ ، فَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ نُصْرَةٌ مِنْ خَاتَمَةِ نَصْرَتِهِ ، وَأُسْرَةٌ (٦٤ آ)

مِنْ بَعْدَتْ عَنْهُ أُسْرَتُهُ ، وَلَمَّا اتَّصَلَ بِهِ خَادِمُهُ وَجَدَ مَلْقَى الْحَفَّانِ (١) ، وَمَلْتَقَى الْإِحْفَانَ ، دَخَلَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالنَّمْعَةِ بَارِضَ خُفَّانٍ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ اشْتِمَالَ اللَّحَاءِ عَلَى الْعُودِ ، وَأَنْزَلَهُ مِنْزَلَةَ الطَّرَافِ مِنَ الْعُمُودِ ، وَبَدَّلَ لَهُ نَجْدَةَ إِخٍ وَرَافَةَ وَالِدٍ وَأَعْظَامَ مَوْلُودٍ ، وَمَعَ هَذَا فَكَلِمًا تَجَدَّدَهُ الْإَيَّامُ لَهُ مِنْ خَيْرِ مَحْسُودٍ ، وَتَبِعْتَهُ إِلَيْهِ مِنْ مَقَامِ مَحْمُودٍ ، فَانَمَا هُوَ بِيَمْنٍ طَاعَتِهِ لِلْمَوَاقِفِ الْمَقْدَسَةِ النَّبَوِيَّةِ مَجْدَهَا (٢) ، وَلَقَدْ عَلِمَ مِنْ أَلْفَافِهَا مَا لَمْ يَعْلَمْهُ ، وَوَجَدَ الْبَرَكَةَ فِي مَلَازِمَتِهَا وَمِنْ بَوْرِكٍ لَهُ فِي شَيْءٍ فَلْيَلْزِمَهُ ، وَلَكِنْ زَحَمَتَهُ الْإَيَّامُ بِمَنْكِبِهَا ، وَأَنْزَلَتْهُ عَنْ مَرْكَبِهَا ، فَقَدَّ عَوْدَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرُدَّ لَهُ الْكِرَّةُ ، وَيَعْجَلُ لَهُ النُّصْرَةُ ، تِلْكَ سَنَّتُهُ فِي أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ الَّذِينَ تَدْرَعُوا بِاسْمِهَا ، وَنَاضَلُوا الْإَيَّامَ بِسَهْمِهَا ، وَمِمَّا يَنْبِهُهُ خَادِمُهُ فِي مَعْرُوضِ خَدَمِهِ ، وَيَعْتَدُّهُ مِنْ نَعْمِ اللَّهِ الَّتِي لَا يُقَاسُ بِهَا شَيْءٌ مِنْ نَعْمِهِ ، أَنَّهُ لَا يَرْفَعُ وَلَا يَضَعُ ، وَلَا يَأْخُذُ وَلَا يَدَعُ ، الْأَ يَعْمَلُ خَيْرَتَهُ فِي ذَلِكَ كُلَّهُ مُؤَامِرَةُ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ مَجْدَهُ اللَّهُ ، فَانَ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَعَلَى النَّاسِ تَقَرَّرَ مَا يَقَرَّرُ مِنَ الْبَيْنَاتِ ، وَفَحْوَى هَذَا الْإِنْهَاءُ أَنَّ الْعَسْكَرَ الْمَصْرِيَّ قَدْ اسْتَبَانَ عَوَاقِبَ النَّدَمِ ، وَاسْتَرْجَعَ زَلَّةَ الرَّأْيِ الَّتِي تَنْسِي زَلَّةَ الْقَدَمِ ، وَذَمَّ مَا بَادَرَ بِهِ نَبْتَ مَوْلَاهُ مِنْ عَقُوقِهِ ، وَطَرَقَ بَابَ التَّوْبَةِ الَّذِي لَا بُدَّ لِكُلِّ نَادِمٍ مِنْ طُرُوقِهِ ، (٦٤ ب) فَرَسَلَهُ الْآنَ تَصِلُ أَرْسَالًا ، وَكَتَبَهُ تَرَدُّدًا فِي مَدْرَجِهَا خَفَافًا وَفِي فَحْوَاهَا ثِقَالًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا عَزْمٌ تَشْيَعُهُ عِنَايَةُ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ مَجْدَهُ اللَّهُ ، فَانَ بِهَا تُسْتَرْجَعُ الشَّهَادَاتُ الشَّارِدَةُ ، وَتَسْتَصْلِحُ الْإَيَّامُ الْفَاسِدَةُ ، وَهِيَ لِصَاحِبِهَا جِيُوشٌ قَدْرٌ تَشْهَدُ عَنْهُ الْمَوَاطِنُ وَهُوَ غَائِبٌ ، وَتَقَاتِلُ دُونَهُ مِنْ غَيْرِ طَاعِنٍ وَلَا ضَارِبٍ ، وَلَمْ تَزَلْ مَغْنِيَةً عَنْ تَجْرِيدِ النَّصَالِ وَهَزِّ الْأَسْلِ ، مَظْهَرَةٌ مِنْ خَزَائِنِ الْغَيْبِ كُلِّ غَرِيبَةٍ حَتَّى يَقَالَ أَنَّ اللَّهَ مِنْهَا الْعَسَلُ (٣) . وَخَادِمُهُ يَرْقُبُ طَلِيعَةً مِنْ طَلَائِعِهَا ، بَلْ صَنِيعَةً مِنْ صَنَائِعِهَا ، حَتَّى يَعُودَ الْمَاءُ فِي نَهْرِهِ جَارِيًا ، وَتَقُولُ لَهُ السَّعَادَةُ أَقْرَأُ فَيَقُولُ لَسْتُ قَارِيًا ، وَلَا يَسْتَبْعَدُ (٤) ذَلِكَ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِطَاعَتِهَا ، فَانَهَا الْوَسِيلَةُ إِلَى ادْنَاءِ كُلِّ بَعِيدٍ ، وَالْإِنَّةُ كُلُّ شَدِيدٍ ، وَلَقَدْ دَعَا بِهَا لِخَادِمِهِ حَتَّى ظَنَّنَهَا النَّاسُ لَهُ اسْمًا ، وَسَيِطَّتْ بِقَلْبِهِ حَتَّى لُوَطِيفَ عَلَيْهِ أَقْسَامُ الْخَلْقِ لِرُضِيِّ بِهَا وَحَدَّهَا قِسْمًا ، وَقَدْ اتَّخَذَهَا شِعَارَهُ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ لِلنَّاسِ ، وَعَوْدَهُ الَّتِي يَسْتَعِيدُ بِهَا مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ ، وَأَيَّاتِ قِرْآنِهِ الَّتِي

يتلوها ، وعرائس أعماله الصالحة التي يجلوها ، ولا تعرض حسنات هذه الصحيفة الا من يد المجلس السامي أسماء الله ، فإنه في معرفتها كملك (٦٥ آ) اليمين ، وفي أدائها على صورتها عين الأمين ، ولا ينظر على خادمه في انبساطه بهذا التكليف ، ويظنه جاهلاً بعوايد الديوان العزيز في الوضع والتوفيق . فان مجلسه مُربح بهذا البرّ أولاً ، وبذله في نفسه الكريمة متطولا ، والشروع مُلزم ، والبادي بالحسنى متمم . ورأية في تأمل هذه المكاتبه والاجابة عنها أعلى ان شاء الله تعالى والسلام

[٤٥]

كتاب كتبه عن الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب الى الملك العادل نور الدين اتابك ارسلان شاه صاحب الموصل ، يتضمّن فتح منبج في شهر الأصم رجب سنة سبع وتسعين وخمس مائة وهو :

يخدم المجلس السامي الملكي العادلي التوري خلد الله ايام مجده ، وأغراه بسؤدد العيش عن رغه ، وبلغه بعفو سعيه مالم يبلغه الدهر بجهد ، ولا زالت ابوابه معمورة بوفده ، والالسنّة مسرورة بحمده ، ولا برح مستخدماً للايام استخدام عنيه ، عائلاً بصفاحه عن وعيده وبسماحه عن وعده . ويُنهي ان كتابه تقدّم مُضمناً ذكر المسير الى حصن منبج ، وكانت المنايا سرت الى من بها وهم نُوم ، وكنمت لهم بين كلّ مخدّم ولهدم ، وفجئهم الخطب ولم يكن الخطب (٦٥ ب) بمرّيب ، وكان موعدهم الصبح أليس الصبح بقرّيب ، ومن عادة الخادم انه اذا بيّت قوماً سابق اليهم مسير ليله ، وأسمعهم صلصلة رماحه قبل صهيل خيله ، الا ان الله يسر فتح هذا البلد ولم تنزع ذؤابة قناة من رأسها ، ولا غيرت البيض من لون لباسها ، وتخلقت القلعة بعد ذلك وبها المطلوب ومن ذات الشوكة والشكّة ، وما يقتنى ويدخر من ذوات السكّة . وهذا الكتاب مفتتحا بفتحها في يوم كذا ، وكانت الخطبة تقدمت لعقيلها بلسان المنجنيق ، ومن شأنه ان يحكم لقوم بالتزويج ويفصب قوماً على التطليق ، ثم حفرت الى الخندق آباراً للتولج لا للاستقاء ، وجعلت كيبوت اليرابيع التي اذا سدّ منها باب القاصعاء فتح باب اليافقاء ، وزوحف المكان فاظلت من السهام غمامة تدفق نبألاً ، وتمطر وبالأ لاوبلاً ، فلا الرياح تؤلفها ولا الانواء تصرفها ، وتقدّم الثقابون فانبطوا السور غير (١) بابل تسيل (٢) النفوس فيها دماء ، فعند ذلك ذعن من بها بالقاء يده ، وبأدر يومه قبل غده ، وعلم ان احسن المعامل ما يُني على أسله لاعلى عمده ، فأمن (٣) نواذر الخوف وبوادر الحيف ، وعطف (٦٦ آ) له برد الامان على حرّ السيف ، وقد كان بُدىء أولاً

بالتريغيب . وُعومِلُ بسُنَّةٍ في الارسال قبل التعذيب . فأبى الآ اباءُ ، وِعَدُّ تلك لاقول هباءً ، وُظُنُّ في سُورِهِ قوَّةُ الاحتماء . و« قال ساوى الى جَبَلٍ يعصمني من الماء » (١) . ومن لم يُسمعه لِينِ المقالِ اسْمَعْتُهُ خشونةَ النصال . فكلومها أبلغ من كلام الانسان ، ونداؤها مسموع بالقلوب لا بالأذان . وطالما نقلت طبعاً ، وسقت الصخرة الصماء سمعاً ، ولما استتمَّ الفَتْحُ بلداً وقلعةً ، وكملت الموهبةُ به عياناً وسمعةً ، لم يقدم الخادمُ شيئاً على شكر النعمة التي أقدرتُ على انتزاعه ، ويسرتهُ على امتناعه ، فبدأ يرفع ماكان بالبلد من سُنَّةِ جائزة الاحكام ، معبودة عبادة الاصنام ، والعوائد السيئة كالموارد التي تورَّد . بل الآلهة التي تُعْبَدُ ، وقد وجد منها بهذا الموضع شيطان السيرة القاسطة ، وحقارة الهمة السالطة . فُضِرَبَ على ذلك كُلُّهُ بقلم الابطال ، وتُقل العمل فيه الى ملك اليمين وكان لملك الشمال ، ولو لم يكن القصدُ إلا () (٢) كان عند الله مرضياً . وكان السعْيُ فيه حتماً مقضياً ، فالحمدُ لله الذي قرن حصولَ المطلوبِ بحصولِ الثواب ، وكذلك عنايته اذا جعل خيرة المرء فيما يهواه من (٦٦ ب) المحاب . فليأخذ المجلسُ حظَّهُ من هذه البُشرى ، وليرتقب اخواتها التي هي كقوله تعالى « (ثم أرسلنا رسلنا تترى) » (٣) ، فقد خمنَ الله لشاكر نعمته فَضْلَ المزيد ، وجعل قوله في ذلك شرطاً وأكد جوابه بلام التأكيد ، ومواعدُ الله الآتية محسوبةً في عداد ماأتى ، وهي أسرع من ان يسأل عنها بأيان ومتى ، والسلام ان شاء الله تعالى .

[٤٦]

كتابُ كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الديوان العزيز النبوي عند الخروج من حلب ، وقصد دمشق والنزول على حصارها في شوال سنة سبع وتسعين وخمس مائة ، وكانت مصرُ أجذبته وهلك أهلها مُدَّ دخلها الملكُ العادل ابو بكر ابن ايوب (٤) ، واختلَفَ الناسُ عليه بسبب سوء صنيعه اليهم . ومالوا عنه الى الملك الافضل ، وهذا الكتابُ لم يُسَيَّر الى الديوان العزيز لان الفتح لم يتسهل :

أدام الله سلطان الديوان العزيز النبوي ولا زالت أبوابه منشدة الآمال ، وطاعته ميزان الاعمال ، ودولته فائزة بالايام القصار والاعمار الطوال ، ودعوته داحضةً مكر الاعداء وان كان مكرهم (٦٧ آ) لتزول منه الجبال . العبدُ يدين لله تعالى بِنَيْتِهِ في نِضَاةٍ وعمله ، ويعرب بماضيه في الخدمة عن مستقبله ، ويهدي أشرف صلواته وتحيته الى ذلك الجناب ويبدأ بتطهير لسانه قبل القول ويده قبل الكتاب ، ويفخر بآيد هذا العصر على ماسلف من الناس وأيامهم ، وبامامه يوم يدعو كل اناس

بأمامهم ، وينسى أن مطالعته لم تزل وافدةً على الأبواب الشريفة ينبغي بها في حال يسره المزيد من النعماء ، وفي حال عُسرهِ إزالة ما اكتنفه من الغمَاء ، فهو من عبيدها الذين يتعرفون إليها في الرخاء والشدة ، ويتخذون غايتها في أحد الحالين زينةً وفي الآخر عدة ، وآخر ما طالع به من حلب حرسها الله والمساعي اذ ذاك قد انجحت ، ومقادة النصر أَسْمَحَتْ ، والبلاذ باذن الله قد استفتحت ، ثم نهض بعد ذلك مجرداً في يده من العناية الشريفة عَضْباً ، قاذفاً بجيوشها في قلوب الاعداء رُعباً ، وسار ولو لم يستصحب (١) فالقت اليه دمشق أفلاذ كبدِها ،

وأستجابت له على لَدِيهَا ، وتلقته مسرورةً برجعته ، وسَلِمَتْ (٢) مدينتها وقلعتها ، فأصبح علمه في رأسها خطيباً

« (يروونه بعيداً ونراه قريباً) » (٣) (٦٧ ب) ، وعند ذلك عمد العبدُ الى مأميت بها من عدلٍ فجعله حياً منشوراً ، وقدم الى ماعمل بها من عمل جورٍ فجعله هباءً منشوراً ، كل ذلك يحكم فيه باحكام الديوان العزيز مجده الله ، فانها لمن أسعده الله سنةً وكتاب ، ومن أشقاها في آذانهم وقر ومن بينهم وبينها حجاب . ولما استقر العبدُ بدمشق حُسرَ عليه كل شيء قَبْلاً ، وسلكت به الاقدارُ سبيل رُبِّها ذُلًّا ، وجاءته العساكرُ ارسالاً ورسلاً فكلُّ تعلن بطلبه وتمد اليه بسببه ، والشامي يُمدّه بسيفه والمصري بكتبه ، وليس منهم الا من اعترف بما أقرَفَ ، وندِمَ على ماسلف ، تبعثهم على ذلك وكائد اسباب ، منها « (آيات مُحْكَمَات هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) » (٤) ، فاخذها القومُ رغبةً (٥) في احسان العبد الذي تبع فيه أثر ابيه ، ولم يزل ينميه في القلوب ويرببه ، ومن غرس الاحسان كان الشكر زمرة (٦) ، والودُّ ثمرته ، واعجب ما فيه انه يطعم في زمن المحول ، ولا يذبل ورقه اذا اخذت الاوراق في الذبول ، ولم تزل الصنائع جنوداً عند مزاحفة الليال ، وكنوزاً نافعةً عند الاعدام من المال والرجال ، فمدَّ ولي العبدُ أمرَ دمشق اولاً ، وأمر مصر ثانياً ، لم يردَّ يداً عما سألته ، ولا نفساً عما أمّلته ، (٦٨ آ) فكان الناس معه في أمن قلوب ، ولين جنوب ، كأنهم ساكنو الجنة لا يمسمهم فيها نَصَبٌ ولا يمسمهم فيها الغوب .

ولما وليهم الخضم اجتث أحوالهم من أصلها ، وأجحف بالبلاد وأهلها ، فجعل السيئة موضع الحسنه ، والخوف مكان الآمنة ، فلما أطلع الله على نيته عاقبةً وعاقب الناس بجُرمِهِ ، وكان كعاقر الناقة الذي أصيبت ثمودُ باثمه ، ولقد أضحت سنيته كسني يوسف بؤساً وجدبا ، وليس بمنكر لمن كانت أيامه دُهماً أن تكون أعوامه شهياً ، ويرجو العبدُ ان تكون ولايته هذه ولايةً برّ والطف ، وان يرزق الناس بها أعواماً

سمناً يأكلن ما تقدّم من العجاف ، وأن اكون ممن اذا أصاب الله قوماً اذا بهم يستبشرون ، وأن يجعل عامّة هو الغمام الذي فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ، ولقد وجد من الطاف الله مرّة بعد أخرى ، ما يقال معه أنّ في ذلك لذكرى ، فما يريه من آية إلا كانت أعلى من اختها مقاما ، وكذلك يزجي سبحانه ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما ، وكل ما عدّه العبد في حصول هذه النعمى من الاسباب ، فانه كسّف لمجموع هذه الشحاب ، ولم يتصبّب بمائة وينبسط من اقطار سمائه ، إلا بالريح التي اليها تصريف مساقه ، ومنها تأليف روي رواقه ، وهي نيّة الولاة للمواقف (٦٨ ب) المقدسة النبوية مجدها الله ، فانها للسعادة مسال ، ولأعمال الدين والدنيا هلال ، وهي المعقل الواقى من جيوش الخطوب ، والعتاد الباقي عند تخلى صاحب عن المصحوب ، والعين المتيقظة عند رقعات الجدود ، واليدّ المعديّة على الاعداء الزرق والايام السود ، ولم تنزل للأولياء كالمعقبات الحافظة ، وللاعداء كالقوارع الدافعة والآيات الواعظة ، وطالما رامت عن العبد وهو أعزل ، وحامت دون سرحه وهو مهمل ، ولقد استبان من بركة طاعتها ما يعمى عنه غيره فما يراه ، ووجد من أثرها في صلاح دنياه ما استدلّ به على اصلاح آخره ، فهي المركب المنجي ، والعمل المرجو لالمرجي ، والمعنى المراد بهداية السراط المستقيم ، وتأويل قوله تعالى « (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) » (١) .

وهذه آيات يمرّ الخصم عليها وهو معرض ، وكلما بصّرته أغضى عنها اغضاء مغمض ، فلم يل أمراً إلا قطع فيه المواقف المقدسة النبوية مجدها الله ، فلم يأتمر بأمرها ، ولا قدرها حق قدرها ، بل طبع الله على قلبه ، وسلبه سمة الفلاح التي هي شعار حزبه ، وجعله من الذين رأوا سبيل الحق فلم يقتدوا ، وصده عن طاعة الديوان العزيز التي هي فحوى قوله تعالى (٦٩ آ) « (وان تطيعوه تهتدوا) » (٢) ، وكفى بذلك خصماً دامغاً ، وبرهاناً في هلاكه بالغاً ، وقد أصدر العبد هذه المطالعة مستطلعاً من الأوامر الشريفة ، ما يزيد هدى ، ويعلي له كلمة ويبدأ ، فانه قد صقل خواطره لاستماعها ، وهياها لاتباعها ، (٣) عارية وعلى سنن الاخلاص (٤) وأودى امرها على البعد لكان عنده كصوت (٥) ولا مزيد على هذه الدرجة التي ليس (٦) زيادة ، وهي في عالم الغيب كهبي في عالم الشهادة ، والبعد يرقب لجزائها أن يسخر له ريح المواهب رخاء حيث أصاب ، ويقال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . ومهما شد به عضده من الانعام ، فانه قوة لليد التي خولته ، ولا يقوى تصعد تغيود إلا بكثرة غيشها الذي أنزلته ، وغير خاف أن عبید الدولة لها كالعمد

كتبَ كتبه الى بعض الاخوان بالموصل جواباً عن كتابه . وكان ذكر ان شاعراً بالموصل قد جعل وكده ان يسرق شعرَ ابي تمام ويخرجه في أقبح مخرج . وأنه أَلَفَ في ذلك كتاباً على لسان ابي تمام . وجعل مبناه على أنه رأى (٧٠ ب) ابا تمام في المنام وهو يشكو اليه من سرقات ذلك الشاعر :

وصلَ كتابَ حضرة الاخ فلانِ احمد الله مسعاه . واسعده ورعاه . واجاب دعاءهُ اذا دعاه . فضمته اليّ ضمّ الحبيب . وتلفتت عند ضمّه مخافة الرقيب . وجعلته لعيني مدى . ولوجهي مسجداً . وقلت أهلاً بزائرِ زادني وجداً بمزاره . وكنت على املٍ من انتظاره .

وقبلته ألفاً . وألفاً كرامةً ولم ارضُ اجلالاً له الرأسِ موضعاً

وما زلتُ اسمع ان الكتب تنفسُ لكربِ الاشواق . وتديل من يَومِ الفراق . فلم يزدُ قلبي بكتابه الا غراماً . وكان كنارِ نُضحِ عليها ماءً فازدادت ضراماً . على أنه لا يجحدُ فضلَ الكتبِ () (١) اهداء السلام . وما اظنهما الا كالطيف غير انها تمثل مرسلها في اليقظة وذاك يُمثله في المنام . ولما تأملتُ كتابه . استجلبتُ من طلعتاه طلعة مُضدِّه . وتصوّرتُ لقاءه بالوقوف على اسطوره . ومن فاته عين الحبيب فلا غرو ان يقنع بأثره . ثم انتهيتُ بعد ذلك الى ماورده من فصل الخطاب . الحائز فضل الصواب . فلم ادر اَطْرَبُ لنشوة كلمه . ام اعجبُ لوشي قلمه . ولئن كان لساني فارسَ جولة . وخطيب دولة . فقد استسلمتُ لفارس (٧١ أ) بلاغته النجيد . وملت بمنكبي الضعيف عن ركنه الشديد . واذا جاءتهم آية بطلت نهر يزيد (٢) . فرقاً يامولاي بالقوارير . ولا ترسل على خادم (٣) هذا الزرع مالديك من الاعاصير .

وابن اللبون اذا ما لَزَّ في قَرَنٍ لم يَسْتَطِعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ (٤)
وأما زمره (٥) من تلك التعاريف المبهمة الحروف . التي (٦) تشبه ايماض الخفريات من خلل السجوف . فانها معانٍ دقيقة . والأفهام عنها جليلة . ولا يعلم فحواها الا من له في البلاغة قدمٌ ثابتةٌ ويَدٌ طويلةٌ . فما ينبغي له أن يدير زجاجة ألفاظه صرفاً . ويقابلُ أبصارنا الضعيفةً بأنوارِ معانيه فانها لاتردادُ الا ضعفاً .
وأما الكتاب الذي أَلَفَهُ على لسانِ ابي تمام وشكواه من فلانٍ في سرقاته من شعره . فلقد خذل ابا تمام باسعاده . ورَبَّ مرید أمرِ أداهُ الى الضدِّ من مراده . ونعذب لا يشبهه بالأجاج . وسموطُ الدرِّ لاتختلطُ بالزجاج . وما أراهُ الا رفع من فلانٍ ووضع من ابي تمام . وخلط القرآن بعضه ببعضِ الشعراء في الانعام .

وقد عَلِمَ أَنَّ سَارِقَ آيَاتِ الْمُعَانِي كَسَارِقِ بِيوتِ الْأَمْوَالِ ، غَيْرَ أَنَّ سَارِقَ أَحَدَهُمَا يَجِبُ فِيهِ قَطْعُ الْأَعْرَاضِ ، (٧٢ ب) وَالْآخِرُ يَجِبُ فِيهِ قَطْعُ الْأَوْصَالِ ، وَمَتَى كَانَ قَاتِلَ الشَّعْرِ سَرَقَةً لَفَعَهُ كَانَتْ جُنَّتُهُ مَقَابِلَ ، وَأَسْرَارُ دَفَائِنِهِ مُحَافِلَ ، فَيَنْبَغِي لِلْأَلْمَعِيَّةِ الْفَلَانِيَّةِ أَنْ تَسْتَجِدَّ كِتَاباً تَعْتَذِرُ فِيهِ عَن كِتَابِهَا الْأَوَّلِ ، وَإِنِ أَتَتْ فِي ذَلِكَ بِالْقَوْلِ الْمُخْتَصِرِ فَيَأْتِي فِي هَذَا بِالْقَوْلِ الْمَطْوُولِ ، فَإِنَّ الْمَقَامَ الَّذِي هِيَ بِصَدْدِهِ مَظْنَّةُ الْأَنْسَابِ ، وَبَعْدَ الْمُضَامَرِ مِنْ حِظِّ الْعَرَابِ ، فَلَا يَنْظُرُ عَلَيَّ فِي هَذَا الْأَنْبَاسِاطِ ، وَلِيَعِدَّهُ فِي جُمْلَةٍ مَاسِقٍ لِي مِنَ الْأَغْلَاطِ ، عَلَيَّ أَنِّي لَمْ أَقُلْ مَاقَلْتَهُ إِلَّا هَزْأً لَشَجْرَتِهِ ، حَتَّى أَتَقَطَّ مِنْ ثَمَرَتِهِ ، وَمَا زِلْتُ أَخْذُ مِنْ أَدْبِهِ ، وَأَبْهَرُجُ صُفْرِي بِذَهَبِهِ ، وَقَدْ تَأَخَّرَ عَنِّي مَا كَانَ يَتَعَرَّدُنِي بِهِ مِنْ غَرَائِبِهِ الَّتِي هِيَ لِخَاطِرِي الْعَقِيمِ مَلْقَحَةٌ ، وَلِقَلَمِي الْأَخْرَسِ مَفْضَحَةٌ ، فَلِيَتَفَضَّلَ بِهَا عَلَيَّ عَادَتِهِ ، وَلَا يَبْخُلُ عَلَيَّ بِإِفَادَتِهِ ، فَجِرَّةٌ لَا يَنْقُصُ بِحِسْوَةِ الطَّائِرِ ، وَمَا زَالَ يَقْدِفُ لِلْبَعِيدِ بِالسُّحْبِ وَاللَّقْرِيْبِ بِالْجَوَاهِرِ ، وَلَا أَرْضَى مِنْهُ (١) الْقَرِيْبِ وَإِنِ كُنْتُ بَعِيداً ، وَلَا أَقْمَعُ بِمَا يَتَحَفَنِي مِنْ ذَلِكَ مُبْتَدِئاً ، إِلَّا بِأَنَّ يَكُونَ مُعِيداً .

كُلُّ شَيْءٍ غَثٌّ إِذَا عَادَ وَالْمَعْرُوفُ غَثٌّ مَا كَانَ غَيْرَ مُعَادٍ (٢)

وَلَا مَعْرُوفُ الْأَطْفُفِ مِنَ الْمَعْرُوفِ الْفُؤَادِ ، سِوَاءَ كَانَ بَصَلَةَ الْعِلْمِ أَوْ (٧٢ آ) بَصَلَةَ الْوُدَادِ ، وَقَدْ ظَفَرْتُ مِنْهُ بِالْأَمْرَيْنِ ، وَأَظْفَرْتُهُ مِنِّي بِالشُّكْرَيْنِ ، بَلْ بِالْأَجْرَيْنِ . وَكُنْتُ كَتَبْتُ إِلَيْهِ كِتَاباً قَبْلَ هَذَا فِي وَرْقَةٍ حَمْرَاءَ تُشْبِهُ زَمَانِي فِي احْمَرَارِ بَاسِهِ ، وَقَلْبِي فِي صَبَعَةِ لِبَاسِهِ ، وَمَنْ كَانَ قَلْبُهُ ضَرِيْبَةً لِلْمَهْمومِ ، فَلَا غَرَوُ أَنْ يَكُونَ فِي سِرْبَالِ مِنْ كَلُومِ ، فَلِيَنْعَمَ بِذِكْرِ وَصُولِهِ إِلَى يَدِهِ ، وَوَقُوفِهِ عَلَى مَقْصِدِهِ ، وَيَتَفَضَّلَ بِالنِّيَابَةِ عَنِّي فِي خِدْمَةِ الْمَوَالِي السَّادَةِ الَّذِينَ طَالُوا قَدْرًا ، وَطَابُوا مُحْتَدًا وَذَكَرًا ، وَجَعَلَهُمُ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ نَسْبًا وَصِهْرًا ، فَلَانَ وَفَلَانَ حَفِظَهُمُ اللَّهُ مِنْ عَصَايَةِ لَاتِيْمِ الصَّلَوَاتِ إِلَّا بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا تَعُدُّ مَنْقَبَةً جَاهِلِيَّةً وَلَا إِسْلَامًا إِلَّا كَانُوا أَصْلَهَا وَأَهْلِهَا (٣) .

قَوْمٌ رَعَوْا فِي الْجَاهِلِيَّةِ سُودًا أَرْعَاهُمْ فِي مِثْلِهِ الْإِسْلَامُ

وَكَذَلِكَ يُوَصِّلُ سَلَامِي إِلَى كُلِّ صَدِيقٍ عَرَفْتُهُ بِسَبَبِهِ ، وَقَدْ غَنَيْتُ (٤) بِمَعْرِفَتِهِ عَن ذِكْرِ كُلِّ مَنْهُمْ بِاسْمِهِ وَقَلْبِهِ ، وَهُمْ يَسْأَلُونَ أَنَّ لَا يَسْئَلُونِي فِي نَادِي فَضْلِهِمُ الَّذِي هُوَ مَنبَعُ الْأَمَالِيِّ ، وَمَلْتَقَطُ اللَّالِيِّ ، فَوَجُوهُ الْفَاضِلَةِ مُشْرِقَةٌ بِأَيْدِي الْأَقْلَامِ الْمَتْسُودَةِ ، وَقَلْبُ مَعَانِيهِ مُسْتَنْبِطَةٌ بِنَارِ الْخَوَاطِرِ الْمَتْوَقَّةِ ، وَالْوَاغِلُ إِلَيْهِ يَسْكُرُ مِنْ خَمْرَتِهِ الَّتِي تَنْبَهُ الْعُقُولُ مِنْ اغْفَائِهَا (٥) ، وَلَا يَشْرِبُهَا أَحَدٌ غَيْرَ أَكْفَائِهَا ، وَمِنْ صِفَاتِهَا أَنَّهَا تَعْتَصِرُ بِالْأَفْهَامِ (٧٢ ب) لَا بِالْأَقْدَامِ ، وَتَقْدِفُ بِالزُّبْدِ لَا بِالزُّبْدِ ، وَتَدَارُ فِي الطَّرُوسِ لِأَفِي الْكُؤُوسِ ؛

قد تُدِيرُ الألفاظُ من غَدَمِ الأَلِ - بابُ ما لا يدورُ في الإقْداحِ (١) .
وقد تطفَلْتُ عليهم بأن يَخْصُونِي بسُؤْرِهِمْ (٢) ، ويتحفونِي منه بما أوْثَرَهُ وان لم
يكن من مأثورِهِمْ ، والاخ فلانٌ أبْقَاهُ اللهُ هو مُصْرَفُ هذا الشرابِ ، ولا أعني به الأ
ما يَصْدُرُ عنه من كتابِ ، والسلام ان شاء اللهُ تعالى .

[٤٩]

كتابُ كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى أسد الدين شيركوه (٣) .
صاحب حمص شفاعة في أمر شخص من الحلبيين كان يتولى أملاكه بحلب ،
وخطابة الجامع المختص به فيها :
أدام اللهُ المجلسَ العالِيَّ المِلكِيَّ المِجاهِدي ، ونشَرَ عَدْلَهُ ونصرَ بعزائمه الاسلام
وأهله ، وقلَّدَ القلوبَ وَوَدَّهَ والأعناقَ فضلَهُ ، الخادِمُ يخدمُ بدعائه ، ويستدعي من
مَهَمَّاتِ الخِدمة ما يؤهِّلُ لاستدعائه ، وينهي ان الشافعَ الى كرمه يغنيه التعريضُ عن
التصريحِ ، وسائله يكفي بسكوته عن هَزِّ عَطْفِهِ بالقولِ الفصيحِ ، فلو علم الناس لَدَتَهُ
بالمواهبِ ، لتقرَّبوا اليه بالمطالبِ . وفلانٌ مَمَّنْ تحرمُ بالخدمة ، وأغتلق من بابهِ
بأوثقِ عصمة . وكان نوابُ الديوانِ قَصْدُوهُ في حسابهِ وطلبوه (٧٣ آ) بما لم تقضِ
المعدلةُ بطلابه ، والخادِمُ يسألُ في أمرهِ بجزيلِ الشفاعَةِ ، ولا يقنعُ في الجوابِ
بمجردِ القناعتِ ، بل لا يَبْدُ من اسقاطِ ماتوجِهَ عليه حَقًّا كان أو باطلاً ، فان المجلسَ
يكونُ في أحدِ الحالين مُفضِّلاً وفي الآخرِ عادلاً ، والمبْلُغُ المسؤولُ فيه يُرى في جَنبِ
كِرْمِهِ يسيراً ، ويراه المشفوعُ له في جَنبِ حالهِ كثيراً ، ويرجو الخادِمُ ان يكون
المجلسُ بوضعِ هذا الحسابِ موضوعِ الحسابِ ، فانه لن يضيعَ عملٌ يلتقي طرفاهُ على
شكرٍ وثوابِ .

وهذا الرجلُ لم يمتَ الى الخادِمِ الا بكونه من دُعاةِ المجلسِ واوليائه ، المعتدِّينِ
بسبوغِ آلائهِ ، فوجب له بذلك ذِمَّةٌ لا تُجرحُ ، وحرمةٌ لا تُطرحُ .
وقد نشرَ عن المجلسِ بهذه الخطةِ أطيبَ سمعة ، وخطبَ بثنائه فيها حتى جعل
كُلَّ أيامه بها يومَ جُمعة ، ويكفيه ذلك في مطلوبه وسيلة ، كيف وقد عضدتهُ
شفاعَةُ الخادِمِ فكانت سافرةً له ووكيلةً . وللآراءِ العالِيَةِ مزيدِ العلوِّ ان شاء اللهُ
تعالى .

[٥٠]

كتابُ كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى عمه الملك العادل ابي بكر
بن أيوب وهو أولُ كتابِ صدرَ اليه بعد مُصالحتِهِ إِيَّاهُ ، واجتماعِهِ به على بابِ

دمشق في صفر سنة (٧٣ ب) ثمان وتسعين . وهذا الكتاب كُتِبَ اليه بعد مفارقتة ، وسُيِّر من حمص عناية في أمر الشيخ جمال الدين بن أبي النجيب البغدادي ، وهو :

يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي العادلي جعله الله شرفاً لقبَّله ، وموثلاً لمؤمَّله ، وجلالاً باهراً لتأمَّله ، ويتوجَّه الى حرمة الذي هو قبلة النعماء ، ويقلب وجهه في سمائه التي هي فحوى قوله تعالى انَّ الرزقَ في السماء ، ويشكرُ دهرأ ساقه الى ذلك الجناب ، وفَيَّاهَ ظلَّ ذلك الشحاب ، وأحيا له برَّ والده وقد حال بينه وبينه التراب ، لكنَّه عَقَّبَ ذلك بالبعْد عن الخِدمة فعقَّ من حيث برَّ ، وساء من حيث سرَّ ، وما يَعُدُّ المملوك تلك الايام لحُسْنها الاْ أعراساً ، ولا يظنُّها لِقَصْرها إلاْ أنفاساً .

« وكذاك أيامُ السرورِ قصارُ »

وهذه الخدمة واردةٌ من يد فلانٍ وهو سلمانُ هذا البيت الذي مولانا جرثومةٌ أضله ، ومن سجاياهُ الكريمة منشأُ فضله ، وقد صحبَ الأكابرَ والأصاغرَ ، ورعى الأوائلَ منهم والأواخرَ ، ولم يزل لهم من دُعائه وثنائه جيش وقاية يكثُر نصرةٌ ومدداً ، وبرُدُ جمالِ يزِين عرضاً إذا زان غيرهُ جسداً ، وكفى بهذين الحَقَّين ذماماً موصولاً ، وعهداً مسؤولاً ، وقد أحاطَ (٧٤ آ) العلمُ انَّ لهُ في ذمَّة المملوك ديونٌ مودَّةٌ لا يقدرُ على ادائها ، وليس له الا الحوالةُ على مكارم مولانا التي لا يجدُ بدأً من إجتماعها ، وكان وقف عليه قريةٌ من قرى صرخد ، لم يبلغ بها مدى حقه ، ولكنه أعطاهُ على قدر الزمان وجرى على خلقه ، فهي سيرةٌ في جنب فروضه ، وما يجبُ من وفاء قروضه ، ومع ذلك فقد كانت تعينه على الايام ، وتغنيه على التبذل الى الاقوام ، وفي يده خطُّ مولانا بامضاء وقفها ، وحراسته من الحوادث وصرفها ، وقد علم ان خطوطه الشريفة كفتا الحظ التي يهرب حاملها ، ويطلُّ (١) قتلها ، ولا يقادُ قاتلها ، فهي للخصومة دافعة ، وللأغراض بالغة ، ولكان ثقته بها قصد الباب العزيز وهو مفزعُ القاصد ، ومراحُ الأمل الشارد .

إذا امرؤُ ألقى برُبْعك رحلَهُ فقد طالبتُهُ بالنجاحِ مطالِبُهُ
وجُلُّ قصده لتقصِد هذه القرية وتعمدها ، والسعي في تقويم أودها ، وقد اتخذ كتاب المملوك رائداً لمثواه ، وصدقةً بين يدي نجواه ، وهو يسأل الخروج (٢) بالشدِّ على يده ، وإمداده بالجاه الذي لا يستغني مثله عن مدِّه ، وبالجملة فيكون مولانا قد اعطاهُ هذا الموضع عطياً ثانياً ، وقرَّر له قاعدةً كان المملوك لها بانياً ، واليد الثانية هي الطولى ، والنشأة الاخرة هي الخالدة لا الاولى ، (٧٤ ب) وقد بشره

المملوك برشد طريقه ، وتسهيل أمله وتحقيقه ، علماً أن مستسقى الحيا ليس بخائب . وأخذاً بالقياس في حمل الشاهد على الغائب . وهذه نهضة ثواب يجزي الله عليها بعشر أمثالها ، وغنيمة ذكر لا يعرى مدخرها من ثوب جمالها ، لازال مولانا للمكارم مبدياً ، وعلى الايام مُعدياً ، والى كل خير هادياً ، ولكل سبيل مهدياً ، وللاراء العالية مزيد العلو إن شاء الله تعالى .

[٥١]

كتاب آخر كتبه عن الملك الافضل الى عمه الملك العادل عند الوصول الى مدينة الرقة ، وهي من جملة بلاده ، وكان الطريق اليها على البر من جانب الرصافة ، وقد ضمن هذا الكتاب ذكر الاشواق ووصف ما لقيه به النائب بالرقة من الضيافة : يُقبل الارض بين يدي مولانا بسط الله به يد العدل والفضل ، وأغناه بجيوش جده عن الخيل والرجل ، ولا زال من مكارمه يوم الندى في حفل ، ومن صوارمه يوم الوغى في أهل .

ويُنهي من أشواقه مالا يُعبر عنه البيان وان كان فصيحاً ، ولا يبلغه مدى القلم وان كان فصيحاً ، فان الاشواق عقال الألسنة الطليقة ، والكلمة الواحدة المجازية تقوم في البيان عنهما مقام الحقيقة :

« ولا وَجَدَ مَالَمَ يَغِي عن ضعفه الوجدُ » (٧٥ آ)

وهذه المطالعة أصدرها من الرقة ، وقد قطع الفرات فاستقرى من غمرتها ماغمره به مولانا من الآئه ، ومن صفاتها مايجنه ضميره من اخلاص ولاءه ، وعبر من جسر على طريق حالكة الاهداب ، كأنها سطر في كتاب ، ولم تنزل يد مولانا متبوعة النعماء ، فهي شاملة للناس في بسط الارض وبسيط الماء . وقد سرى المملوك منها على الجياد السالكة متون الأجاج ، والجياد السالكة متون الأمواج ، ولما نزل الرقة تلقاه بر مولانا قبل نزوله ، وأتاه مشمراً يرفل في ذبوله ، فهو يفارق منه رفاً ويلاقي رفاً ، ويصدر عن ورد الى مثله فيكون صدره ورداً .

كالفَيْثِ ان جِئْتَهُ وَاْفَاكَ رَيْقُهُ وان تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَيْجٌ فِي الطَّلَبِ (١)

واما الطريق الى هذه الارض فانها كانت سهلة على وعورة مذاهبها ، وادعة على كثرة متاعها ، كأنها علمت عناية مولانا بالمملوك فطوت له بعيدها ، وألانت له شديدها ، وما يقول انها قصرت الا بمفاوضات ذكره الشريف التي تتضمن كلال تركب ، وتدار بها العقار على الشرب ، واذا حدي بها الركاب نشطت على قلبها ، وضربت أيديها على أرجلها .

نَضَحْتُ بِذِكْرِكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِيهَا فَسَارَتْ وَطَوَّلَ الْاَرْضَ فِي عَيْنِهَا شَيْبُ (١)
 (٧٥ ب) ولم يَسِرِ المملوكُ بهذه الارضَ لَيْلاً اِلَّا كَسِيَ اَنْوَاراً حَتَّى () (٢) .
 لفرط () (٣) نهاراً ، كأنه تحلّى بخلق مولانا التي هي هدي السبيل ، وقبله
 التأميل ، فلم يخش المملوك في سفره هذا ما يخشى ، ولا غشيه في ظلمة ليله
 ما يغشى ، والسلام .

[٥٢]

كتاب آخر كتبه عن الملك الأفضل اليه عند النزول بحرّان في صفر سنة ثمان
 وتسعين وخمس مائة :

يَقْبَلُ الْاَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي الْمَلِكِي الْعَادِلِي جَعَلَهُ اللهُ مَنْشَأً لِلْحَائِبِ ، وَمَحَطَّ
 الرُّكَّابِ ، وَمَحَلَّ الرِّغَابِ وَالرِّغَائِبِ .

ويُنْهِي أَنْ مَطَالَعَتَهُ تَقَدَّمَتْ مِنَ الرَّقَّةِ بِتَارِيخِ الْاِحْدِ تَاسِعِ عَشْرِ صَفْرِ اسْعَدَ اللهُ
 مَفْتَتِحَهُ وَخَتَامَهُ ، وَقَرْنَ بِالْاَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ لِيَالِيَهُ وَايَّامَهُ ، وَهَذِهِ اصْدَرَهَا مِنْ حِرَّانَ
 حِرْسَهَا اللهُ وَقَدْ تَأَمَّلَ الدِّيَارَ فَوَجَدَهَا شَاهِدَةً بِسُكُونِ (٤) اَهْلِهَا ، مَثْنِيَّةً عَلَى سِيْرَةِ
 مَوْلَانَا وَعَدْلِهَا ، فَاطْرَافَهَا وَاَدْعَةَ سَاكِنَتِهَا ، وَنَعَمُ اللهُ عَلَيْهَا ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، قَدْ
 أَحْصَاهَا (٥) مَطَالَعُ السُّعُودِ ، وَلَمْ اَهْلُهَا مِنْ عَيْشِ اَهْلِ الْجَنَّةِ غَيْرِ الْخُلُودِ .

لياليهم نيالي الوصل تمّت
 بأيام كأيام الشباب

ولقد غبظتها البلادُ مع تميّزها بسعة اكنافها ، وطيب مرتبها ومصطافها ، (٧٦ آ)
 غير أنّه ماكلُ ارضِ نِعْمَانَ ، وَلَا كُلَّ قَصْرِ غَمْدَانَ ، وَلَئِنْ غَابَ مَوْلَانَا عَنْهَا فَوْجَةٌ
 ثَنَائِهِ يَقَابِلُهَا ، وَالطَّافُ احْسَانَهُ تَوَاصَلُهَا ، وَمَا غَابَ مِنْ حَضْرَةِ رَفْدَتِهِ ، وَلَا طَعْنَ مِنْ
 اِقَامِ حَمْدَتِهِ . وَلَمَّا وَصَلَهَا الْمَمْلُوكُ وَجَدَ السَّمَاءَ قَدْ مَنَعَتْهَا حَتَّى قَنَطَ النَّاسُ لِمَنْعِهَا ،
 وَامْسَكَتِ الْاَيْدِي الزَّرَاعَةَ عَيْنَ زَرْعِهَا ، وَلَوْلَا مَا اَعْنَادَهُ اَهْلُ الْبِلَادِ ، مِنْ تَعْمُدِ الْعِهَادِ ،
 وَالْاَفْلِهِمْ مِنْ سَيْبِ اَيْدِي مَوْلَانَا مَا يَنْوِبُ عَيْنَ السَّمَاءِ ، وَيَغْنِيهِمْ بَغْنَى النِّعْمَاءِ .

نال الجزيرة امحال فقلت لهم
 شيموا نداء اذا مال البرق لم يشم

فما ارى ديمة امحي لمسغية
 منه ، على أن ذكراً طاراً للديم (٦)

وفي ليلة الثلاثاء ثاني وعشرين الشهر عادت السماوات شيمتها ، وجادت الارض
 بديمتها ، واستبشر الناس بفضل المسوط ، وامتدت آمالهم بعد القنوط ، وذلك
 بحمّل نية مولانا التي هي للرعايا حرز واق ، وكنز باق ، فهي تسهل لهم
 (كل) (٧) صعب ، وتفرج عنهم كل كرب ، فان النيات الصادقة تؤثر في كل حين ،
 وتجري مجرى الكرامات الظاهرة على أيدي عباد الله الصالحين .

كتبه عن الملك الافضل الى عمه العادل عند تسليمه

حصن سميساط اليه في ربيع الاول من السنة المذكورة : (٧٦ ب)

يقبل الارض بين يدي مولانا أخلصه الله بخالص ذكر الدار ، وحباه بالأعمار الطوال والأيام القصار ، وناط بسيفه وأقلامه حماية (١) الذمام والذمار ، وعضد الاسلام منه بما عضده من سميه الذي هو ثاني اثنين اذ هما في الغار ، وينهي من ولائه ماغرسته يد مولانا على صفحات قلبه ، والولاء من منابت الاحسان فلا يكون إلا من آثار سحبه ، ومع هذا فسبب الأيادي الكريمة لايجازي بولاء وان رست عروقه ، ووجبت حقوقه ، لأنها سبقتة والفضل للسابق ، وخلقتة في القلب والمخلوق من صنائع الخالق ، ومن آثارها التي شئت للمملوك عضداً ، وأعلت له كلمةً ويدا ، أنه أصدر هذا الكتاب من حصن سميساط حرسه الله ، وهو الحصن الذي يضرب في الحصانة يمثله . ولو احتله السموأل لفخر به دون جبله . ومن صفاته أنه منتزعه نظري ، ومفزع حذر ، وموئل (٢) ورد وصدر ، ويمر به من الفرات مايقصر عن جود معطيه ، كما أن صهوته وان علت فانها تقصر عن مجد ممطيه . وقد سار اليه المملوك على مواهب مولانا التي نقلته ، وحملته من المنن ماحملته . فكان (الي حياها) (٣) الى أرضها ، وخير المواهب ماكان بعضها سبباً الى بعضها (٧٧ آ) :

أسير الى أقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بخسامه (٤)

والذي يأوي اليه المملوك من العناية الشريفة أحسن مراما ، وأحسن مستقراً ومقاما ، وما ضر من شملته أن لاياوي الى حصن وان حمى ، ولا الى بلد وان طاب ربه وان نمى ، فانها لمن تدرعها وقاية تضرب بينه وبين الاعداء حجاباً مستوراً ، وذخر يغدو على نفاذ الايام كنزاً موفوراً ولئن عجز المملوك عن شكرها فستشكرها وشائج رحمه ، وينطق بها لسان حاله الذي هو أفصح من لسان كلمه ، ولو شعر بها والده لسرت رمائم عظامه ، وعلم أن نشرت لعقبه دفينات أيامه . وخير الصنائع ماأقر عيون الآباء في الاولاد ، وسرى اليهم في الاحداث مسرى الطيف في الرقاد ، فليسر المولى بما أوتيت من الخير وما يؤتاه ، وليعلم انه مشكور عند الله بلسان موتاه ، والرأي أعلى ان شاء الله تعالى .

كتاب آخر كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف في التاريخ الى الملك العادل نور الدين اتابك ارسلان شاه صاحب الموصل وسيّر اليه هذا الكتاب من حصن سميّاط :

أعزّ الله نصرَةَ المجلس العالي الملكي العادلي النوري ، وخذل أيامَهُ (٧٧ ب) تخليد معاليه ، وحلا الدهرُ بدولتَهُ التي كثرت نجوم لياليه ، وأغناه بجيوش جدّه عن تجريد سيفه وتسديد عواليه ، وجعل الاقدار تابعةً لأمره تبع خوله ومواليه ، ولا زالت مساعيه للقوافي عقوداً ، وخلّاقه على المكارم شهوداً ، وفضله على المحامد مقصوراً وعلى البرية ممدوداً ، ومجده جامعاً للاضداد النافرة حتى يجعل الحسود ودوداً والودود حسوداً .

الخادمُ بعنتر لتأخر كتبه عنراً تشهد بصدقه موانع الايام ، وتتسع في إيضاحه مذاهب الاقلام ، ولئن أحرّ رسل قلمه عن ذلك الجناب ، وأغلبَ بها حتى حصل الازتياب بذلك الالعاب ، فما (١) أخر رُسلُ دعائه التي تصعد الى السماء كلما طيباً ، ولا رُسلُ ثنائه التي تغدو بكرةً فاذا لاقت مجده صارت ثيباً ، ومن واصل بهذين فما قاطع ، ومن مت بهما فقد شايح على المودة وبايح .

وهذه المكاتبة أصدرها وقد برّح بشوقه قربُ الدار ، وقوي أمله في اللقاء بما ناله من شرف الجوار ، ومما يزدهيه أنه لما قطع الفرات دنا من فرات الانعام الكريم التي لا تقطع ، ولم تزل شرعتها نافعةً لواردها وتلك الفرات تضرُّ وتنفع ، ومن صفاتها أنها تمدّ ولا تجزر ، وتصفو (٧٨ آ) ولا تكثُر ، وتحسر لطالبها عن نيل الارب ، كما تحسر تلك غداً عن حبلٍ من ذهب ، غير ان هذا من أشرط ساعة الجود الزاخر ، وذلك من أشرط اليوم الآخر ولئن بعد الخادم عن وطنه الذي كان منشاه ، عليه معاجه وممشاه ، فقد اعتاض عنه بالقرب من الفناء الكريم الذي هو مُسلٍ عن الاوطان والاخوان ، ومُعِد على أحداث الزمان ، وما تعرّب من أنس من ذلك الجناب اقربا ، ولا باعت من جاور بحرأ أو جاز سحاباً :

هُم رَهْطٌ من أمسى بعيداً رهطه وبنو أبي رَجُلٍ بغير بني أبٍ

ولما نزل الخادمُ مدينةَ حَرانٍ لقي بها الاميرُ فلاناً صاحب المجلس ، فاستنشق منه نسيم أخلاقه التي تعطرُ بطيبها ، وتمدحُ بنسبيها ، ودلّ بمشاهده على مغيبها ، فاضربت الأضالعُ بأشواقها ، وجعلت القلب من مُحبيها بل من عشاقها ، وقد تجري العين مجرى الأثر ، وتهوى القلوبُ بالسمع دون البصر ، وخيرُ المودات ما أتت به

النفس غير متعوب . وكان كحسن البداوة غير مجلوب ، وهذا من شيمة مودة الخادم التي ساقها الى المجلس هدياً ، وأحلها من كرمه خيراً مقاماً وأحسن ندياً ، فجاءته وله تخطب منه بتعريض ولا تصريح ، لكنها لم تعطه مقادتها إلا بشرط الامساك (٨٧ ب) دون التسريح ، ولئن جُعِلَتْ له مبدولةٌ ، فلا ينبغي ان تكون مملولةً ، أو زُفَّتْ اليه من غير صداق ، ينبغي ان يسمح لها بطلاق ، وللآراء العالية مزيد العلو (إن شاء الله تعالى) .

[٥٥]

كتاب آخر في المعنى كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى مظفر الدين صاحب اربل ، وسُيِّر اليه من حصن سميساط عند تسلّمه إياه في ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وخمس مائة ، وكان هذا الحصن قديماً في يد مظفر الدين المذكور وبنى به داراً :

خلّد الله مجد المجلس السامي وأثل مبناه . وأعذب مجناه وقرب لقاءه كما قرب مغناه ، وواصل سعادته صلة اللفظ بمعناه ، ولا زالت مآثره للمادحين أمالي . ومفاخره في جيد الدهر لآلي ولياليه في الإنارة أياماً وأيامه في السكون ليالي . والخادمُ يبدأ باهداء السلام الذي هو أول ما يبدي ، ويشتهي باهداء الدعاء والثناء للذين هما أنفس ما يهدي ،

وينهي أنه مازال على اختلاف الأحوال وائتلافها ، واقبال الايام وانصرافها ، يتوقّع (ما) (١) يردّ به عهداً ، أو قرباً يؤكّد به ودّاً ، وقد علم ان لهمم الصادقة آثاراً ، فأيسرها أن تُدني داراً وتسهّل مزاراً . وما ضرّ من هرب من خدمة المجلس أن ينأى عن وطنه الذي أهلّ وداؤه ، ومنه نشأ ميلاده . وعلى الحقيقة (٧٩ آ) فإن أرب النفس هو الوطن المحبوب ، والصاحب والمصحوب ،

وأطيب الأرض بالنفس فيه هوئ سَم الخياط مع المحبوب ميدان وهذه المكاتبة أصدرها الى الخدمة السامية ، وقد هبّت الأرواح من تلقائها ، وبشّرتُ بقربها المؤذن ان شاء الله بلقائها ، ومصدرها الآن من حصن سميساط من الدار التي انشأها المجلسُ بها ، وقد تبوأ الخادم فيها ما بوأه من قلبه ، غير أنه سكن ماسكنه على بُعد ، وهذه لم يسكنها الخادم إلا على قربه ، وزانها لديه ماوجده على سقفها من السمات الشريفة ، التي (٢) علت معنى وأضحت لكل خطيب شعاراً . ولكل مادح فخاراً (٣) . ومع كل خائف أمناً ، فقل ما (٤) هناك من أثر . ولزم لها من الوقار ما كان يلزمه (٥) لو حضر ، ولو استطاع لشر عليها

حَبَّة القلب () (١) بنور البصر ، ولقد شفت من حرِّ أشواقِهِ غليلاً ، () (٢)
عن رؤية المجلس فاتخذها عشيراً بل خليلاً .

وما حُبُّ الديار شغفن قلبي ولكن حُبُّ من سكنَ الديارا
ولما نزل الخادمُ هذه الارضَ تأرج بذكره تلك الاودية والآكام ، ووجد بهما (٣)
من آثارِ برِّه ما يغنيهما عن آثار الغمام ، فهو وان فارقه فلم (٧٩ ب) يفارقها
عذله ، وان بُعد عنها فلم يبعُد عنها فضله ، ولقد سنَّ بها سنَّةً كان خفي
أمرها ، وهدى اليها فصار له أجرها وذكرها :

فأفخرَ فما من سماءٍ للعلی رُفعت
والأ وأفعالك الحسنى لها عمد
واعذرَ حسودك فيما قد خصصت به
ان العلى حسن في مثلها الحسد (٤)

وذلك مما زاد الخادم في وُدِّه شغفاً ، وقد كان هوئاً سالفاً فاضحى هوئاً مؤتلفاً ،
فهو وهذه الارض حليفاً شوقاً الى لقاءه ، فأحدهما يؤمِّل ربي منظره والآخر يؤمِّل
ربي اسقائه ، وما منها الا من حسد الجانب الذي حل به ركابه ، والتث به سحابة ،
واذا تؤملت البلاد وجدت كالناس تشقى وتنعم ، وتشرى وتعمد . والخادم يرجو ان
يعطى جدًّا كجد البلد الذي دار المجلس داره ، وجار أرضه جاره ، وربُّ أمنيَّة كانت
حديثاً تجوله به أحناء الصدور ، فجرت بتحقيقه تصارييف القدر المقدور ، ان شاء
الله تعالى .

[٥٦]

كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان ، بالموصل جواباً
عن كتابه وسير اليه من حصن سميساط في التاريخ المذكور :

وصل كتاب حضره سيدنا الأجل فلان أقر الله () (٥) أفئدة وعيونا ،
وزاد عهده ركائة (٦) والقلوب اليه ركونا ، ولا زالت أبكار الفضائل (٨٠ آ) لديه
عونا ، ولا برح مجده للاعراض دروعاً وللمعالي حصونا ، فوقف من على قيد الناظر
والخاطر ، ورأيت الفضل المقيم الذي هو مطية للثناء السائر ، وجلا علي وجوه بيانه
التي زهاها الحسن ان تبرقع ، وضائع احسانه التي عداها المجد أن تتصنع ، وما
زالت كتبه تتألف أنواراً وأنواء ، وتورث قلب كل مقررٍ وجاحدٍ أدويةً وادواء ، ولقد
عارضتها بغيرها من الاقوال [ففعلت] (٧) فيها فعل الآية الموسية بالعصا والحبال ،

فعلمتُ حينئذُ أنَّ التَطَّيْعَ لا يقاسُ بالطبع ، وإنَّ شياطينَ البيانِ لا تستطيعُ أن تقعدَ من سماءِه معاقِدَ للسمع . ولَمَّا تأملتُ كتابَه كساني فضلُ مُرسِلِه عَجَباً وإن لم يعجبَ بنفسِه ، وحبَّاني - والشتاءُ مخيمٌ - ماشئتُ من زهرةِ روضةٍ وثمرةِ غرسِه ، ولا أَصِفُ له أشواقِي فإنَّ أيسرَها ما أقضَ لِين المهادِ ، وأقلقُ جانبَ الوسادِ ، وأطالَ ليلى حتى ألفتُ لَوْنَ السوادِ ، والعَجَبُ أنَّها الأعراضُ الباقيةُ ولا بقاءَ للعرضِ ، وأعجبُ من ذلكِ امنِ امراضِ الموتى والموتِ اخو المرضِ ، وهذا كتابٌ اصدرتِه اليه من حصنِ سميساطِ وقد هالني صُعُودُه في صُعبِ ، وبوأيِّ معاقِدِ رأسِه ماحدثَ () (١) قده الذنبِ ، وذلكِ مالمِ يخظرُ بخاطرِ ، ولأنَّه عليه زجرُ زاجرِ ، ولو رأيتُه في (٨٠ ب) المنامِ لم اطعمُ قرارا ، ولجعلتُ ليلى في اليقظةِ نهاراً ، ولولا كتابُ سيدنا الذي أزالَ غَمِّي وعكةَ القلقِ ، وقال « (اقرأ باسمِ رَبِّكَ الذي خلق) » (٢) ، لكنتُ بالهمومِ مترملاً ، وعن هذه المذرةِ الذميمةِ مُترَمِّلاً ، وما أدري ما أقولُ في هذا الصنيعِ الاعمى ، والحظُّ البعيدِ الرمى ، ولو نيلتَ الحظوظَ بالسعيِ لبلغتُ جهدَ المجتهدينِ عفواً ، ولما وردتُ مورداً الآ صفواً ، ولكنَّها الايامُ التي تبدي لنا من جورِها كلَّ غريبةٍ ، وتسوسنا سياسةَ العبدِ المُجذَّعِ الذي كأنَّ رأسَه زبيبةً ، وليس للمرءِ (٣) فيما يلقاه من أحداثِها نعمى كانتِ او بؤسى ، الآ ان يكلَّ (٤) الامورَ الى وليِّها فيقولُ : « حاجُّ آدمُ موسى (٥) » ، فان ذلكَ يُذهبُ عنه ثقلَ الهمومِ والهممِ ، ويجزيه على سننِ التسليمِ لما جرى عليه القلمُ ، فمن لم يرضَ بتصاريفِ الايامِ كان لتسخطِه من احدى صُروفِها ، والحازمُ من عرفها فلم يستوحشَ لمنكرِها ولم يأنسَ بمعروفِها ، فقد حلبتُ الدهرَ أشطره ، وتأملتُ ماخطُ لوحه فقرأتُ أسطره ، فلم أرَ خيره وشره الآ حُلماً ، والانسانُ ابنُ يومِه لا يجدُ لما مضى طَعْمًا ، والغَيُّ كلُّ الغَيِّ فيمن يرى الطريقَ ويعمى عن سلوكِه ، ولكنَّها الدنيا التي ملكتنا ولا غرو ان ينفذَ امرُ المالكِ (٦) (٨١ آ) في مملوكِه ، فنحنُ مسرورونَ بشهواتِها ، وهي تقذفُ بنا في لهواتِها ، وأعجبُ ما فيها انَّ صاحبِها يُخسِدُ على ما يُرَحِّمُ من اجلِه ، ومتى واصلتْ خِلاً قرنتْ صدَه بؤصلِه :

شيمُ الغانياتِ فيها فما أذُ ري لذا أنثُ اسمها الناسُ أم لا (٧) ؟

وهي مع ذلكِ معشوقة على غدرِها ، معبودة على ضعة (٨) اقدرِها ، وما أضلُّ (٩) الناسُ في حُبِّها ، وألقاهم في غيابةِ حُبِّها ، الآ انها تبدو لهم في نقابِها ، وتخدعهم بتمويه كذابِها ، ولو أبَدتْ عن صورتِها ، وكشفتْ عن عورتِها ، لتولوا عنها ركضاً ، وتبدلَ حُبُّهم لها بُغْضًا ، ومن ذميم فعلها الممدودُ في باب ثنائِها ، ماتجنيه من المشيبِ عى من تُعَمَّرُه من أبنائِها ، وقد فجأتني بذلكِ والعهدُ قريبُ ، والغصنُ رطيبُ ،

ورواء الشباب عجيب ، فنودي نبت الرأس والماء جار في عوده ، وأخلق لباس الصبا ولم تخرج يد صانعة من حوك بروده ، ولئن قدّمت عليّ طليعته قبل أو أن قدومها ، فغير بدع للمرتقي في سماء المعالي أن تعمه بنجومها ، وإذا نظر في ذلك الى صحة القياس ، وجد شيب الفؤاد سرى الى شيب الرأس ، ولقد أذكى همومي وأخمد هممي ، وأحدث التغير في كلّ شيء الآ في شيمي ، فسقيا لتلك الايام بصوب الدمع وصوب الشحاب ، وسلاماً (٨١٠ ب) على الحياة فما عَدَمها الآ عدم الشباب . وليس الأسف عليه لتبدل سواده ببياضه ، بل الأسف على ذهاب زمانه وفوات أغراضه . فإنه نسيب الأماي ، وأخو الغني في وصل الغواني ، ولا يخلف لي طيبه الآ رؤية سيدنا أبقاه الله ، فإنها برد العيش الذي يزيد للعمر عمرا ، ولو كانت برد الماء لم تجد خمساً ولا عشرا ، واذ بخل الزمان بتسهيل أسبابها ، ورأى الموهبة فيها محرماً فأخذ بأية حجابها ، فليفضل بكتبه التي تنوب في هذا المقام ، وتغني بقاء الارواح عن لقاء الاجسام .

فلا تُخلني منها فإن ورودها لعيني وقلبي قرّة وقراراً

وليبغ سلامي وخدمتي الى الموالي السادة فلان وفلان وفلان حفظهم الله من عصابة ، يعدّ ولاؤها أزكى عملاً ، ويروي من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً (١) ، وكفاني شرفاً ما أضمره من حبه الذي يتبين به ايمان المرء من نفاقه ، وهي كالنور الذي اذا صافح القلب ظهر على الوجه أثر اشراقه ، وما أراه في شرف الدنيا الآ كأساب أهله الشريفة ، وفي أعمال الآخرة الآ كالبطاقة التي تنقل بها كفة الميزان الخفيفة . (٨٢ آ)

هذا الكتاب مضرّحاً عن حبه في سورة الأنفال غير مُجمّم (٢)

وكذلك بلغ سلامي الى كلّ صديق وصاحب ، والى أهل الموصل فإن الطينة أقارب ، والسلام ،

[٥٧]

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى قطب الدين محمد بن زكي (٣) صاحب سنجار ، عناية في بعض أمر أصحابه :

يخدم المجلس السامي جعل الله المكارم رداءه ، والثناء الخالد نداءه ، والأيام والليالي أوداءه ، ولا زال مجده تليداً ، وشأوه بعيداً ، ونسبه في الفخار قعيداً ، ومكانه من العلياء فريداً ، وساحه للغيوث نديداً ، ورماحه في نحور الاقران قصداً وفي السنة المداح قصيدا ، وأراؤه في ملاقة الخطوب عدّة وفي مكاترة الاعداء عديداً .

ويهدي اليه من وفود الدعاء ، والثناء ، ما يسلك أحدهما سماءً والآخر أرضاً ،
ويصون أحدهما نفساً والآخر عرضاً ، وأعجب ما فيهما أنّها يومان غير أنّ أحدهما
يكفي فيه صمت القلب ، والآخر لا يكفي فيه الأنطق اللسان ، وسبب هذه المكاتبه
الإعلام بحال فلان ، وأنه أوجب على خادمه حقاً قرنه بما تقدم من حق والده ،
وأولى الحقوق بالارعاء ما التحق طارفه بتالده ، وقد أحاط العلم الكريم أنّ المعارف
ذمار ، وأدنى الصحبة جوار ، وله حاجة يلزم الخادم الاعتناء بتسهيل منالها ،
والسعي الى (٨٣ ب) المجلس في حل عقالها ، وذلك أنّ له ملكاً بأرض الخابور منه
مدد عيشته ، وعليه مدار معيشته ، وكان زهنه لضرورة الجأته الى زهنه ، ولم تسمح
له الايام بفكاهه من سجنه ، وقد توجه لتفقد أمره واستزادة المرتهن في مدة صبره ،
وإذا علم أنّ له من المجلس جاهاً يسع مطالبه ، ويزرع عنه الزمان ونوابه .
أذعن باستيفاء دينه من دخل الموضع ومغله ، ولم يلجئه الى بيع جزء منه فيكون
ذلك سبباً لبيع كُله . وإذا بقي هذا الموضع فبقاؤه محسوب من فضل المجلس السامي
واحسانه ، وخير البرّ ما أعان طالبه على زمانه وأبناء زمانه ، وكفى ببقائه ثقةً انه
تحت ظلّ المجلس الذي هو حرّم على الأقدار ، وقائم لقصده مقام الاعوان والانصار ،
فمن تغطى بجاهه آمن من الحوادث بمرآه ورأى زهره من حيث لا يراه (١) ، ومن
مناقبه التي أبداه ، وغلب السابقين على مداها ، أنّ بلده كحرم مكة بذى شجرة
حمى على عاضده ، وصيده حمى على صائده ، فلا زال المجلس مجيراً بفضلته من
الاعداء . مُغيراً بعدله على رمى الظلم والاضلام ، حتى لا يحط أمل الآيبابه ، ولا
ينشأ كره إلا من فيض سخابه . ورأيه اسمى وان شاء الله تعالى .

[٥٨]

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الملك العادل نور الدين
ارسلان شاه صاحب الموصل ، عناية بشخص من بني شيخ (٨٣ آ) المقيميين ببلد
الهكاريّة ، وهؤلاء القوم مشهورون بتلك الارض بعلم وزهادة :
أدام الله المجلس العالي الملكي العادلي النوري وأسبغ نعماءه ، وصان عن الايدي
اللوامس سماءه ، ولا زالت أياديه في الاعناق أطواقاً ، وأبوابه لبضائع المحامد
أسواقاً ، وأخلاقه على حزيم (٢) المعالي رواقاً .

الخادم يرى من خدماته التي يعتدّ بابدائها ، ويواظب على اهدائها ، ان يسوق
الى المجلس كل عمل يسره في القيامة ان يراه ، ويكون دينه لديناه كما يكون زلفى
لأخراه ، وعارضها الشيخ فلان بن شيخ الاسلام ، وكفى هذا النعت شرفاً لعقبه ،
وسبباً يتصل إذا انقطعت بكل امرى صلة سببه ، ولم يزل بيته في البيوت كريماً ،

ونسبه في اعمال الخيرات صميماً . وقدمه في الانتطاع الى الله سبحانه قديماً . وقد ألف من البيت الكريم النوري عادة الإرفاد . وتوارث ذلك الابناء من الابناء والاجداد من الاجداد . وكان في موضع من بلد الموصل يعود بها من خلفه من ذرية ضعاف . ويستعين بجدوى محصولها على مزية الاستعفاف (١) وينفق فواضلها على القيام بحق من ينزل به من الاضياف . هذا في غيره من مدرسة تسمى خرجها في العرف نفقة ويرى (٨٣ ب) من جهته الثواب () (٢) «جامعه خيل الله التي تركب صهوات الكلام . ففيها العباد الذين هم خلان (٣) الغيب . والعلماء الذين فضلوهم كفضل القمر على الكواكب . فاذا نُظِرَ الى مصارف هذه النواضع وَجِدَتْ في وجوه الاستحقاق . () (٤) الساعي فيها والمساعد عليها شريكاً في () (٥) زمانها من الارزاق . وآخر ذلك كلُّه عائد الى المجلس وآبائه . الذين من أيديهم الكريمة مادة حباثه . وإذا اعطى من عطاء المنعم فله فضل شكره . واليه مساق أجره . وصنائع هذه المبرات وإن عدت لهؤلاء القوم . فالمجلس أصل مصنعها . كما انه اذا سقت شعب المياه أرضاً فإن الحمد لرأس منبعها . وغير خاف أن الصدقة الجارية وقاية من طوارق الاقدار . وانها أحد الاعمال الثلاثة التي خصها رسول الله بالدوام والاستمرار . ومن صفاتها انها من أبنية العلى التي تُرْفَعُ بالشيم الحميدة . لا بالاحجار المشيدة . تفوق بوشي المعارف لابوشي الزخارف . والله لا يخلي المجلس من رفع بنائها والسبق الى إحراز () (٦) بها .
والرأي أعلى إن شاء الله [تعالی] .

[٥٩]

كتاب كتبه الى بعض الاصدقاء جواباً عن كتابه :

اطال الله بقاء المجلس السامي الفلاني ويسر لقاءه . وأدام ارتقاءه . (٨٤ آ)
وجعل الزمان وقاءه . والمكارم ارقاءه . ولا زال محده وقفاً . وحمده عرفاً . وولائه عند الله زلفى وأفعاله طاهرة قلباً ولساناً وكفاً .

وَصَلَّتِ المكتبةُ الكريمةُ فوقتُ منها على الدرِّ العظيم . والروضِ الحميم . والمدامة والنديم . ووجدتها أوتيت من كل شيء ولها عرشٌ عظيم . فتقلدتُ مأسدته . ولم أردد ماأهدته . ثم تأملتُها [ف] (٧) قلت السرور من تلك الأسارير . وأدخلتها صرحاً مُمرِّداً من القلوب لامن القوارير . وان عدت كتاباً في الكتب . فالدراري كثيرة غير أن الفضل للشهب . ولقد زارت غيباً . فزادت كرباً . وأذكرت عيشاً كنت أقطعه بقربه وثبا . فما أحلا ذكراها وان كانت غراماً . وأكبر النعمى بزيارتها وان كانت لماماً . وقد علم ان في الكتب لقاءً بالمغيب . وشفاءً من دواء الاشواق الذي يقفوه عنه

طِبُّ الطَّبِيبِ ، وما أَظُنُّهَا إِلَّا اخْتِ الطِّيفِ فِي الزِّيَارَةِ مِنْ غَيْرِ مِيعَادٍ ، وَتَقْرِيبِ الدَّارِ عَلَى الْبِعَادِ ، وَالتَّمْوِيهِ بِنَجْوَى الْأَرْوَاحِ عَلَى نَجْوَى الْأَجْسَادِ ، وَلَوْ سَعَتْ أَرْضٌ مَعَ كِتَابٍ ، أَوْ أَنْبَتَتْ مِنْ غَيْرِ سَحَابٍ ، لَجَاءَتْ تَسْرِي بِسْرَى كِتَابِهِ ، وَأَتَى إِلَيْهَا الرَّبِيعُ قَبْلَ أَوَانِ أَيَّامِهِ ، وَلَكِنَّهَا عَبَقَتْ بِطِيبِ رِيَّاهِ ، وَأَشْرَقَتْ سَاحَاتِهَا بِأَنْوَارِ مَحْيَاهِ : (٨٤ ب)

جَاءَ بُشْرَى فَأَشْرَقَتْ أَرْضٌ نَجْدًا لُسْرَاهُ وَوَأَصَلَ الْغَيْثُ نَجْدًا
لَانْحِبُ الْبِلَادَ يَخْطُرُ فِيهَا رُسُلُ الشُّوقِ مِنْ خَيَالَاتِ سَعْدِي

فزدني بامولاي من هذه التحف اللطيفة ، وثقل عنقي بارسال هذه الاوراق الخفيفة ، وامنن بها علي غير مؤنب (١) بامتنانها ، وكثر بها حاسدي فان الحسد حسن في احسانها ، ومن اياديا انها ثروة للامال المعثرة ، وربيع للقلوب المقفرة ، وأعجب ما فيها انها تنقع غليلاً من غير شراب ، وتؤنس غريباً من أهل ولاصحاب ، فليؤكد بها المجلس أسباب الخلة ، ويطلعها طلوع الشمس لاطلوع الأهلة . ورأيه في تلك أسمى .

[٦٠]

رَقْعَةٌ سَأَلَهُ شَخْصٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ عَلِيِّ بْنِ يَوْسُفَ أَنْ يُمْلِيَهَا عَلَيْهِ فَأَمْلَاهَا ، وَهِيَ تَتَضَمَّنُ شَكْوَى حَالِهِ إِلَيْهِ :

سَمَا بِكَ هَمِّي فَوْقَ الْهَمُومِ فَلَسْتُ أَعُدُّ يَسَارًا يَسَارًا
وَمَنْ كُنْتُ بَحْرًا لَهُ يَا عَلِيُّ لَمْ يَقْبَلِ الدَّرَّ إِلَّا كِبَارًا (٢)

لاجدح على لمنوك اذا انبسطت آمانه . وكثر ادلاله ، فان الامال يبسطها مزيد النعمة ، والادلال موحيه وكيد الخدمة . والاقتصاد في المطالب سوء ظن بالنعمة أو حقارة في همة الطالب . وقد أفاض (٨٥ آ) مولانا جوده على الناس حتى نهلوا وعلوا ، وعودهم من كرمه انه لا يمل حتى يملوا ، ولم يجرم بغير جرم (٣) سوء المملوك ، وحرمانه من ذنوب الأيام لامن ذنوب الانعام .

(لا) (٤) ذَنْبٌ لِلْمَزْنِ جَادَتْني مَوَاطِرُهُ وَأَمَّا الذَّنْبُ لِلرَّازِقِ وَالْقِسْمِ

وقد أحاط العلم بحال المملوك باطناً وظاهراً ، ومكان خدمته غائباً وحاضراً ، وهو يعيد مولانا أن يجعله من أصحاب الشمال وهو من اصحاب اليمين ، أو يشب عمله ثواب المسترخص ، وقدره قدر (٥) الثمين ، فان ذلك عين الغبن الذي هو وسم على الخرطوم ، وشيم المكارم تأبى ان تكون في زي ظالمة وعبدها في زي مظلوم . والمملوك على الباب العزيز حولاً كاملاً ، تارة مقيماً وتارة راحلاً ، وهو يطوي أمره عن السمع الشريف ، ويخفف مهما أمكنته فرص التخفيف ، واما الآن فحيث نفدت

نفقته فلا يسعه إلا المخاطبة والمطالبة ، ولا يقنع إلا بما يخلف^(١) . عليه ما ذهب عن
 يده ، ويفضل عما يخرج على نفسه ويرسله الى بلده ، فقد شاقه عارضها بما ينهيه
 ، ولا بد من جواب يقع عليه التعويل . فَمَا بَزَادَ الْإِمَامَةَ أَوْ بَزَادَ الرَّحِيلَ ، وَلِلْآرَاءِ
 الْعَالِيَةِ مَزِيدٌ الْعُلُوَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (٨٥ ب) .

[٦١]

كِتَابُ كِتْبِهِ عَنِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَادِلِ ، وَقَدْ سَارَ مِنْ حِرَّانَ إِلَى الرَّقَّةِ
 لِتَجْهِيزِ عَسْكَرِ الْمَوْصِلِ إِلَى خِدْمَتِهِ .
 يَقْبَلُ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَانِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْتَهُ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَهُ لِلنَّاسِ ، وَرَفَعَهُ عَنِ
 ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالْبَنْدِيِّ وَالْبَاسِ .

وَلَا زَالَتْ أَيَّامَ دَوْلَتِهِ فَصَوَّبَ رُبَيْعَ وَنِيَالِي أَعْرَاسَ ، وَأَحَادِيثَ مَجْدِهِ شُهَدَاءَ فِي الْفَمِّ
 وَرِيحَانًا فِي الْقَلْبِ وَحُمِيًّا فِي الرُّسِّ .

وَيُنْهَى أَنَّهُ أَصْدَرَ هَذِهِ لَخْدْمَةٍ فِي يَوْمِ أَضْحَتْ فِيهِ الشَّمْسُ شَاحِبَةَ الْخَدِّ ، وَالنَّارُ
 بَارِدٌ (٥) الْوَقْدُ ، وَالسَّحْبُ خَدَّةٌ فِي ثَوْبِهَا^(٢) كَالجِيَادِ الْمَسْنُونَةِ فِي الْهَوْبِهَا ، فَكَلَّمَا
 اسْتَطَارَ بَارِقُهَا ، وَأَدْرَكَ سَبْقُهَا لِأَحْقَبِ . مَنَّهُ مَنْتَ الْبِلَادِ مِنْ كَذِبِهَا ، وَدَاوَتْ الْأَرْضَ
 مِنْ وَصْبِهَا ، كَأَنَّهَا اسْتَعَارَتْ صَفَةَ مَنْ يَدِي مَوْلَانَا فِي أَعْجَالِهَا ، وَتَدَفَّقَ نَوَالِهَا ، وَلَهَا
 الْفَخْرَانُ أَشْبَهَتْ يَدًا تَجُوبُ ذُجَجَتْ . وَتَخِيْمٌ ذُ رَحَلَتْ .

تَشْبِيهُ جُودِكَ بِالْأَمْضَارِ غَدِيَّةٍ جُودٌ كَفْكَ ثَانٍ نَالَهُ الْمَطْرُ

وَمَا يَشْكُوهَا الْمَمْلُوكُ فِي أَدَى تَعْوِيقِهِ . وَمَا قَسَدَ مِنَ الرَّسُولِ الَّذِي^(٣) . حَالَتْ
 بَيْنَهُ وَبَيْنَ طَرِيقِهِ ، لِأَنَّهَا (١٤١) بِشَبْهِ نَنْكَ الْكُفِّ الْكَرِيمِ وَأَشْبَهَ (٥٠) لَهُ
 وَقَايَةَ بِلِ حَرِيمِ ، وَلَوْ كَانَتْ مَدَادًا لَقَدْ نَمَّوْكَ لَمْ سَتَوْت (٨٦ أ) أَشْوَاقِهِ إِلَى
 الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ كُلِّ رَاجٍ قَرِيبِهِ . وَكَرَّ عَفِ نَسِيهِ . وَعَلَى الْحَقِيقَةِ
 فَأَنَّهَا الدُّنْيَا الَّتِي هِيَ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ حَبِيبَةٍ .

هِيَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى وَرُؤْيَتِكَ الْمَنَى وَمَنْزِلِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ (٦)

وَلِلْمَمْلُوكِ فِي وَصْفِ أَشْوَاقِهِ إِلَى الْخِدْمَةِ أَسَالِيبَ تَكْتَرُ مَعَانِيهَا ، وَتَشَعَّبُ مَبَانِيهَا ،
 فَتَارَةً تَجْعَلُ الْأَمْطَارَ لَهَا مَدَادًا ، وَتَارَةً تَجْعَلُ حَرَ الْهَجِيرِ لَهَا مَهَادًا وَتَارَةً يَكْلُمُهَا إِلَى
 مَعْرِفَةِ الضَّمِيرِ الشَّرِيفِ فَيَلْتَقِي بِهِ تَحْكِيمًا وَاسْتِشْهَادًا . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ
 بِمَضْمُونِ فَوَادِهِ ، وَلَا بَلُغِ غَايَةِ مَوَادِهِ ، وَقَدْ يَكُونُ الْعَجْزُ غَايَةً يُوَقِّفُ عِنْدَهَا ،
 وَتَطْمِينِ النَّفْسِ بِأَنْ بَلِغْتَ فِيهَا جُهْدَهَا . وَإِذَا كَانَتْ الْأَشْوَاقُ عَلَى قَدْرِ الْوَلَاءِ
 (فَمْنَا) (٧) جَاءَ الْقُلُوبَ فِيهَا أَفْصَحُ عِبَارَةٍ ، وَأَدْلُّ إِشَارَةٍ ، وَتِلْكَ الْمَخَاطَبَاتُ الَّتِي
 لَا تَقْتَضِيهِ (٨) إِلَى الْأَصْوَاتِ وَالْحُرُوفِ ، فَتَرْتَفِعُ عَنْهَا مَطَاوِي الشُّكُوكِ كَمَا تَرْتَفِعُ عَنْهَا

مطاوي السجون ، فلا يكلف المملوك سوى الوقوف عند هذا التعبير ، ويرض منه بالقليل من هذا القول دون الكثير والرأي أعلى ان شاء الله تعالى .

[٦٢]

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى عمه الملك (٨٦ ب) العادل ابي بكر بن ايوب عناية بالرشيد ابن النابلسي الدمشقي الشاعر (١)
يقبل الارض بين يدي مولانا الملك العادل ملكه الله شرف العليا ، ووسمه بسيماه ، وسيّر ذكره مسير من أمسى والفرقدان نديماه ، ومنحه كرم الجوادين : البحر والشحاب فانهما قسيماه . ولا زالت أيامه للجدود مطالع ، ومراسمه للأيام جوامع ، وصنائه للآمال مشارع ، وجدوده للاعداء مصارع ؛
وينبهي ان فلاناً وفد عليه زائراً ، ولَمَّا قَدِمَ اليه شاكراً ، فانه ممن تكون الصنائع عنده ودائع ، والمحامد لديه عوائد .

وقد كان الزمان اعطاه بحلب فأسجح ، وامكنه من قياده فاسمح . لكنّه تخير ظلّ مولانا الجامع له بين الوطن المحبوب ، والنيل المطلوب ، وهو عبد احسانه العميم ، وشاعر مجده الصميم ، ومن له حرمة المضيف بالجار القديم . ولا يمت الى خدمته الا بسابق انعامه ، الذي ابتداءه وسيلة الى تمامه . وقد عضدته الآمال وهي لدى مولانا ذريعة ، والفضائل وهي لأهلها سفيرة بل شفيعة ، وتكملة ذلك كتاب المملوك فانه نظام هذه الفرائد ، وواسطة هذه القلائد ، وهو الحاجب المخاطب والوكيل (٨٧ آ) المطالب . وقد ناب منابه في بسطه (٢) كفه ، ورفع طرفه ، واقتخر بأن مثل مسائل ، وقام قائلاً ، فان جود مولانا شرف لنائله ، وفخر لسائله ،
تُدعى عطاياه وقرأ وهي ان شهرت كانت فخاراً لمن يعفوه مؤتبقا

والمملوك يسأل اجزائه (٢) على سالف عاداته في جاري الانعام وجاري الاكرام ،
الذين يجمعان له بين قوت الارواح وقوت الاجسام ، فانه من ذوي البيوت التي تميزت بنسبها ، وتنبت بأدبها ، ولا تجد طعم الاحسان الا ممزوجاً بالمنزلة المكرمة ، وهما عنده متلازمان كالصلة والموصول والنتيجة والمقدمة ، ولو لم يشفع له المملوك لوجب على مولانا ان يرغب في قربه من خدمته ، وانتظامه في سلك ذوي نعمته ، فان لسانه للدولة جيش يناضل عن أحسابها ، ويمدها بمدائح تبقي أثر نصرها في أعقابها .

تألق في أضعافها وبدائع
قصائد ما تنفك فيها غرائب
وتبقى كما تبقى النجوم الطوالع
تنال منال الليل في كل وجهه

إذا ذَهَبَتْ شرقاً وغرباً فأَمَعَتْ
تَبَيَّنَتْ من تَرْكُو لَذِيهِ الصَّنَائِعُ (١)
وقد حَزَرَ المملوكُ جُهدَهُ في خطابه ، فليحزِر المولى جوده في جوابه (٨٧ ب) ،
فانه لا يرضى في قبالة سؤاله الا ببرغبة الطامع ، ولا يقنع الا بما يزيد على أمل
المستشفع وهمة الشافع ، فان الغيث لا يوجد الارض بمقدار غيِّ التراب ، بل على قد
خلقه السجاح وكفه الوهاب ، والمكارم الشريفة غنيّة عن هزّها بهذه الأقوال المطولة ،
لكن الله سبحانه قد أمرنا مع فيض جوده بالالاحاح في المسألة ، فلييسط عند المملوك
في تطويله ، وليلق حاملُ كتابة ما يؤمله من تخويله وتنويله .
وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى .

[٦٣]

كتاب آخر في المعنى كتبه عن نفسه الى صفي الدين عبد الله بن علي بن
شكر (٢) وزير الملك العادل :
يخدم المجلس السامي نصر الله جُنْدَ كلمه ، وأمضى شباة قلمه ، وأغنى الملك
بسواد لسانه عن احمرار لهذمه .
ولا زالت آراؤه للدولة قصباً ، ومناقبه في سمائها شهباً ، ووسائله عنها كتائب وان
كانت كتباً .

وينهي ان أنفس الهدايا ما كان عقبا دون الاعقاب ، وزينة تتجدد على مضي
الاحقاب ، وهي عقيلة الثناء التي تلد في القلوب وذا ، وتكسو الاعراض مجدا ، ومن
صفاتها انها تزيد على كثرة السفور جمالاً ، وعلى تطاول الايام اقتبالاً ، ولا يبرزها
من حجابها ، ويجلوها في اترابها ، كمثل (٨٨ آ) فلان فانه ماشطة محاسنها ،
والحاجب لها من مواطنها ، وقد جعلت الخادم تحفته للمجلس وهو مما تمت به بل
يمن ، ويشخ به بل يضمن ، فليلقه لقاء المزنة لواردها ، والروضة لرائدها ، عالماً انه
راعي ظلال (٢) المكارم المنشودة ، وحافظ أيامها المعدودة بل المشهودة ، واذا اختصه
لخدمته حمى به ماشادته مناقبه من المباني ، وأصبح شاعر الغاني خدناً (٤) لشاعر
المعاني ، على ان غاية جُهدِهِ أن يدون ماسنة نداء من منهاج وشرة ، الا ان كسبه
بمديحه مثال شرف ولا مزية رفعة .

واذا مدحت فلا لتكسب رفعةً للشاكرين على الآله ثناء

وقد وصل الخادم جناحة بكتاب الى الجناب الشريف المولوي الملكي العادلي
أعلاه الله ، ليكون بين يديه سافراً ، وفي الخطاب عنه شاعراً ، ولئن كان ذلك
الجناب بحراً ، فان المجلس فرصة ساحلة ، أو كان غيثاً ففي يده مساق وابله ، ولا

تؤتى البيوتُ إلا من أبوابها ، ولا يعتصم في تسهيل الحاجة إلا بأسبابها ، وقد وعده الخادمُ وعداً وثق بتحقيقه ، وعلم أن انجازه مقترنٌ بمسافة طريقه ، وكانت آماله وعدته قبل الخادم وكان وعدها على قدره ، والمجلسُ يأتي بشيمته التي يقصر عنها (٨٨ ب) قدر أمله وقدر دهره ، ومن كمال المروءة اقتران الجاه بالجدود ، وإن يكون صاحبهما () (١) الى الورود .

إذا تيمَّناهُ في مَطْلَبٍ كَانَ قَلِيلاً أَوْ رِشَاءَ الْقَلِيْبِ (٢)

وفي مكارمه ما يغني عن الخطاب والكتاب ، والتمسك بالاسباب ، لكن الخادم أحبُّ أن يتخذ عند حاملها يداً ، فجرى في العناية به الى مدى (٣) . وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[٦٤]

كتابُ كتبه عن نفسه الى بعض الأخوان جواباً عن كتابه :
وصل كتاب المجلس السامي لازال مجده كريماً ، وفضله عظيماً ، ونهجه قوياً ، ومحلّه زعيماً ، وشرفه وشرفُ آبائه قديماً ، وذكره ظاعناً وعلاؤه مُقيماً . فناسب بياض صحيفته بياض أخلاقه ، وبسواد مداده أيام فراقه ، كلاهما منع الجفون ان تلتقي ، وأخذ مالم يبق مني وما بقي ، ولقد علمت ان ذلك الانس بقربه . () (٤) وان تلك النهلة من لقاءه تجعل الاكباد عطاشاً ، فإن من شيمة الدهر أن يبذل بالسرور (٥) كدراً ، ويوسع أيام عقوقه طويلاً وأيام برّه قصراً ، وما أقول إلا أنه شعر بتلك المسرة المسروقة وأقام عليها حدّ القطع ، ورأى العيش فيها خفضاً (٨٩ آ) فزاله بقليل الرفع ، وكيف التحرز ممن يأتي اغتيالاً ؟ أم كيف الانتصاف ممن يتظلم فعلاً ويجازي نفالاً ؟ ولو تمثّل لي شخصاً لكنت أوّل أخذ منه بثأره ، ولكفيت المحبين مساوىء آثاره ، ولئن اقتسر النفوس بحكمه ، وأتاها بما لم تحتسبه من ظلمه ، فما نالها بمثل ظلامه البعاد ، التي لولاها فرقت المنايا من الارواح والاجساد .

الموتُ عندي والفراقُ كلاهما مالا يُطاقُ

لو لم يكن هذا كذا ما قيل موتٌ أو فراقٌ

ولعمري أن هذا القائل أراد ان يبالح فاقصر ، وان يطيب فاختصر ، فان الفراق شيءٌ لا كالاشياء ، وصاحبه ميتٌ لا كالاموات وحيٌّ لا كالاحياء ، وما أراه إلا كنار الله الموقدة ، التي تطلّع على الافئدة ، وما يجعل صاحبها في ضحاح منها الآ تواتر الكتب التي تقيه بعض الوقاية ، وتقوم له - وان لم يسق - مقامَ السقاية . فليقابل كتيبى بأمثالها ولا يقوضني عن اكارها باقلالها ، فان ذلك عين الغبن ، والتغبن مأثوم والكتب من مطعمات القلوب ، والرّبا حرامٌ في المعلوم .

ورأى المجلس في تأمل هذه المكاتبه اسمى ان شاء الله تعالى . (٨٩ ب)

[٦٥]

كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاخوان أيضاً ؛
وصل كتاب المجلس السامي جعل الله الزمان عقيماً عن نظرائه ، وأوضح في
سما المعالي آية اسرائه ، وألهج القلوب والألسنة بوذه واطرائه ، وأربح في بذل
الرغائب واقتناء المناقب صفقة بيعه وشرائه ، وأفحم كل جاحد بمعجزات فضله حتى
تقطع مرائه . فكتب على الودّ ضربة لازب ، وأقترن بأخيه الذي تقدمه اقتران
صاحب بصاحب . وما أقول الا انهما كالتوأمين اللذين أعقب ساكباً منهما بساكب ،
أو كالقمرين اللذين يجلو أحدهما وجه النهار والآخر وجه الغياهب ، ولو طلبت
بحقيقة وصفهما لم أفتح فما ، سوى أن أقول ما أدري ماهما .

ولم أدري ماهي غير ان غلامهم سعى في نواحي كرمها يشهاب

ولقد ودّ القلب أن يكون عيناً لتأملهما أويداً لتناولهما . ومما برح به انهما
تحدثا عن شأنه ، وكانا في الوجد من انسانيه ، وفي الأنس من خلّانه ، فوضعما موضع
مرسلهما في نجوى الوداد ، وشكوى البعاد .

وكمثل الاجباب لو يعلم العا ذلّ عندي رسائل الاجباب

فهي وإن نابت مناب التلاق ، فانها تزيد في الاشواق ، إذ (١) اللقاء (٩٠)
أ بواسطة الكتاب لقاء من وراء حجاب ، وذلك أبرح ما يكون الشوق عنده ، وأشدّ
ماتكون الغلة إذا صافحت ورده ، وهو على الحقيقة لقاء خيال ، يمثّل قرباً على بعد
الدار ، ويموه برؤيا القلوب على رؤيا الابصار . فهو لا ينفع أواماً ، ولا يشفي
غراماً ، غير أنه يجدد الأمانى التي تمضي العيش رغداً ، فتزهي على أمانى من
سعدى . فلينعم المجلس بمتابعة كتبه فانها (٢) (٢) بالاحياء ، وهي من
الاشياء المسؤولة إذا منع من سؤال الاشياء ، وإن عدها منه فإن الامتنان بها لا يكدر
موهبتها ، ولا يصدّ عن طلبتها ، وكلما زاد باذلها منّة زاد طالبها رغبةً ، وهي
(كالوارد المعرض للخيام) (٢) الذي كلما زاد كثرة ظنه لتلّيه نغبةً . ورأى المجلس
في تأملها والاجابة عنها اسمى إن شاء الله [تعالى] .

[٦٦]

كتاب كتبه عن الملك الأفضل علي بن يوسف الى رجل من كبار الصالحين
المجاورين بمكة ، جواباً عن كتابه وقد أهدى اليه خِرقة التصوّف ومُصلى ،

ورد تكتابُ الكريم عن المجلس السامي جعله الله ممن خافَ مقامَ ربِّه ، وألبسه لباسَ تقوى الذي هو شعار حزبه ، وقَرَّبَه بمن حَبَّبَ اليه الايمان وزَيَّنَه في قلبه . وكشف له في الآخرة عن سمات (١) وجهه كما (٩٠٠ ب) كشف له في الدنيا عن نور حجبهِ ، فتلقاه الخادمُ باليمين ، ورفعهُ الى المقامَ الأمين ، وعَفَّرَ لمقدمه قلباً وخذلاً ، وعدَّهُ من الباقيات الصالحات التي خيرُ ثواباً وخيرَ مردداً ، وماظَنَّهُ لوقاره الأ صورة منحراب ، ولا شراقة الآ بارقة شحاب . وكان الطرفُ طامحاً الى مطلعهِ ، والقلبُ حائماً على ورود مشرعة ، والاذن مصغية (٢) الى معرفة أنبائه ، واليد ممتدة الى جدوى حبابهِ ، فرأى الطرفُ منه ماملأ ملامحهُ والقلبُ ماملأ جوانحهُ . والأذن ما أنشأ لها طرباً . واليد ماسى لها أرباً . غير أن هذه الأعضاء تفاخرت في السبق الى الاخذ منه ، والرواية عنه ، فقارَت العيونُ دونهنَّ بمزية الفخر الباسق ، لانها بدرت بالنظر والنظرُ هو السابق ، ولها المنة على الثلاثة الباقية ببشرى مقدمه ، وأستجلاء مسمه . ووصلَ ماشرف به من خرقة التصفو التي فازت بمصافحة جسده ، والمصلى التي فازت بفضيلة تهجده ، وهما () (٣) بركة وشرفاً وخيراً موثقاً ، اما الخرقة فقد اتخذها الخادم جنةً من طائف الشيطان ووساوسه ، وسلاحاً يلقي به عدو الدين يوم بأسه ، وفي وقاية من العدو الباطن الذي يجرى من ابن آدم مجرى دمه ، والعدو الظاهر الذي يجالد بسيفه ويجادل بغمه ، وأما (٩١ أ) المصلى فقد اتخذها مرآة لقلبه ، وسبباً الى مقامات ربِّه ، وقد ناجاه منها أثرُ المجلس في سجوده ، وموضع قيامه ، انها ممّا يمشي بها على الماء ، ويصافح عليها ملائكة السماء ، فالكرامات بادية من رقعتها ، طالعة من طلعتها ، ولو شاء الخادم لاسرى عليها وقال : « سبحان الذي اسرى » (٤) ، ونصبها آيةً وقال : « لقد رأى من ايات ربِّه الكبرى » (٥) (٦) ، بهاتين التحفتين جامع فضيلة الدنيا والآخرة ، يشتمل على النيات الباطنة والاعمال الظاهرة ، ولهما اخوان يحلان محلَّهما في لطف الموقع ، وشرف الموضع ، وهما كتب المجلس وأدعيته فانهما نورٌ على نور ، وسورٌ من وراء سور ، والخادمُ يسأل ان يجعلهما من اخوانه ، ويوالي بهما ماتقدم من احسانه . فان له من احدهما حارس ليلٍ ونهار ، ومن الآخر جليس اعلان واسرار (٧) وعلى الحقيقة فان كتب المجلس أرواح والقلوب لها أجساد ، وادعيته جنود وألطف الله لها امداد ، ومهما أعدّه الخادم من الشكر عليهما ، فانه يقصُر عن قدر مكانتهما ، ومقدار احسانهما ، فليس له أن يقول حسبي حسبي ، ذلك من فضل ربي . والسلام .

كتاب كتبه عن نفسه الى الملك الأفضل علي بن يوسف يهنيه بعيد الفطر :
أسعد الله أيام مولانا الملك الافضل ، وجعلها كأيام الجنة مخلدة النعيم ، مأمونة
(٩١ ب) اللغو والتأثيم ، ولا زال حظّه من تكرارها رفعةً وحظًا ، وحظّ غيره منها
مثلبًا وكبرًا .

المملوك يهنيء مولانا الذي هو واحد الأنام ، بهذا العيد الذي هو واحد الأيام ،
فهو نظيره في شرف موضعه ، وامتداد العيون الى اجتلاء مطلعِه ، غير أنه يُستدلُّ
عليه برؤية هلاله ، ومولانا يستدلُّ عليه بنفحات نواله .

تدلُّ عراضهمُ أبدأ عليهم بطيبِ التُّربِ منهم والنسيم

وهذا العيد لا يلقى بين يديه غلة واوام ، ومولانا لا يلقى بين يديه إلا عطاءً
وانعام ، فهو مظنة الافادة ، وذاك مظنة العبادة ، وكلاهما سببٌ للمواهب الفاخرة ،
فهذا لحظّ الدنيا وهذا لحظّ الآخرة .

على أن أيام مولانا كلها أيام عيد في رأي الاكباد اللهيفة ، وان كانت أيام صوم
في طهارة الاوقات الشريفة :

كلُّ عيد يمضي وجودٌ يديه كلُّ يوم على الورى في عيد

فليأخذ من ثناء المملوك ما بلغه بغاية جهده ، ولا يلزمه الانتهاء الى ما بلغه المولى
بغاية مجده ، فان ضروب العبادات الوسيعة لاتحيطُ بفنون مناقبه الوشيعة (١) . على
أن المملوك اذا اخذ في وصف معالي مولانا ، حارت القلوب مم يكون عجبها ،
وحارت الاسماع مم يكون طربها ، أمن هذا النظم البديع ، أم من ذاك الشرف
الرفيع ؟ غير ان العلياء تزين فرائد الكلام ، (٩٢ آ) كما تزين الحسناء فرائد
النظام .

اذا خلعت على عرض له حللاً وجدتها منه في أبهى من الحلل
وقد اتى المملوك بهذه الكلمات الموجزة التي تغني عن القول المشيع ، كما يستغنى
في قصر الصلاة بالركعتين عن الأربع .

فليقبل المولى منه جهد الميسور ، وليقم عُذره فان المعذور مشكور . والرأي أعلى ان
شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن نفسه الى بعض الاصدقاء وكان ارسل اليه هدايا عن مخدومه وكان هو الوسيط فيها :

وصل كتاب حضرة فلان جدد الله عليه نعمته . ونشر عليه رحمته ، وأنزل على يده ولسانه حكمته . ف جاء من بره بملء العين والقلب والسمع ، وتجاوز به حد التشنية الى حد الجمع ، ودل (١) أنه غير مُطع بما جرى عليه من سجية الطبع . وكنت مقصراً عن شكر ماتقدم ، غير مطيق لحمل الفرد (٢) منه فضلاً عن التوأم (٣) . ومن لم يستطع الجزاء لا يستطيعه بفعله ، ومن بله طل الاحسان اغرقه شؤبوب وبله . وانا الآن قائم بين شكرين ، مثقل من الامتان بحمل وقرين ، فأحدهما شكر رب الانعام الذي بذله ، والآخر شكر مفيده الذي ارسله . و (شكر) (٤) لريح الذي يسوق السحاب شكر كشكر السحاب . والصبح (٩٣ ب) يخلف نور الشمس بضائه وهي من وراء الحجاب . فحامل الانعام منه مهديه ويد مبيده ، وهذا فصل قد تحملته لحضرتة وان استضيف اليه اخاه . وأوثر منه ان يقصده ويتوخاه . وهو اعانتي على شكر مخدومه أسع الله ظله ، وأعلى محله . فلا يكتب اليه كتاباً الا كان من دعائي له عنوانا ، وشكري فيه صحيفة بل ديوانا . فانا بالغ في ذلك بالاسهاب حتى يقرنه بالاسهاب مثله . ولا يرجع (٥) له بالمكاتبة حتى يرسله على السنة رسله فان شكر النعم فرض عين بل قضاء دين ، وكيف يقابل الانعام الاوّل بشكر ثان ؟ ام كيف يعتدل الفعل والقول بكفتي ميزان ؟ والسلام ان شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى أخيه الملك الظاهر غازي جواباً عن كتابه ، وكانت الكتب انقطعت بينهما لنزعة جرت بينهما :

يخدم المجلس العالي الملكي الظاهر أعز الله نصرته . ونصر أسرته . ووالى الى حرمه حج القعد وعمرتة ، ولا زال سيفه وبنانه يتباريان في الأخذ والإعطاء ، وعقابه يتجاريان في الإسراع والإبطاء . ومطاوي العيوب كا () (٦) لنظره حتى لايزداد يقيناً بكشف الغطاء .

وصول المكاتب الشريفة ، بل العيمة المطيفة ، بل الروح اللطيفة ، فما ظنّها
 (٩٣ آ) لغرابتها الأ وهماً سانحاً ، أو حكماً با () (١) وكيف لا يستغرب وقد
 طال صدوفها (٢) ومكر معروفها ، وجهلت أوصافها ، كما جهل موصوفها . فلما
 تأملها الخادم ضمّها اليه ضمة اللقاء ، ووجدها ماءً لظمته (٣) فوضع تقبيلها موضع
 الاستقاء ، وما هي على الحقيقة إلا عوذة من طارق الأيام ، وغمام فائض اذا أعوز
 فيض الغمام ، وثروة من الجدة والانس اذا مُنيت النفوس بالوحشة والاعدام . فيطلق
 المولى شحاب قلمه ، ويبلّ به ماأيسه الدهر من رحمه ، وليضع مامضت به الايام
 والليالي تحت قدمه ، ففي ميل الدهر كفاية عن ميله ، واذا أجلب بخيله فلا
 يجلب المولى معه بخيله ، ولئن حملت الضرورة على أمرٍ فللضرورة حكمها ،
 والهبات التي جرت كان المولى مسماها والخادمُ اسمها ، فلا يكن في ذلك معاتباً
 فيفتح عليه باب المعاتبه ، بل (٤) ينصف في المحاكمة ويدعو الى اسقاط المطالبة ،
 فما لا يأتي باختيار فغيه لصاحبه كثرة أعدار ، وقد تجني اليد والعين باكية لتلك
 الجنائية ، ويعرض الوجه والقلب مقبل بوجه العناية ، وربما أصاب المرء من يؤله
 مصابه ، وأخطأ طريق الصواب ثم بان اليه صوابه ، فظفرك منك وان آلك قرصه ،
 وأخوك أخوك وان غاب عنك شخصه ، وقد علم ان البيت لا (٩٣ ب) يقوم إلا
 بأطنابه ، والوادي لا (يجري) (٥) إلا بشعابه ، وريش السهم الذي يحمله الى
 غرضه ، وحذ السيف لا يمضي إلا باعانة مقبضه ، فلا يدم المولى على لده ، ويسقم
 على وهن يده بيده ، بل يتغمّد حرّ السخط ببرد الرضا ، ويكفر بمستقبل الاحسان
 إساءة مامضى ، فالتوبة تجب ما قبلها من الآثام ، ولا عقوبة على الكفر بعد الاسلام .

والرأي أعلى ان شاء الله تعالى .

[٧٠]

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى عمه الملك العادل أبي بكر
 ابن ايوب ، عنايةً بشخص من أصحابه :

يُقَبَّلُ الارضَ بين يدي مولانا الملك العادل لازالت أبوابه للوفد علماً ، وشيمته للعفاة ديمًا ، وعطاياهُ لذوي الحدود جدوداً وقسماً ، والأيام والليالي لآل دولته عبيداً وخداما .

وينهي أن مننه على المملوك كثيرة ، فهي على عطفه ثوب مجد وفي يده عتاد ذخيرة ، ومن أعرفها عنده عرفا ، وأبرها به لظفا ، الاحسان الى صاحبه فلان ، فإن الاحسان الى صاحب احسان الى المضروب ، وكناية المرء كنفسه في المثل المضروب . وهذا المشار اليه صحب المملوك طويلا ، وصبر معه صبراً جميلا ، وأوجب عليه حقا كثيرا ، وأصبح عند عمى الناس عن الوفاء بصيرا ، (٩٤ آ) .

وكان المملوك طالع بأمر الملك الذي يخصه بدمشق ، وسأل اقراره في تصرفه ، ومنع الايدي العادية على تحيفه ، فعاد الجواب بالوعد الذي هو مال حاصل ، واذا قال الكريم قولاً فانه فاعل ، ولم تزل وعود مولانا كنش مزنة لم يتألف سحابها ، حتى اطل انسكابها ، وباكورة ثمرة لم يحن اقتطافها ، حتى حان احترافها . ولا فرق بين حركة لفظه بوعده ، وحركة (بزه) (١) برفده ، فهما في المناسبة توأمان ، وفي الاتحاد كسمى واحد (تعا) قب عليه اسمان ، وهذا الكتاب ناطق بشكر الانعام لا بتقاضيه ، عالم أن مستقبله مقترن في الانجاز بماضيه ،

فان انعام مولانا أسرع من أن يقتضى ، وعزمه في المكارم ينتضي نفسه قبل أن ينتضى ، واذا استعان السائل بشيم المسؤول كان صمته (٢) معبراً ، وتركه للتذكار مذاكرا ، وقد وكل المملوك وعد مولانا الى كريم خلقه ، وترك فيض البحر وسجية تدفقه ، والرأي أعلى ان شاء الله تعالى .

{ ٧١ }

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى مظفر الدين صاحب اربل :
يخدم المجلس السامي أعلى الله مقامه ، ورعى ذمامه ، ونصر أيامه ، وأغرى بالمكرمات غرامه ، ولا زال يبلي بجدة مجده الجديدين ، ويفوز (٩٤ ب) بم يحظيه من الدنيا والآخرة بالحظين السعيدين ، ويدني له منهما الأملين البعيدين ، وينهي ان للمملوك اشواقاً (٣) تجلت (٤) فيها ومصفى من الهدايا بما تختارها وتصطفئها (٥) ، وقد علم أن للمجلس الصنائع أربا ، وانه من الذين يسارعون في الخيرات فيدعون رغبا ورهبا ، فالدال على الخير متخذ (٦) عنده يدا ، وسائق اليه أنوار هدى ، وحامل هذا الكتاب الشيخ فلان وهو عريق النسب في بلده ، نابه (٧) الاسم في محله ومحتده ، وقد قصد خدمة المواقف الشريفة النبوية ،

زادها الله شرفَ آلائها ، وجمع في القلوب بين مهابتها وولائها ، وجعل طريقه على إحسان المجلس الذي هو ساحل ذلك البحر المقصود ، وشريعة ذلك الورد المورود ، وغرضه الإيجاد بعناية كريمة تعرب عن مصدره ، وبعد سفره ، وكرم بيته وعنصره ، ليتجه الى مطالبه باسمها ، ويحكم على الايام بحكمها .

وقد اتخذ كتابَ الخادم وُصلةً الى الباب الكريم ، الذي لا يردُّ (١) داخله ، ولا يخيب أمله ، ولا ينقطع عن قاصديه طله ووابله ، ويرى الطالب لاتصل بمن كان سنا المجلس كوكبه ، وكتابَ الخادم موكبه ، والرأي اعلا [ان شاء الله تعالى] .

[٧٢٠]

كتابُ كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى عمه (٩٥٠ آ) الملك العادل ابي بكر بن ايوب :

يُقْبَلُ الارض بين يد مولانا الملك العادل خلد الله أيامه تخليد ثنائه ، وأثار دولته انارة سنائه ، وجمع بين غناه من العلياء وغنائه ، وأوسع صدره للمكارم توسعة فنائه .

وينهي ان فلانا وفد عليه راضياً من الوفادة بالشفاعة ، قانعاً بما عون الكتاب وهو أيسر القناعة ، وقد أوجب على المملوك حق القصد وهي ذمّة ملحوظة ، وحق السبب في المكاتبه وهي يد محفوظة ، وكلاهما يرعى برعاية حسن العهد ، وينقل صاحبه الى درجة الاوداء عن درجة الوفد .

ومضمون هذه الشفاعة انه كان اتباع قرية من عمل بيسان ، فبني بها وعمّر ، وأتفق فأكثر ، وغرس بها المنى فما أثمر ، وأصبحت منبتاً للصبر بعد ان رجاها منبتاً

للسكر ، وذلك أن مقطع بيان أقطعها ، ونازعه فيها حتى انتزعها ، ثم توالى سنون ذهبته بحاله ، وأجحفت بماله ، وفجعته في كل شيء حتى في أماله ، وكذلك الايام تبني وتهدم ، وتغني وتعدم ، فحقيقه وجودها كأحلام هجودها ، واذا علم المرء أن ماأصابه مسطور في كتابه ، لم يفرح لمجيء (٢) ولم يأس لذهابه . غير ان هذا الرجل قد عال أمره ، وعيل (٩٥ ب) صبره ، وعلاه ديون تُقل منها ظهره ، ولا مفر له الا باب مولانا الذي هو باب السماح ، ولا وسيلة له الا كتاب المملوك الذي هو مفتاح النجاح ، وقد كانت هذه القرية قبل أن تحول حاله قطرة في بحره ، ثم أصبحت اليوم وهي قوام أمره ، وجعل ما يرجوه في عود يسره ، واذا ردت اليه عاش وارثاش ووجد المعاش ، فان أحياء ميّت الامال كاحياء ميّت الاجسام ، غير ان هذي تعاد بنشر الارواح ، وتلك تعاد بنشر الانعام ، والمملوك يسأل له مولانا الذي هو

طبيبُ حوادث النفوس ، ومُخرج النعماء من البؤس ، فانه لم يقصده الا لعلمه ان كلمته عنده مقبولة ، وشفاعته لديه مأمولة . وللآراء العالية مزيد العلو ان شاء الله تعالى .

[٧٣]

كتابُ كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الامير سيف الدين علي بن سليمان بن حيدر صاحب اللاذقية ، وهو من امراء الملك الظاهر صاحب حلب ، وقد لقي شردمةً من الفرنج خذلهم الله فهزمهم :

ورد كتابُ المجلس السامي نصر الله عزيمته ، وأمضى (١) (١) ، وجعل أُجْرَ الجهاد غنيمته ، وقوي في اعلاء دينه شكيمته ، ولا زالت شباةُ سيوفه (٩٦ أ) للغمَاء كاشفة ، وأسنةُ رماحه من دم الاعداء راعفة . وشهب هممه لشياطين الكفر قاذفة ، فوقفت عليه وهو مخلوق بالنصر المبتكر ، والفتح المنتظر ، والوقعة التي أربى العيان فيها عن الخبر ، وعلم منه البشرى بما يسره الله على يده ، وجعله ذفيرةً لغده ، فاذا ذكر من الجهاد ماسالت أيامه ، ودرجت أقوامه ، وبعد على رجال الاسلام موقفه ، وظماً الى الورود مهندهً ومثقفه ، وهذه وطأة عرف العدو أخواتها بأرضه ، واذا أراد النهوض لها ثقلت من نهضه ، فهي (٢) (٢) يمضي فيصمم وكرةً فاتك مشى فيم . وملك عزمه من العزمات الظاهرية التي جاهدت بيعث همتها وعسكرها ، وأستغنت بحضور جدّها عن محضرها ، فسرايا جدودها سارية بين يدي سرايا جنودها ، وليس الغزو لمن سار اليه بل لمن قام بأمره ، ولا النصر لمن شهد القتال بل لمن ولي اضرام جمره .

لَوْ لَمْ تَكُنْ تَجْرِي عَلَى أَسْيَافِهِ مُهْجَاتِهِمْ لَجَرَّتْ عَلَى أَقْبَالِهِ (٣)

ووصل ماسيره المجلس من اسلاب العدو ، وهو ممن يسخو بما تعطيه عواليه فلا يبقى عنده من آثار مغنمه ، الا ما يسربله العدو من آثار دمه ، وقسمنا من هذا المغنم انما هو سلامة نفسه التي تجدد كل يوم من (٩٦ ب) المسار مغنماً ، كما تجدد كل يوم في ذات الله مغرماً ، فهي الغارمة فيما تغنم ، والباذلة مهجتها فيما تسلم ، واذا رام لوصف ذكر مساعيها فقد فتق مسكاً ، ونظم سلكاً ، واكثر فيما قال افكا ، فان الحديث عنها لا يفتري ، والمحدث عن اخبار البحر كمن يرى ، ونحن في عهده من اياديا تتضمن اربها (٤) ان الودّ وحقه ، والشكر وصدقه ، وقد عرّضت على حاكم الاخاء قبلها ، وأمضى الحكم فيها واسجلها ، غير ان هذا الراهن على نفاسة مقداره ، لا يقوم بدين تلك الايادي على اكثره ، فاما ان يخفف المجلس من ثقل ديونه ، واما ان يقبل ما بذله الاخاء من رهونه ، والسلام ان شاء الله تعالى .

كتاب كتبه عن الملك الافضل علي بن يوسف الى الملك العادل نور الدين ارسلان شاه صاحب الموصل عنايةً بشخص من بلده :

يخدم المجلس السامي الملكي العادلي النوري جعل الله جنباه مرتع الانعام ، ومرجع النقص والابرار ، ومجمع الاجلال والاعظام ، ومفرغ الليالي والايام ، ويواصل بدعائه الذي يغدو ويروح ، ويفوح حين يبوح ، وتلقاه الملائكة فنقل من القلب الى الروح ، وهذا هو الدعاء الذي تمت (٩٧ آ) باهدائه ، وينادي به الملائكة الاعلى فيلبي دعوة ندائه ، ومن عادته ان يستجلب أمثاله من كل قلب يبلغ الاغراض ، وكل لسان يذبح الاعراض .

وعارض هذه الخدمة الشيخ الصالح فلان ، وهو من اختيار الرجال ورجال الأخيار ، وفرسان الليل ورهبان النهار ، وحضر عند الخادم فوجد منه رائحة الايمان ، وقال اني لأجد نفس الرحمن ، ومما زاده أنساً بقربه ، ورغبةً في حبه ، أنه من ارض يحل المجلس بدارها ، ويسري أثر فضله في اقطارها ، وقد دل بكتابه هذا على نباهة مكانه ، وأحب ان يكون من حسنات المجلس التي ثقل بها كفة ميزانه ، والنور الذي يسعى بين يديه وبايمانه . وخير الاحسان مصادف موضعه ، وغدا حُسن الذكر والاجر مقترنين معه ، ولهذا الرجل مزرعة ببلد الموصل محصولها يسير ، والثواب بسببها كثير ، وما تغله اليوم من عرض دنيا يصير الى نفاذ ، فانه يكون غداً من ازواد المجلس الباقية في المعاد ، وهو بحمد الله ممن يرى البر مغنماً لامغرم ، ويتخذ الصنائع التي ترضي (١) الله سلماً ، والخادم يود ان تكون منزلته في اخراه كما هي في اولاه ، ولا يستزيد المرء احسان ربه الا شكر ما اولاه ، والشكر ليس عبارة عن حركة اللسان بالاحماد ، بل عبارة عن حركة اليد بالارقاد ، (٩٧ ب) والمجلس لا يدل على مكرمة وبه يستدل ، ومن مآثره يستدل ، والغمام غني بكثرة مائه عن الاعتصار ، وبخلق سماحته عن الاستمطار ، والشيم الكريمة تقتضي نفسها فعل الكرم ، ولا تقتصر الى الاستنقاغ بوسائل الذم .

ولم يقدر هذا الكتاب هز المجلس في اسبغ مواهبه فجاءت على يده آيات انعامه ، ودعا الى مودته فاتاها الخادم ياسلامه ، وقد ألقى اليها بيده ، وجعلها ذخيرة ليومه وغده ، واتخذها لباس فخر ولا يشينه الاخلاق ، وكنز عز لا ينفذه الانفاق ، وهو يعدها من نعم الله التي أغنت عن التعرض لنفحاتها ، والتأهب للقاء غدواتها وروحاتها ، وألطف النعم ما جاءت غير محتسبة ، ووافيت غير مكتسبة ، وقد

عاد الى الخدمة مستصحباً كتاب الخادم وأمله ، حاملاً من لطاف دعائه وثنائه ماحملاً ، وكان آنسه بمحضره ، وشوقه الى لقاء مصدره ، فما يزال ذاكراً ماأهداه اليه من أوصاف المجلس الذي تشرق في جوانب الأسماع ، وتقضي لشمل المعالي بالاجتماع ، وسار بعد أن ترك بهذه الارض منها طيباً ، وأبقى للخادم من أحاديث مجدها أنساً غريباً ، فله بذلك اليد التي تقصر الألسن عن شكرها ، والأعناق عن حمل برّها ، وللآراء العالية مزيد العلوّ ان شاء الله [تعالى] .

[٧٥]

كتاب كتبه عن نفسه الى الملك الافضل علي بن يوسف (٩٨ آ) عنايةً بشخص من العجم من بلد اذربيجان ، كان يخدم الملك الافضل ، وفارق خدمته ثم عاد اليها ، وكتب هذا الكتاب على يده من الموصل . الى الديار المصرية في ربيع الاول سنة خمس وتسعين وخمس مائة :

يقبل الارض بين يدي مولانا الملك الافضل نور الدنيا والدين ، جعله الله على الممالك قيماً . وفي ذرى العلياء مخيماً ، واحصن به عقائل المكارم ولا أبقى منهن أيماً ، ولازالت أيامه مواسم الجود ، ومعالم الوفود ومناظم عقود الجدود ، وملاحم كمد العدو والحسود .

وينهى ان هذه الخدمة من قيد فلان (١) وهو يمت الى مولانا بسابق احسانه الذي هو وسيلة تغني عن الوسائل ، وتجعل توالي معروفها من موجبات الاوائل ، ولم يفارق الخدمة الا بالاذن الكريم ، ولا سار عنها الا وأمله بأبوابها مقيم ، وقد عاد اليها رغبةً في شرف المطلب ، لاهرباً من ضيق الذهب ، وتعذر المكسب .

لَنْ يَكْرُمَ النَّائِلُ الْمُسْعَطَىٰ وَإِنْ أَخَذَتْ بِهِ الرِّغَائِبُ حَتَّىٰ يَكْرُمَ الطَّلَبُ (٢)

ولما لقيه المملوك وجده مقيماً على ولائه ، الباعث لمولانا على اجتبائه (٩٨ ب) متشبثاً الى خدمة الباب العزيز دون وطنه وآبائه ، اذ النسب الى الجدود الطارفة . اعلى من النسب الى الجدود السالفة ، والاعتزاء الى سماء شرف نالت اليد شهابها ، اكرم من الاعتزاء الى أرض وطن مسّ الجلد ترابها . ولما قصد الخدمة اصحبه المملوك هذه الاسطر سافرة الى مالك رقبها ، عاضدة حق ولائه بحقها ، وقد تحمل في طريقه مغارم اذاتها ثقةً بالفداء من الانعام ، ومن اعتلق بحبل مولانا هو غير وان يتحكم على الايام ، وقد كفل له المملوك ذلك كفالة لا يخشى معها غرماً ، عالماً انه سينزل من الظل الظليل منزلاً لا يجد به وحشة ولا عدماً ، وانه ستبدل به عن وطنه خيراً منه زكاةً واقرب رحماً . واريحية مولانا لاتفتقر الى هزها باطالة

الخطاب ، اذ المورد العذب (١) غير محوج الى طول الارشية وامتداد الاسباب ، وللآراء العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[٧٦]

كتاب آخر كتبه عن نفسه اليه عنايةً بشخص من بلد الموصل :
يقبل الارض بين يدي مولانا الملك الأفضل لازلت يده للمعروف قبله ، وحرمه
لذوي المطالب رحلةً ، وسجاياه لعادمي لاسبب (٩٩) الى بابه سبباً بل طلباً
لفضيلة الثواب من طالبه . والرأي أعلى من شاء الله تعالى .

[٧٧]

كتاب آخر كتبه عن الملك الأفضل عبي بن يوسف الى الملك نصره ندين ابي
بكر بن البهلوان صاحب بلاد رنية جواباً عن كتابه :
ورد الكتاب الكريم عن تجلس نسامي الملكي لازال ظلّه ممدوداً ، ويحره
موروداً ، وحرمه مقصوداً . ونوؤده معقوداً . وعلاؤه محسوداً ، وشرفه وشرف أبائه
معهوداً ، فأغنى عن يد الخادم غناء المطر ، وجعل بصيرته في ولائه كالبصر ، وكساه
من أنواره ماتكسو به الشمس وجه القمر ، فصار من عطائه مادة ماله ، ومن بهائه
مادة جماله . ولقد أتى بالفضل العميم والمجد الصميم ، وأضاء في وجهه الزمن البهيم ،
وقيل « أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم » (٢) فأحيت بالقلم الذي
وشاه ، والكرم الذي غشاه . والنهج الذي كان عليه ممشاه ، فما مرّ بارض إلا كساها
روحاً وريحاناً . واعطاها من أذى الدهر أماناً . (٩٩ ب) .

وإذا حلّ ساعةً بمكانٍ فأذاه على الزمانِ حرامٌ (٣)

وأحسن ما فيه أنه زار ولم يُستزِرْ ، وأتى عفواً ولم ينتظر ، ومن فضله انه ورد في
شهر رمضان فكان قرآناً منزلاً ، ووحياً مرسلأ ، إلا أنه قرآن تكلم به مولى الآمال ،
وتقطع به أرض الإمحال ، وتسير به جبال الافضال ، فأخذ الخادم فيه سبباً طويلاً ،
وحمل منه قولاً خفيفاً وبرأً ثقيلاً ، وجعل يوم وروده عيداً أفطرت فيه صيام
مطامعه ، ونصبه لها هلالاً (٤) أشرق مطلعته قبل الهلال ومطلعه ، ووصل رسول
الجلس ووصله ، وينتهي أن هذه الخدمة واردة من يد فلان ، وهو من انشاء البيت
الكريم وطلاقته ممن () (٥) الفقر الذي لزمه ملازمة الغريم ، ولا يعرف

نفسه الا من أبناء جوده . وميلاده أنما هو ميلاد غناه لاميلاد وجوده . ولما قصد الباب العزيز رmqته عيونُ الحُساد . وتعلقتُ به آمالُ الاهل والاولاد . والآمال في مولانا أموالاً حاصل في الاكياس . والطامع في كرمه (١) لا تخشى عادية الافلاس . وقد تأخر له على الديوان رسم ثلاث سنين . وينبغي أن يجعل عشراته بسبب ذلك مئين . فان رسم الانعام اذا تأخر على الكرام . كان كالتجائر التي تجددُها ربحاً في كل عام . وقد كان المملوك يسعى له الخدمة بسبب المناسبة في الارض والبلد . (١٠٠ أ) والمال ولوئذ . فمولانا ما يغنيه عن الظهير والسند . ومن تمام الانعام الموهوب تعجيل آيات بتعجيل المطلوب . فان سرعة العطاء عطاء ثان . والمطل لسبب البخل مذ كن وحيث كن . ولأراءِ العالية مزيد العلوان شاء الله تعالى .

[٧٨]

فصل من كتب كتبه عن نفسه الى صفي الدين ابي بكر وزير الملك العادل ابي بكر بن يوب عذية بشخص من أهل دمشق . ليسعى له الى مخدومه في حاجة عرضت له :

من شيم الكرام الذين أوطأهم المجلس عقبه . وأرسل دونهم حجه . أن يروا الخلة على خفاء مكانها . فيبدلوا فيها من الطواعية فوق امكانها . وللخادم حاجة يخف السعي فيها على اللسان . وتثقل المنة بها في الميزان . وهي كذا وكذا وقد فوض الى رايه الكريم حل عقدتها . واخراجها من عهدتها . وهي من زكاة الجاه التي هي كزكاة المال . ومما تُقام الاقوال في انجاحها مقام الافعال . وقد كان خاطب فيها قوماً فرجاً مطراً من غير سحاب . ولم يحصل مما خاطب به الا على بذل الخطاب . ولم يرض المجلس عنها الا ادخاراً لما هو أعظم منها . فأبى الفضل إلا أن يكون لأهله . وأراد ان لا يكون الري والنصح إلا من سجله . وقد نادى كرمه معلناً بالنداء . وبسط إليه يد الاستجداء . فاذا يسر أمرها فقد طوقه باحسانه طوق الحمامة . ونشر عليه فضله نشر ظل الغمامة . ونقله من درجة الابتدال الى درجة الاتباع . واسترقه ورق الامتنان أشرف من رق الاتبياع . وللمجلس على الخادم أياد لاتوازن هذه حبة مثقالها . ولا تبلغ أذنى منالها . وقد نبه لها غمر الحاجات (٢) ومن الاقتضاء . والسلام .

تم الكتاب والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وسلم

الصحيفة ٦٣

- (١) مجاهد الدين قايماز، تولى الحكم باربل نيابة عن مولاه علي بن بكتكين سنة ٥٥٩ هـ ثم انتقل الى الموصل متولياً عليها من قبل سيف الدين غازي سنة ٥٧١ هـ. فسكن قلعتها وبنى فيها جامعاً ورباطاً ومدرسة ومارستاناً ووقف عليها الوقوف الكثيرة. وكان المبارك بن الاثير كاتباً بين يديه ومنشئاً عنه. ويكشف هذا النص ولاول مرة - ان ضياء الدين بن الاثير كان من كتابه ايضاً. اتصل به من الشعراء بسط ابن التعاويذي والحيص بيص ومدحوه. توفي سنة ٥٩٥ هـ.
- انظر ترجمته واخباره في ابن الفوطى ٣ / ١٠٥٦ وذيل الروضتين ص ١٤ وكامل ابن الاثير (وفيات سنة ٥٩٥ هـ) والنجوم الزاهرة ٦ / ١٤٤ ومرآة السبط ٨ / ٤٥٨ وتاريخ اربل ٢ / ٦١ والاعلام ٥ / ١٨٨ ووفيات الاعيان ٤ / ٨٢ ومفرج الكربوب ٢ / ١٥٣ وتلخيص مختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ص ٨ - ٩.
- (٢) البيت للمنتهبي في ديوانه ص ٤٩٧
- (٣) في الاصل: ادراكه. وهي من وهـ نسخ.

الصحيفة ٦٤

- (١) في الاصل: اساه
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٣ / ٣٤٤. وروية لديون: نعماك منعماً.
- (٣) البيتان لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٧٧
- (٤) الملك الافضل على بن يوسف بن ايوب:
- صاحب الديار الشامية. سقى بمملكة دمشق بعد وفاة ابيه صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ واخذها منه اخوه العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٣ هـ واعطياه صرخد. وحين توفي العزيز عثمان سنة ٥٩٥ هـ صار الافضل وصياً على الطفل الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بمصر ثم اخرجته منها عمه العادل واعطاه سميحاً فظل فيها الى ان توفي سنة ٦٢٢ هـ.
- انظر ترجمته في الكامل ١٢ / ١٦٤ ووفيات الاعيان ٣ / ٤١٩ والسلوك ١ / ١١٦ - ١٣٥ والروضتين ٢ / ٢٢٨ - ٢٣١ والمرآة ٨ / ٤٣٥. ٤٤١ والاعلام ٥ / ٣٣ والعبر ٥ / ٩١ والشذرات ٥ / ١٠١ وذيل الروضتين ١٤٥.
- (٥) الناصر صلاح الدين (يوسف بن ايوب):
- من المجاهدين الذين خلدوا على مر الزمن. دحر الفرنجة ايام الغزو الصليبي. وواقعة حطين اشهر من ان تذكر وكانت فاتحة لاسترداد طبرية وعكا ويافا ثم بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ. توفي سنة ٥٨٩ هـ بعد ان عطر التاريخ بذكوره. انظر مصادره في الاعلام ٨ / ٢٢٠ ووفيات الاعيان ٧ / ١٣٩ - ٢١٨

هوامش ص ٦٥

- (١) في الاصل: دراهم.
- (٢) في الاصل: سهم.
- (٣) البيتان لابي تمام في ديوانه ٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠. رواية الاول: تحت الظلام بصورة.
- (٤) في الاصل: أو نبا له

هوامش ٦٦

- (١) القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي : ولد بعسقلان وانتقل لمصر . كان من وزراء السلطان صلاح الدين الايوبي ومن مقريه ، ولم يعمل لاحد من بعده . وكان صلاح الدين يقول : لاتظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل . من ائمة كتاب الرسائل . له ترجمة في النجوم الزاهرة ٦ / ١٥٦ وابن خلكان ١ / ١٥٨ - ١٦٣ والروضتين ٢ / ٢٤١ والاعلام ٣ / ٣٤٦ وطبقات السبكي ٤ / ٢٥٣ والعبر ٤ / ٢٩٣ والشذرات ٤ / ٣٢٤ . وديوانه مطبوع في جزئين .
- (٢) رقم الآية الكريمة ٤ ك سورة يوسف رقم ١٢ . ونص الآية بتمامها :
يا ايتها اني رأيت احد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين .

هوامش ٦٧

- (١) البيت للمتنبى في الشرح المنسوب للمكبري ١ / ٨٥ وفي ديوانه ص ٣٨٤
(٢) ما بين قوسين كذا في الاصل .

هوامش ص ٦٨

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٢ / ٢٧

هوامش ص ٦٩

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٣ / ١٥٧
(٢) البيتان لابي تمام في ديوانه ٣ / ٣٤

هوامش ص ٧٠

- (١) وقع خلل في ترتيب الاصل المخطوط ، اذ جاءت تنمة هذه الرسالة . وهي المحصورة بين عضادتين في اول الورقة ١٩٠ ب فاقضى التنويه .

هوامش ٧١

- (١) في الاصل : بحجزه .
والحجزة : موضع شد الازار .
(٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٣ / ٢٣٧ ورواية الديوان : تَلَمَّتْهُمْ عَزَّ القوم .
(٣) في الاصل : للفود

هوامش ٧٢

- (١) اسفاد : أعار
- (٢) في الاصل : لياقها
- (٣) الرسم : النوق التي ترسم في الارض .

هوامش ٧٣

- (١) الاصل : شفيقا

هوامش ص ٧٤

- (١) الآية الكريمة رقم ٢٤ م سورة التوبة رقم ٩
- (٢) الوشيح : شجر الرماح .
- (٣) الآية الكريمة رقم ٦٠ م سورة الانفال رقم ٨
- (٤) الحديث الشريف ؟

هوامش ٧٥

- (١) الآية الكريمة رقم ٨٢ م سورة التوبة ٩ . وتماص : جزاء بما كانوا يكسبون .
- (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٨٢
- (٣) الآية الكريمة رقم ١٧ م سورة التغاين رقم ٦٤
- (٤) ما بين قوسين كذا في الاصل المخطوط .

هوامش ص-٧٦

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ١٩٦ / ٢ . ورواية الديوان : وما يروض فعله .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٢٥٩ / ١ . ورواية الديوان : روتقها بحرها ...

هوامش ٧٧

- (١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٠٧
- (٢) البيتان للبحتري في ديوانه ص ١٢٦٨ .
- (٣) البيت لابي تمام في ديوانه ٣٨٧ / ١

هوامش ص ٧٨ :

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٢٢٣ / ٣ .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوان ١٦٧ / ١ .

هوامش ٧٩

- (١) في الاصل ، عقة

هوامش ٨٠

- (١) عجز بيت للمتنبي وصدرة في ديوانه ص ٣١٥
ان السلاح جميع الناس تحمله
- (٢) البيت للبحري في ديوانه ص ١٩٩٥ ورواية الديوان : فأقمت .

هوامش ٨١

- (١) كذا في الاصل .
- (٢) كذا في الاصل .

هوامش ٨٢

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٤٠٧/٢
- (٢) في الاصل : بمعاودة
- (٣) في الاصل : ظهر
- (٤) كذا في الاصل ولعلها الصحح .

هوامش ٨٣

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٦٩/٤ .
- (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٣٢٣
- (٣) في الاصل : يحق

هوامش ٨٤

- (١) عجز بيت للمتنبي وصدرة : بليت بلى الاطلاع إن لم أقف بها
- (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٣٤٥
- (٣) البيت للبحري في ديوانه ص ١٧٣٤

هوامش ٨٥

- (١) البيت لابي تمام في ديوانه ٦٧ / ٤
- (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٢ .

هوامش ٨٦

- (١) البيتان للخنساء في ديوانها ص ٨٩ - ٩٠
طبعة دار الاندلس ببيروت (١٩٧٨) .
- (٢) في الاصل : دحوتي
- (٣) الابيات لمتعم بن نويرة في رثاء أخيه مالك انظر مجموع شعرهما المطبوع تحت عنوان « مالك ومتعم ابنا نويرة اليربوعي » ص ١٢٥ - تحقيق ابتمام مرهون الصفار . وفي الهامش احاله على مراجع عديدة .

هوامش ٨٧

- (١) ما بين عضادتين زيادة يستقيم بها المعنى .
- (٢) هو الامير مجاهد الدين يرتقى الذي تولى تدبير دولة قطب الدين محمد بسنجار بعد وفاة والده عماد الدين زنكي سنة ٥٩٤ هـ . وكان عادلاً ديناً . انظر وفيات الاعيان ٢ / ٣٣١ .
- (٣) البيتان للمتنبي في ديوانه ص ٤٣٣ .

هوامش ٨٨

- (١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٢٦٦ .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٤ / ٣٢ .

هوامش ٨٩

- (١) كذا في الاصل .
- (١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٣٦١ .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٣ / ٢٩ . وروية ليدون : غير روحه .
- (٤) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٤٦ .

هوامش ٩٠

- (١) في الاصل : أسراها .
- (٢) عجز بيت للمتنبي في ديوانه ص ١٦٩ وصره : فلو كنت امرأ يهيجي هجونا
- (٣) الملك العزيز (عثمان بن يوسف بن ايوب) :
من ملوك الدولة الايوبية في مصر . حول نزاع دمشق من يد اخيه الافضل مرتين فلم ينجح . ونجح في الثالثة سنة ٥٩٢ هـ فقام عيب عمه تعدل بو بكر . له علم بالحديث والفقه توفي سنة ٥٩٥ هـ . انظر ترجمته في ابن خلكان ٣ / ٣٥١ ونسوك ١ / ١١٤ - ١٤٤ وابن الاثير ١٢ / ٥٤ والنجوم الزاهرة ٦ / ١٢٠ والاعلام ٤ / ٢١٥ ومرآة الزمان ٤٦٠ وذيل الروضتين ١٦ والعبر ٤ / ٢٨٧ والخطوط ١ / ٢٣٥ والشذرات ٤ / ٣١٩ .

- (٤) الملك العادل (ابو بكر سيف الاسلام محمد بن ايوب) :
من عظام سلاطين الدولة الايوبية . كان نائب السلطنة بمصر عن اخيه صلاح الدين اثناء غيبته في الشام . ثم واه اخوه مدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ وانتقل الى الكرك ثم استولى على مصر سنة ٥٩٦ هـ وانتزعه من يد الافضل ، وضم اليها الديار الشامية وملك زمنية سنة ٦٠٤ هـ ثم ملك اليمن سنة ٦١٢ هـ . وتوفي قرب دمشق سنة ٦١٥ هـ وهو يجهز العساكر لقتال الاقونج ودفن بالمدرسة العادلية . وهو الذي ازال الاسماعيلية من مصر . انظر ترجمته في الوفيات ٥ / ٧٤ والسلوك للمقريزي ١ / ١٥١ - ١٩٤ والاعلام ٦ / ٤٧ وابن اياس ١ / ٧٥ ومرآة الزمان ٥٩٤ وذيل الروضتين ١١١ والشذرات ٥ / ٦٥ والوافي بالوفيات ٢ / ٢٣٥ والنجوم الزاهرة ٦ / ١٦٠ والعبر ٥ / ٥٨ .
- (٥) الآية الكريمة رقم ١٠٥ ك سورة الانبياء رقم ٢١ .

هوامش ٩١

- (١) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٤٩
- (٢) في الاصل : فيرجع
- (٣) في الاصل : ومنورها
- (٤) في الاصل : التي
- (٥) البيت لابي تمام في ديوانه ١٣ / ٢
- (٦) في الاصل : فطير

هوامش ٩٢

- (١٠) البيت لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٦١ .
- (٢) الملك المحسن الايوبي (احمد بن يوسف بن ايوب) :
من امراء الدولة الايوبية وعلمائها . ولد بمصر وسمع بها وبدمشق ومكة . وتوفي في حلب سنة ٦٣٣ هـ .
انظر ترجمته في ترويح القلوب ص ٩٨ - ٩٩ . والمبر ٥ / ١٣٦ والشذرات في وقيات ٦٣٣ هـ والاعلام ١ /
٢٧٣ .

هوامش ٩٣

- (١) البيت للمتنبى في ديوانه ص ١٢٤ .
- (٢) في الاصل : ماتكائر عليه تكائر عليه الحجج .

هوامش ٩٤

- (١) في الاصل : ريب

هوامش ٩٥

- (١) بياض بمقدار كلمة بالاصل .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ٣ / ٢٢٧

هوامش ٩٦

- (١) اظلب الكلمة مظموس فاجتهدنا .
- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٦٨ .

هوامش ٩٧

- (١) البيت لأبي تمام في ديوانه ١ / ١٧١ .
- (٢) في الاصل : عناده
- (٣) سقط بمقدار كلمة .
- (٤) الآية الكريمة رقم ٣٠ ك سورة ص رقم ٣٨ .

هوامش ٩٨

- (١) زيادة يتم بها المعنى .
- (٢) في الاصل : اذنا .
- (٣) الآية الكريمة رقم ٧٩ ك سورة الانبياء رقم ٣١ .
- وتمام الآية الكريمة « وكلا آيتنا حكماً وعلماً » .
- (٤) في الاصل : رمها

هوامش ص٩٩

- (١) لم تقف على قائله
- (٢) في الاصل : اجتمعوا

هوامش ص١٠٠

- (١) البيتان للمتنبي في ديوانه ص ٤٦٧
- (٢) كذا في الاصل .
- (٣) في الاصل : الضوى بالضوي
- (٤) من هنا حدث خلل في ترتيب الاوراق في المخطوط . فصوبناه بالبيات تنمة الرسالة من خلال قراءة المخطوط كله وربطناه موضوعياً . مع الابقاء على ارقام ورقات الاصل المخطوط .
- (٥) جزعنا : قطعنا .

هوامش ص ١٠١

- (١) في الاصل بياض بمقدار كلمة فاجتهدنا .
- (٢) في الاصل بياض بمقدار كلمة فاجتهدنا .
- (٣) في الموضع كلمة مبهمة .
- (٤) في الاصل : الامجلا مجالاً .
- (٥) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٧٨
- (٦) في الاصل : احصلتني .

هوامش ١٠٢

(١) البيتان للبحثري في ديوانه ص ٢٠٧٠ .

(٢) البيتان لابي تمام في ديوانه ٣ / ٢٦٧ . ورواية الديوان : مؤكداً برسيم

هوامش ١٠٣

(١) تاج الدين الكندي ابو اليمن زيد بن الحسن : مسند العصر ولد سنة ٥٢٠ هـ ببغداد . كان غزير العلم ونال المكانة العليا . له مصنفات ضاعت ولم يبق سوى شرحه لديوان المتنبي وهو مخطوط . وله شعر جمعنا ماتبقى منه ونشرناه . وحين توفي سنة ٦١٣ هـ انقطع بموته اسناد عظيم ونزل الناس بموته درجة في القراءات وفي الحديث . ودفن بسفح قاسيون في دمشق . انظر ترجمته واخباره في : الانباه ١٢ / ٢ ومراة الزمان ٨ / ٥٧٧ والشذرات ٥ / ٥٥ والمبر ٥ / ٤٥ وغاية النهاية ١ / ٢٩٨ وذيل الروضتين ٩٨ والوفيات ٢ / ٢٣٩ والبغية ١ / ٥٧١ والكامل لابن الاثير ١٢ / ٣١٥ والمسجد المسبوك ٣٣٥ والمختصر المحتاج اليه ٢ / ٧١ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢١٩ وارشاد الاريب ٤ / ٢٢٣ وتعليقة ابن جماعة الورقة ١٠٨ - ١٠٩ .
وانظر عنه الكتاب المعنون : « زيد بن الحسن الكندي : حياته وشعره »
بغداد - ١٩٧٧ . تصنيف : د . سامي العاني وهلال ناجي .

هوامش ١٠٤

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٩ .

هوامش ١٠٦

(١) البيتان لابي تمام في ديوانه ج ٣ ص ٣٥٥ . ورواية الاول : وكان من الزهر الجني .

هوامش ١٠٨

(١) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

(٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

(٣) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

(٤) البيتان لابي تمام في ديوانه ٢ / ١٧١

هوامش ١٠٩

(١) البيتان للمتنبي في ديوانه ص ٢٧٧

هوامش ١١٠

(١) في الاصل : اشعر

- (٢) كلمة مبهمه .
 (٣) البيت في ديوان المتنبي ص ٤٧٧
 (٤) البيت لابي تمام في ديوانه ٢ / ٣٦
 (٥) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٢٦٤ .

هوامش ١١١

- (١) لعله أراد ان الشكر يقص جناح النعمة فلا تشرد وتظن مقيمة .
 (٢) كذا في الاصل ولعله (يصوغ) .
 (٣) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٤) نمية ، يقال جلود نمة اذا كانت لاتمسك الماء . ونمية : تضيعة
 (٥) تصدا ، أي تصدأ
 (٦) البيتان لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٢٢

هوامش ص ١١٢

- (١) كذا وردت في الاصل المخطوط ولعلها (رقيقة) .
 (٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٣) في الاصل : الاسواد
 (٤) في الاصل : العقنى
 (٥) في الاصل : النهنى
 (٦) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

هوامش ص ١١٣

- (١) حميل السيل : مايجيء به السيل . وما يحمله من غشاء وطين .
 انظر اللسان مادة حمل .
 (٢) في الاصل : بالوسيلة .
 (٣) كذا في الاصل
 (٤) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٣١٨ .

هوامش ص ١١٤

- (١) في الاصل : ومق

- (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٢٦٥ .
 (٣) الآية الكريمة رقم ٢١ ك سورة القصص رقم ٢٨ . واول الآية الكريمة :
 « فخرج منها خائفاً يترقب قال ... »
 (٤) البيتان للبحثري في ديوانه ص ٧٩ .

هوامنن ص ١١٥

- (١) في الاصل : وقدره .
 (٢) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٤٩١ .
 (٣) مابين عضادتين زيادة يستقيم بها السياق .
 (٤) المدرة : بيت الرجل
 (٥) في الاصل كلمة مبهمة

هوامش ص ١١٦

- (١) في الاصل : فاللاضطرار .

(٢) مجد الدين بن الاثير :

ابو السعادات المبارك بن أبي الكرام محمد بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري المعروف بابن الاثير . محدث لغوي اصولي . اتقن علوم العربية والقرآن والنحو واللغة والفقه والحديث وغيره . ولد سنة ٥٤٤ هـ . بجزيرة ابن عمر . وكان عفيفاً متواضعاً شغوفاً بالعلم مقرباً من ملوك وأمراء عصره . صنف الكثير . ووصلنا من مؤلفاته : النهاية في غريب الحديث والاثر . وجامع الاصول في احاديث الرسول . المرصع في الآباء والامهات والابناء والبنات والاذواء والذوات . ومثال الطالب في شرح طوال الغرائب . توفي في الموصل سنة ٦٠٦ هـ . انظر ترجمته في : معجم الادباء ١٧ / ٧٢ ووفيات الاعيان ٤ / ١٤١ والكامل ٩ / ٣٠٢ والتاريخ الباهر ص ١٨٥ - ١٨٧ . ١٩١ - ٢٠١ .
 (٣) الآية الكريمة رقم ٢٥ ك سورة الدخان رقم ٤٤

هوامش ص ١١٧

- (١) في الاصل : ضَعْنَا

- (٢) البيت لابي تمام في ديوانه ١ / ٢٠٣

- (٣) (الملك الظاهر غازي بن يوسف بن ايوب (٥٦٨ هـ - ٦١٣ هـ) .

من ملوك الدولة الايوبية ولد بالقاهرة واعطاه والده مملكة حلب سنة ٥٨٢ هـ فتولاها الى ان توفي ودفن في قلعتها . شارك في معظم غزوات والده .

انظر ترجمته في وفيات ابن خلكان ٤ / ٦ - ١٠ ومفرج الكرب ٢ / ١٧٨ و ٣ / ٢٤٧ وفي ذيل الروضتين ٩٤ وكامل ابن الاثير ١٢ / ١٢٠ والاعلام ٥ / ١١٣ ومراة الزمان ٥٧٩ والعبير ٥ / ٤٦ والشذرات والنجوم الزاهرة : ٦ / ٢١٦ . ٥٥ / ٥٥

(١) البيت لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٧٥ .

(٢) البيت لابي تمام في ديوانه ١ / ٣٢٢ .

هوامش ص ١١٩

(١) عجز بيت للمتنبي في ديوانه ص ٥٦٧ صدره : « إذ شفتيت من داء بداء » .

(٢) البيتان للمتنبي في ديوانه ص ٤٤٧ .

(٣) الآية الكريمة رقم ٤١ ك سورة هود رقم ١١ . و « لآية نكريمة » . وقال اركبوا فيها « .

هوامش ص ١٢٠

(١) البيتان للمتنبي في ديوانه ص ٤٣٠

(٢) الملك نور الدين ارسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قضب ندين مودود بن زنكي صاحب الموصل . اثنى عليه ابن الاثير في كامله كثير وشكر منه ومن عنه وشهامته . كان شافعي المذهب . وبنى للشافعية مدرسة كبيرة بالموصل وبها تربته توفي سنة ٦٠٧ هـ .

وقام بالملك بعده ولده القاهر عز ندين مسعود . وجعل تدبير مملكته في غلامه بدر الدين لؤلؤ الذي صار الملك اليه سنة ٦٣٠ هـ . انظر البداية والنهاية ١٣ / ٥٧ . ٦١ . والشذرات ٥ / ٢٤ . والتاريخ الباهر ١٨٩ - ٢٠١ ووفيات الاعيان ١ / ١٩٣ .

(٣) في الاصل : يقتضي .

هوامش ص ١٢١

(١) الآية الكريمة رقم ١٠٦ ك سورة النحل رقم ١٠٦ .

(٢) في الاصل : الشامية .

(٣) ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري الموصلية . قاضي قضاة بغداد . وهو ابن اخي قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري . ايام نور الدين . ولما توفي سنة ست وسبعين « وخمسائة » في ايام صلاح الدين اوصى لولد اخيه هذا بالقضاء فوليه . ثم عزل عنه بابن ابي عصرون . وعوض بالسفارة الى الملك ثم تولى قضاء بلدة الموصل . ثم استدعى الى بغداد فوليه سنين واربعة اشهر . ثم طلب اعفائه وصار الى قضاء حماة لمحبه اياها . وكانت لديه فضائل وله اشعار رائقة . توفي في حماة سنة تسع وتسعين وخمسائة .

انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣ / ٣٥ .

(٤) في الاصل ، لكمة .

(٥) كلمة مبهمه في الاصل .

هوامش ١٢٢

(١) الحفان : حفن الماء على رأسه ، القاه بحفنته . ويقال حفن للقوم وحفاً المال اذا اعطى كل واحد حفنة .
انظر اللسان (حفن) .

(٢) العبارة مبتورة . ولعل الاصل : مجدها الله تعالى .

(٣) في العبارة سقط ولعل الاصل : أخرج منها العسل .

(٤) في الاصل : يستعبد

هوامش ص ١٢٣

(١) في الاصل بياض بمقدار كلمتين .

(٢) في الاصل : تشيل

(٣) في الاصل : فاومن .

هوامش ص ١٢٤

(١) الآية الكريمة رقم ٤٣ ك سورة هود رقم ١١

(٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

(٣) الآية الكريمة رقم ٤٤ ك سورة المؤمنون رقم ٢٣ .

(٤) انظر في اخبار هذا الجذب والمجاعة التي رافقته كتاب عبد اللطيف البغدادي المعنون « الافادة والاعتبار »
وكان شاهد عيان فيها .

هوامش ص ١٢٥

(١) بياض في الاصل بمقدار ثلاث كلمات

(٢) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .

(٣) الآية الكريمة رقم ٦ ك سورة المعارج رقم ٧٠ . واولها : « انهم يرونه ... »

(٤) الآية الكريمة رقم ٧ م سورة آل عمران رقم ٣ . واولها :

« هو الذي أنزل عليك الكتاب منه ... » .

(٥) في الاصل ، رغبة القوم .

(٦) كذا في الاصل ولعلها (زهرته) .

- (١) الآية الكريمة رقم ٦٣ م سورة النور رقم ٢٤ .
 (٢) الآية الكريمة رقم ٥٤ م سورة النور رقم ٢٤ . وتتمة الآية الكريمة : « وما على الرسول الا البلاغ المبين » .
 (٣) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .
 (٤) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٥) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٦) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

هوامش ص ١٢٧

- (١) الملك مظفر الدين كوكجوري بن زين الدين :
 صاحب اربل . ولد في قلعة الموصل وولي اربل بعد وفاة ابيه وأقام بها عدة وانتقل منها الى الموصل ثم دخل الشام واتصل بالسلطان الناصر صلاح الدين الايوبي . وكانت له مواقفه المشهورة في قتال الغزاة الصليبيين بالساحل .
 تزوج ربيعة خاتون بنت ايوب اخت السلطان صلاح الدين . وكان فارساً شجاعاً وكريماً جواداً .
 عمر الجامع المظفري بسفح قاسيون وكان يحتفل بالمولد النبوي احتفالاً هائلاً . وله صنف ابو الخطاب ابن دحية مجدلاً في المولد النبوي سماه « التنوير في مولد البشير النذير » . وكان يفتك من الفرنج في كل سنة خلقاً من الأسارى المسلمين حتى قيل ان جملة من استفكه من ايديهم ستون الف أسير .
 توفى - رحمه الله - بقلعة اربل سنة ٦٣٠ هـ .
 انظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣ / ١٣٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٢٨٢ وذيل الروضتين ١٦١ والعبير ٥ / ١٣١ والشذرات ٥ / ١٣٨ والوفيات ٤ / ١١٣
 (٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٣) في الاصل تحريف .
 (٤) في الاصل تحريف .
 (٥) في الاصل كلمة مطموسة .
 (٦) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

هوامش ص ١٢٨

- (١) كلمتان مطموس وسطهما .
 (٢) كذا وردت في الاصل .
 (٣) في الاصل ، خادمة .
 (٤) انظر اللسان مادة (زمر) .
 (٥) في الاصل : الذي .

هوامش ١٢٩

- (١) بياض كلمة في الاصل .
- (١) البيت لأبي تمام في ديوانه ١ / ٣٦٦ .
- (٢) في الاصل : اصلها واهليها .
- (٣) في الاصل : عنيت

هوامش ١٣٠

- (١) الكلمة محرفة في الاصل
- (٢) البيت للبحثري في ديوانه ص ٤٥٨ ورواية الديوان : قد تديرُ الجفونُ .
- (٣) في الاصل : سورهم .
- (٤) المجاهد الايوبي (اسد الدين شيركوه) صاحب حمص من ملوك بني ايوب . كان صاحب حمص كأبيه وجده . واشتهر بالشجاعة له علم بالحديث . وشارك في وقائع ثغر دمياط (٦١٥ - ٦١٨) .
- وتوفي في حمص سنة ٦٣٧ هـ وكانت له ايضاً الرحبة وتدمر وماكسين من بلاد الخابور .
- انظر ترجمته في ترويح القلوب ص ٣٩ والاعلام ٣ / ١٨٣ ووفيات الاعيان ٢ / ٤٨٠ وابن عساكر ٦ / ٣٥٨ وتاريخ ابن خلدون ٥ / ٢٨٢

هوامش ١٣١

- (١) في الاصل : لظل
- (٢) في الاصل : خروج
- (١) البيت لابى تمام في ديوانه ١ / ١١٢ ورواية الديوان : وان تحملت عنه كان ...

هوامش ١٣٢

- (١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٦٣
- (٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٣) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٤) في الاصل : بكسون
- (٥) في الاصل : احصها . ولعل الصواب ماثبتنا .
- (٦) البيتان لابي تمام في ديوانه ج ٣ ص ١٨٧ . ورواية الثاني في الديوان : ولا أرى .
- (٧) زيادة يستقيم بها السياق .

هوامش ١٣٤

- (١) في الاصل ، حماية
- (٢) في الاصل ، موبل
- (٣) كذا في الاصل
- (٤) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٤٠٤ .

هوامش ١٣٥

- (١) في الاصل ، كما .

هوامش ١٣٦

- (١) ما بين عضادتين زيادة يستقيم بها السياق .
- (٢) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .
- (٣) في الاصل : فخراً .
- (٤) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .
- (٥) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .

هوامش ١٣٧

- (١) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٢) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٣) في الاصل ، ووجدهما .
- (٤) البيتان لابي تمام في ديوانه ٢ / ٢١ ورواية صدر الاول : من سماء للندی
- (٥) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٦) في الاصل : ركابه .
- (٧) زيادة يقتضيا السياق .

هوامش ١٤٢

- (١) بيس في الاصل بمقدار كلمة .
- (٢) الاية الكريمة رقم ١ ك سورة العلق رقم ٩٦
- (٣) في الاصل ، للمرو . (٤) في الاصل : بكل . (٥) هذا مأخوذ من الخبر النبوي في قوله - صمم - حاج آدم موسى . أنت اخرجت الناس بخطيئتك من الجنة واشقيتهم . فقال له آدم : انت الذي اصطفاك الله تعالى برسالته وكلامه ، اتلومني على أمر كتبه الله تعالى عليّ قبل ان يخلقني ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فحج آدم موسى » .. انظر المثل السائر ١ / ١٩٦ - ١٩٧ .

- (٦) في الاصل : الممالك .
 (٧) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٤٠٧ . وفي الاصل لذعائث . وهو تحريف
 (٨) في الاصل : صنعة .
 (٩) في الاصل : اظلم

- هوامش ص ١٣٩

- (١) هو اقتباس من الآية الكريمة « والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيراً أملاً » سورة الكهف الآية رقم ٤٦
 (٢) في الاصل محجّم
 (٣) قطب الدين محمد بن زنكي ، من اتابكة سنجار تولى الحكم من سنة ٥٩٤ هـ الى سنة ٦١٦ هـ حيث تولى ابنه عماد الدين شاهنشاه بن محمد . انظر معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباور ص ٣٤١ . ووفيات الاعجمان ٢ / ٣٣١ .
 (٤) في الاصل : مرد

هوامش ص ١٤٠

- (١) كذا وردت العبارة في الاصل وفي النفس منها شيء .
 الحزيم : الصدر

هوامش ص ١٤١

- (١) في الاصل : الاستعاف .
 (٢) بياض بمقدار كلمتين .
 (٣) في الاصل : اخلان .
 (٤) بياض في الاصل بمقدار كلمة
 (٥) بياض في الاصل بمقدار كلمة
 (٦) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
 (٧) زيادة يقتضيها السياق

هوامش ص ١٤٢

- (١) في الاصل : موب
 (٢) البيتان للمتنبى في ديوانه ص ٣٦٦
 (٣) في الاصل : بحر
 () زيادة يستقيم بها وزن البيت .
 (١) في الاصل : قد

هوامش ص ١٤٣

- (١) في الاصل : علف

- (٢) في الاصل : سحو بوبها ، ولا معنى لها . ولعل الصواب ما أثبتنا .
 والشؤبوب : الدفعة من المطر .
 (٣) الاصل : التي
 (٤) في الاصل بياض بمقدار كلمة .
 (٥) كذا في الاصل .
 (٦) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٧٨
 (٧) ما بين عضادتين مطموس في الاصل فأكدته .
 (٨) في الاصل : لانتفتيه

هو مش ص ١٤٤

- (١) هو الرشيد بن بدر النابلسي : من شعراء لدونة لايوية له شعر في مدح السلطان صلاح الدين الايوبي
 انظر الروضتين ٢ / ١٨٨) ومدح الظاهر بن صلاح الدين : شفاء القلوب ٢٣٧) والعاذل (شفاء القلوب
 ص ٢٢٥ - ٢٢٣) .
 (٢) في الاصل : سسه
 (٣) اجزاءه : اغناه .

هو مش ص ١٤٥

- (١) الابيات للبحثري في ديوانه ص ١٣٠٦
 (٢) ابو بكر صفى الدين عبد الله بن علي بن شكر .
 كان وزيراً للعاذل الايوبي ثم غضب عليه . وترضه لكرم وأعدى له وزيرته وحرمة . كان محباً للعلم
 وأهله له مصنف سماه « البصائر » اصله من دميرة بمصر توفي سنة ٦٦٠ هـ ودفن بمدرسته المشهورة
 بمصر .
 انظر البداية والنهاية ١٣ / ١٣٦

- (٣) في الاصل : ظلالات
 (٤) في الاصل : حتما

هوامش ١٤٦

- (١) كلمتان مبهتان
 (٢) البيت لأبي تمام في ديوانه ٤ / ٤٩ .
 (٣) في الاصل : فجزي في العناية به الى حدى .

- ٤ : يصر في لاصل بمقدار كلمة .
- ٥ : في لاصل : بالصور .

هوامش ١٤٧

- ١ : في الاصل : اذا
- ٢ : بياض في الاصل بمقدار كلمتين .
- ٣ : كذا وردت في الاصل .

هوامش ص ١٤٨

- (١) في الاصل : سحات
- (٢) في الاصل : مصيعة
- (٣) بياض في الاصل بمقدار كلمة .
- (٤) الآية الكريمة رقم ١ ك سورة الاسراء رقم ١٧ . وتماها :
- « سبحانه الذي اسرى بعبيده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى »
- (٥) الآية الكريمة رقم ١٨ ك سورة النجم رقم ٥٣ .
- (٦) كلمة مبهمة في الاصل .
- (٧) في الاصل : اسران

هوامش ص ١٤٩

- (١) الوشيعة : المتفرقة

هوامش ص ١٥٠

- (١) في الاصل : وذل
- (٢) في الاصل : الفذ
- (٣) في الاصل : النوم
- (٤) ما بين عضادتين زيادة يستقيم بها الكلام .
- (٥) في الاصل : يرجوع
- (٦) بياض في الاصل بمقدار نصف كلمة .

هوامش ص ١٥١

- (١) بياض في الاصل بمقدار نصف كلمة .
- (٢) في الاصل : صدوقها
- (٣) في لاصل : لضاء

- (٤) في الاصل : بل أما .
(٥) بياض في الاصل ولعل الصواب ما أثبتنا .

هوامش ص ١٥٢

- (١) بياض في الاصل بمقدار كلمة فاجتهدنا .

هوامش ١٧٠

- (٢) في الاصل : صميته
(٣) في الاصل : اشواق
(٤) في الاصل : بياض بعده كلمة مبهمة
(٥) في الاصل : وتصطيعها . ولعل ما أثبتناه
(٦) في الاصل : متخذ
(٧) في الاصل : بانه

هوامش ص ١٥٣

- (١) في الاصل : لا يرده

- (٢) في الاصل كلمة مبهمة .

هوامش ص ١٥٤

- (١) في كلمة أبهت علينا .
(٢) كلمة مبهمة .

- (٣) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٢٨٦ .
(٤) كذا وردت وهي غير مفهومة .

هوامش ص ١٥٥

- (١) في الاصل : الذي رضي

هوامش ص ١٥٦

- (١) في الاصل : فلا
(٢) البيت لأبي تمام في ديوانه ١ / ٢٤٥ . ورواية الديوان : الظفر المعطى

هوامش ص ١٥٧

(١) في الموضوع طمس أتمناه .

(٢) الآية الكريمة رقم ٣٠ ك سورة النمل رقم ٢٧

(٣) البيت للمتنبى في ديوانه ص ٢٦٢

(٤) في الاصل : هلال

(٥) بياض في الاصل بمقدار كلمة .

هوامش ص ١٥٨

(١) كلمة مبهمة

(٢) بياض في الاصل بمقدار كلمتين .